الجاهلية في الشعر الجاهلي

الحياة السياسية عند العرب

دراسة مقارنة على ضوء الإسلام

تأليف
محمد حامد الناصر



مكتبة السنة

الحياة السياسية عند العرب
محمد حامد الناصر
مكتبة السنة

الجاهلية في الشعر الجاهلي

الحياة السياسية عند العرب

دراسة مقارنة على ضوء الإسلام

تأليف
محمد حامد الناصر

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة - بالقاهرة
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م



القاهرة ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين «ناصية شارع الجمهورية»
تليفون ٣٩٠٠٣١٨ - فاكس ٣٩٢٦٢٥٠ - تلكس ٢١٧١٩ TLT-HRB UN

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونصلي ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد :

إن الجاهلية لفظة لها دلالة واضحة ، وفهم بيّن وجليّ عند المسلمين ، وقد سمّى الله تعالى علواً كبيراً حالة العرب قبل الإسلام بالجاهليّة فقال جل من قائل مخاطباً أمهات المؤمنين عليهن الرضوان : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾[1] وقال : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ .. ﴾[2] .

وإننا نعيش الآن في غربة ، غربة جديدة للإسلام ولابد من عودة جادة إلى المنابع الأولى الصافية ، منابع العقيدة والسنة ، وكيف ربى الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم .

قال صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء »[3] .

هذه الغربة تجعل محاولة العودة كأنها جولة جديدة .. وسيتوفر لها عنصر الجدة .. فيكون حافزاً لها على بلوغ القمة »[4] ولابد من الاستفسار

---

(١) سورة الأحزاب : آية (٣٣) .

(٢) سورو المائدة : آية ٥٠ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه .

(٤) منهج التربية الإسلامية : ١٩/٢ للأستاذ محمد قطب .

عن أسباب هذه الغربة ، ومدى التيه والضياع الذي يعيشه اكثر المسلمين اليوم ، وإن معرفة أصول الجاهلية ، التى أكد عليها الإسلام ، وحاربها ونفّر منها ، وأطال الوقوف عندها ، تنير لنا الطريق في هذا العصر وخاصة إذا عرفنا التشابه القوي بين مظاهر الجاهلية كما كانت عند العرب قبل البعثة ، وبين كثير من الانحرافات في العصر الراهن تلك التي أدت بالمسلمين أن يعيشوا غربتهم الثانية هذه .

ولكن من عرف أصول الجاهلية ، وحقيقتها معرفة مبنية على ما جاء في القرآن والسنة فإنه سيقف على حقيقة هذه الجاهلية على أية صورة ، وبأي لبوس تظهر ... .

ولقد كان دائماً فى كل جاهلية قدر من الخير الظاهري ، ولا يمكن أن توجد جاهلية في أية لحظة على الأرض خلو من الخير كله ، فليس ذلك من طبائع الأشياء ولا طبائع النفوس .

إن الكيان البشري مهما فسد لا يمكن أن يتمحض للشر في مجموعه ! »[١] .

وكان في المجتمع العربي فضائل تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة السماوية الكبرى . ولكن هذه الفضائل استنقذها الإسلام استنقاذاً ووجهها الوجهة البناءة ، وكانت لولا الإسلام مضيعة تحت ركام الرذائل ، مفرقة غير متجمعة[٢] .

ويُلَاحَظُ أن كثيراً من أتباع هذه الأمة ، تختلف آراؤهم حول هذه الجاهلية ، جاهلية ما قبل البعثة ، فبعضهم يُعزّها ويفتخر بها ، ويعتبر أن

---

(١) جاهلية القرن العشرين : ط دار الشروق ، ١٤٠٠ هـ ص ٥٣ .
(٢) مقتبس من : ظلال القرآن : سيد قطب ٥٥٨/١ ط دار الشروق .

أصل العرب آنذاك وما هم عليه ، محطّ آمالهم ، ومجال فخرهم ، بينما يعتبر آخرون تلك المرحلة رجساً ووثنية ، يجب أن نتخلص من آثارها وأوضارها .

ومن أجل ذلك ، حاولت الرجوع في بحثي إلى المصادر الموثقة للشعر الجاهلي : مثل : المفضليات والأصمعيات ، والمعلقات العشر ، وكتاب طبقات فحول الشعراء ، وكتاب الشعر والشعراء ، ثم دواوين الشعر الجاهلي .. لتكوين صورة واضحة لما كان عليه القوم في جاهليتهم ، لأن الشعر الجاهلي من خير المصادر ، التي تصور حياة العرب في تلك الفترة ، إذ قد اهتم به علماء اللغة ودونوه ، أكثر من اهتمام المؤرخين ، فدراسة هؤلاء كانت ظنية تعتمد على الحدس والتخمين ، ودراسة الآثار .

أما القرآن الكريم ، فقد كان اعتمادي على هديه كبيراً ، وخاصة خلال مقارنة الجاهلية بما تلاها من عصور الإسلام ، فالقرآن صوّر حياة الجاهلية تصويراً دقيقاً حياً معبراً بالأحداث ، وقد كان يندد بوثنية القوم ، ويسفه أحلامهم ، وينال من كبريائهم ، مصوراً حالة العرب كما واجهها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه الكرام مع قومهم .

ورجعت إلى السنة النبوية ، وكتب السيرة ، إضافة إلى كتب التاريخ ... حيث ضورت لنا هذه المصادر صراع النخبة المؤمنة مع ذويهم ومعاصريهم ، وكذلك شعر الدعوة الإسلامية فقد ساهم مساهمة فعالة في هذا الميدان .

هذه أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث ، وسوف يكون التركيز على الشعر الجاهلي في دراسة تلك الجاهلية ، أما العصر الإسلامي وخلال المقارنة في الدراسة ، فإن التركيز سيكون على المصادر الإسلامية لأنها أقوى دلالة وأشد أصالة من الشعر .

وسوف أتابع مفهوم الجاهلية ، كما وردت في الشعر الجاهلي ، ذلك الشعر الذي صور لنا حياة العرب قبل الإسلام في حروبهم ، وثاراتهم ، وعاداتهم وعقائدهم ، وخرافاتهم ، وأرجو من الله أن يعينني على إتمام ذلك .

وقد جعلت البحث موزعاً على الكتب التالية :

١ - **الأول** : ويشمل الحياة السياسية عند العرب ، وما فيها من حروب وثارات ، وصراعات بين القبائل . ودراسة مفصلة عن العصبية القبلية تطورها ، ثم ظهورها في العصور التالية ، على صورة شعوبية حيناً ، وقومية أو وطنية حيناً آخر .

٢ - **الثاني** : ويشمل الحديث عن أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام .

٣ - **الثالث** : ويتحدث عن المرأة بين الجاهلية والإسلام .

٤ - **الرابع** : ويشمل البحث عن الحياة الدينية عند العرب وما فيها من عقائد وخرافات ، وعبادات في العصر الجاهلي .

وسوف أعتمد الدراسة المقارنة في كل ما كتبت ، والتحليل الهادف ، بين مفهوم الجاهلية كما توصلت إليها من الشعر الجاهلي ، وبين هدي الإسلام ، وكيف أنقذ هذه الأمة من تلك الرواسب الجاهلية ، مع رصدي لأثار هذه الجاهلية ، كلما ظهرت في الأفق في حياتنا المعاصرة وسوف نجد الشبه قوياً ، بين المظاهر العامة ، والمنطلقات المتشابهة بين الجاهلية الأولى ، وجاهلية القرن العشرين .

والحمد لله رب العالمين

مكة المكرمة : ١٤١٠/٧/٢ هـ

محمد الناصر

بين يدي البحث

قبل الشروع في فصول الكتاب ، أحب التعريف بمفهوم الجاهلية كما وردت في شعر العرب ، وكتب اللغة والأدب ، وكتب التفسير ، ثم تحديد العصر الجاهلي ، بعد بيان منزلة الشعر والشعراء .

١ – منزلة الشعر ومكانة الشعراء :

إن الشعر الجاهلي شعر قديم متصل الحلقات ، يصور حياة العرب قبل الإسلام ، فهو سجل العواطف والمفاخر ، سجل العصبيات والحروب ، فيه أيام العرب ووقائعهم ، وتدوين لأصولهم وأنسابهم ، يقول أبو هلال العسكري[١] : « لا نعرف أنساب العرب وتواريخها ، وأيامها ووقائعها ، إلا من جملة أشعارهم ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها » .

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
« كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »[٢] .

وللشعر منزلة عظيمة عند العرب وللشاعر مكانة لا تضاهى ، فإذا نبغ في القبيلة شاعر هنأتها القبائل ، وَصُنِعَتْ الأطعمة ، وأعلنت الأفراح لأنه حماية لأعراضهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ أو فرس تُنْتج[٣] .

---

(١) كتاب الصناعتين : ص ١٣٨ .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٢٤/١ .
(٣) كتاب العمدة . ابن رشيق .

وما تكاد القصيدة تلقى حتى تسير بها الرواة ، وتنشدها المجالس .

قال المسيب بن علس[1] :

فلأهدينّ مع الرياح قصيدة ... مني مغلغلةً إلى القعقـاع
تـردُ المياه فما تزال غريبـة ... في القوم بين تمثُّلٍ وسماع

فقصيدته تنشر بين القبائل ، ويرددها الناس مستمعين إليها ، ومتمثلين بأبياتها .

والأمثلة كثيرة لشعراء حموا أعراض قبائلهم ، ولشعراء تشفعوا لقبائلهم ، أو لأفراد منها فشفعوا ، وشعراء رفعوا الوضيع ووضعوا الرفيع .. .

فالأعشى يَقْدُمُ مكة ويمدح المحلّق ويذكر كرمه وشرفه ، وحسن صفاته بعد فقر وخمول ذكر – ثم تحدث عن بناته فقال :

أرقتُ وما هذا السّهاد المؤرق ... وما بي من سقم وما بي مَعْشَقُ
نفى الذمَّ عن آل المحلق جفنةٌ ... كجابية السَّيْح العراقي تَفْهَقُ

فما إنْ أتم قصيدته حتى انسل الناس إلى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يخطبون بناته العوانس ، فلم تمسِ منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف[2] .

وكان بنو أنف الناقة ، يأنفون من لقبهم هذا ، حتى إذا مدحهم الحطيئة بقوله :

قومٌ هم الأنفُ والأذناب غيرهم ... ومن يسوّي بأنف الناقة الذنَبا

صار اسمهم شرفاً لهم .

---

(١) المفضليات : ص ٦٢، المفضل الضبي ، تحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون .
(٢) العمدة ١/٢٥– والسيح : الماء الجاري ، والجابيه : الحوض الضخم .

ولقد كانت القبيلة تحرص على رواية شعرها ، فتعلم صغارها هذا الشعر ، وحفظ أشعار القبيلة خاصة ، كما كانت تفعل قبيلة تغلب في تحفيظ أبنائها معلقة عمرو بن كلثوم ، فهجاها شاعر بكر بقوله :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم ... يا للرجال لِشِعْرٍ غير مسئوم[1]

وفى الإسلام يأذن الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت رضى الله عنه ، أن يهجو كفار قريش ، وقال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم ، وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك ، وفي رواية أخرى : « اهجهم وهاجهم وجبريل معك »[2] .

وفى السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لحسان رضي الله عنه : « لشعرك أشد عليهم من وقع النبل »[3] .

مما يبين لنا أهمية الشعر في الذب عن الدعوة وأصحابها .

وبعد هذه الشواهد، –والأمثلة في مصادر الشعر كثيرة – يتبين لنا مدى اهتمام العرب بالشعر ، فهو خير مصدر لتصوير حياتهم ، وهو ديوان العرب ، ولذلك يمكننا استخراج مفهوم الحياة الجاهلية ، في مختلف مظاهرها من هذا الشعر . ثم من ردود القرآن الكريم على الانحراف حيناً لتقويمه ، وإنكار السلبيات المطلقة حيناً آخر ، وإن كان الأصل في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، أنهما جاءا لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان ، وأنّ معالجة القرآن والسنة لتلك الأوضاع الجاهلية ، وما اتسمت به تلك المعالجة من حكمة صائبة ، وعلاج ناجع لتلك الأرزاء ،

---

(١) انظر الشعر الجاهلى : د.يحيى الجبورى ص ١٣٦ ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي ، الدكتور أحمد محمد الحوفي .

(٢) أخرجه البخارى : ٢٢١/٦ فى بدء الخلق ، وأحمد : ٢٩٩/٤ .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء : الإمام الذهبى ، ٥١٢/٢ (حسان بن ثابت) .

كل هذا وغيره فضلًا عن اعتبار هذه المعالم التي جاء بها هذان المصدران العظيمان إنما هما من الدين الذي يتعبد به المسلم ربه ، ويؤمن به حكماً من لدن حكيم عليم .

٢ - تحديد العصر الجاهلي :

قد يتبارد إلى الذهن ، أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب ، ولكن البحث يظهر أن الأدب الجاهلي يعود إلى قرن ونصف قبل البعثة النبوية .

يقول الجاحظ[١] : « أما الشعر العربي فحديث الميلاد ، صغير السنّ ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أنْ جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام » .

وما قبل هذا التاريخ قد يشوبه الغموض ، ولا يعطينا صورة واضحة عن الحياة الجاهلية ، مثل إمارة الغساسنة ، ثم المناذرة ومملكة كندة في شمالي نجد .. ومعلوماتنا عن هذه الإمارة فيما وراء القرن السادس الميلادي محدودة[٢] .

والسيد محمود شكري الألوسي يحدد فترة الجاهلية بقوله : « وهي الزمن بين الرسولين ، تطلق على زمن الكفر مطلقاً ، وعلى ما قبل الفتح ، وعلى ما كان بين مولد النبي والبعث »[٣] .

وعلى العموم فإن الفترة الجاهلية التي تعنينا هي فترة ما قبل البعثة النبوية ، وهي لا تمتد أكثر من مائتي عام ، لأن ما وراء ذلك من الزمن

---

(١) الحيوان للجاحظ : ٧٤/١ (طبعة الحلبي) .
(٢) انظر العصر الجاهلي : د. شوقي ضيف ص ٣٩ .
(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : ١٥/١ .

يشوبه الغموض ، ولم يصل إلينا من الشعر الجاهلي قبل تلك الفترة شيء نطمئن إليه .

وفترة ما قبل الإسلام مباشرة هي الفترة التي ورثنا عنها الشعر الجاهلي ... وهذا العصر هو الذي بزغت عليه شمس الإسلام ، وصور القرآن الكريم وأحداث السيرة كثيراً من معالمه ، ومن صراع الحق مع الباطل وزيفه .

٣ - معنى الجاهلية :

أ - في كتب اللغة والأدب :

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة نجد أن مادة : جهل تعنى الجهل الذي هو خلاف العلم .. وقد جهل فلان جهلًا وجهالة .

وتجاهل : أي أرى من نفسه ذلك وليس به .
واستجهله : عده جاهلًا واستخفه أيضاً .
والمجهلة : الأمر الذي يحملك على الجهل .
والمَجْهَل : المغازاة لا أعلام فيها[1] .

وفى المعجم الوسيط : جهلت القِدْرُ جهلًا : اشتدّ غليانها وجهل على غيره جهالة وجهلًا : قسا وتسافه ، وجاهله : سافهه .

وفى القرآن الكريم : ﴿ قالوا أتتخذنا هزواً ، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ .

والجاهلية ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضلالة .. .

---

(١) الصحاح للجوهري مادة : جهل .

والمجهلة : ما يحمل الإنسان على الجهل . وجاء في الحديث الشريف : « الولد مبخلة مجبنة مجهلة » .

وهكذا : « نتبين أن الجاهلية ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه ، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق فهي تقابل كلمة الإسلام ، التى تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل ، وما يُطوىٰ فيها من سلوك خلقي كريم »[1] .

وقد تنصرف إلى معنى الجهل الذي هو مقابل الحلم ، وليس ضد العلم ، إلا أن العصر الجاهلي عرف كثيراً من الناس عرفوا بالحلم والتسامح ، مثل قيس بن عاصم ، والأحنف بن قيس وغيرهما ، حتى ضربت بحلمهما الأمثال[2] .

وجاء فى معلقة عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي لا يتسافه أحد علينا ... وقد يتضمن البيت معنى الظلم والطيش .

ب – وقد جاءت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بهذا المعنى ، معنى الحمية والطيش والغضب ، ففي سورة البقرة ﴿ أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ .

وفى سورة الأعراف : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

---

(١) العصر الجاهلي : دكتور شوقي ضيف ص ٣٩ ط دار المعارف بمصر .
(٢) انظر الشعر الجاهلي : د . يحيى الجبورى .

وفى الحديث الشريف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لأبي ذر وقد عير رجلًا بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية »[1] . أي فيك روح الجاهلية وطيشها ، تغضب فلا تحلم .

وهذا يبين أن المسلم قد يهفو ، ويكون فيه خصلة من خصال الجاهلية ، لكن الاستغفار والتوبة من أخلاق المؤمنين الأوابين إلى الله .

« ومما تقدم يظهر لنا أن الجاهلية كانت تعني الجهل لمعنى تجاوز الحق وعدم معرفته ، وتعني أيضاً الحمية ، حمية الجاهلية بما فيها من ثأر وطيش وحمق ، وسفه وكبر .

وأصبحت تطلق على العصر السابق للإسلام مباشرة وكل ما فيه من وثنية وأخلاق ، قوامها الحمية واقتراف ما حرم الدين الحنيف من موبقات »[2] .

أما تعبير الجاهلية في كتاب الله ، فقد جاء في تفسير هذه الآية : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3] .

إنَّ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى : أيعرض المشركون عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية ؟

وفي تفسير ابن كثير : « ينكر الله على من خرج عن حكمْ الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات ، التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ،

---

(١) مسلم بشرح النووي : ١٣٢/١١، ط دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ .
(٢) انظر المصدرين السابقين : العصر الجاهلى ، والشعر الجاهلى .
(٣) المائدة : آية (٥٠) وانظر تفسير فتح القدير للشوكاني ٤٨/٢ . وتفسير ابن كثير .

كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يصفونها بآرائهم وأهوائهم » .

وجاء فى تفسير هذه الآية في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله[1]:

« فالجاهلية كما يصفها الله ويحدد قرآنه هي حكم البشر للبشر ، لأنها هي عبودية البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا رفض بألوهية بعض البشر ، والعبودية لهم من دون الله » .

ثم يقول رحمه الله أيضاً : « إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع ، هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويوجد اليوم ويوجد غداً ، فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للإسلام ، والمناقضة للإسلام ... فالعبودية لغير الله جرت أهل الجاهلية إلى كل الضلالات السابقة وتحكيم الأهواء والعادات والتقاليد » .

والجاهلية بناء على ذلك تعني مفهوم الضلالات والسفه ، والطيش وتحكيم العادات والتقاليد ، بعيداً عن منهج الله في السياسة : حيث تحكيم القوانين الوضعية ، والاقتصاد حيث الربا والاحتكار ، والصفقات المحرمة ، وفي الحياة الاجتماعية حيث الاختلاط وشرب الخمور وبيعها ، والعري الفاضح بلا حياء ولا خجل ، وفي العقائد حيث أصبح الكفر يعلن في هذا العصر وتتبناه أنظمة ودول في الشرق أو الغرب .

مظاهر الجاهلية هذه تطل بشراسة وتخطيط علمي في جاهلية القرن العشرين .. تتلون بشعارات براقة كثيرة قد تخدع وتسيطر على العقول عندما تضعف آصرة العقيدة وتحكيم منهج الله .

وهذا ما نشاهده في بعض بلاد المسلمين مع الأسف ، وعند كثير من الأفراد والمجتمعات .

(١) في ظلال القرآن : المجلد الثاني ص ٩٠٤ الآية (٥٠) من سورة المائدة .

الفصل الأول

الحياة السياسية عند العرب قبل البعثة

المبحث الأول : لمحة موجزة عن حياة العرب قبل الإسلام

المبحث الثاني : الحروب بين القبائل .

المبحث الثالث : عادة الثأر عند العرب .

المبحث الرابع : الأحلاف عند العرب .

المبحث الخامس : أيام العرب .



المبحث الأول :

لمحة موجزة عن حياة العرب قبل الإسلام :

كان العرب ينحدرون من أصلين كبيرين هما : قحطان وعدنان[1] . ويتفرع منهما عرب الجنوب وعرب الشمال .

١ - عرب الجنوب :

وكان موطنهم في اليمن ، ثم تشعبت قبائل هذا الفرع (قحطان) وبطونه ، من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان منهم قبيلة (حِمْير) ، ومنها قضاعة ، ومنهم قبيلة كهلان ومن أشهر قبائلهم طيء وهمدان وكندة ولخم والأزد ، وأولاد جفنة ملوك صحراء الشام .

هاجرت هذه القبائل وتفرقت بعد انهيار سد مأرب عام (١٢٠ ق.م)، فسكنت الأزد المدينة ، وكان منها الأوس والخزرج ، ومنهم من نزل على ماء يسمى (ماء غسان) في الشام ، وأسسوا إمارة الغساسنة الموالية للروم أما قبيلة لخْم فقد سكنت الحيرة ، واصطنعتهم فارس إلى جوارها ، وبقي في اليمن كثير من قبائل حمير وكندة وغيرهم .

ومما يلاحظ أن هذه القبائل المهاجرة اختارت غالباً جوار الأمم المتحضرة ، ويذكر المؤرخون أن عرب الجنوب كانت لهم قدم راسخة في عمارة القصور والهياكل ، وتشييد السدود ، وكانوا يؤلهون النجوم والكواكب .

---

(١) انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى سنة ١٤٠٣ هـ .
وأنساب القبائل فى تاريخ العرب قبل الإسلام / جواد علي ، الجزء الرابع ٤١٤-٤٦٧ . ط ثانية ١٩٧٦ م .
والقبائل العدنانية ٤/٤٦٧ - ٥٤١ .

٢ – عرب الشمال[١] :

وكان موطن قبائل عدنان مكة المكرمة ، وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ، وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام .

ثم هاجرت بعض هذه البطون إلى مواطن الخصب والكلأ .. فنزلت ربيعة شرقاً ، وأقامت عبد القيس في البحرين ، وحنيفة في اليمامة . وأقامت سائر بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة ، وعبرت قبيلة تغلب الفرات فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات وسكنت قبيلة تميم بادية البصرة .

وأما فرع مضر بن معد بن عدنان ، فمن قبائله : سُليم وقد نزلت بالقرب من المدينة المنورة ، وأقامت ثقيف في الطائف ، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة المكرمة ، وسكنت قبيلة أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة ، وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى أراضي حوران .

وبقيت معيشة هذه القبائل صحراوية بدوية ، ولم تهيىء لهم هذه الحياة الاستقرار إلا في بعض واحات الحجاز ، ويظهر أن عرب الشمال لم ينجحوا في تكوين وحدة سياسية قبل الميلاد ، حيث أن طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق .

---

(١) المراجع السابقة ، والعصر الجاهلي : د. شوقي ضيف .

٣ - ملامح من النظام القبلي[١] :

استقرت هذه القبائل في الجزيرة ، وتجاور العدنانيون والقحطانيون ، ولم يكن لهذه القبائل دولة تضمهم ، ولا نظام موحد يسودهم ، بل كانت كل قبيلة تكون وحدة اجتماعية وسياسية مستقلة .

وكانت هذه القبائل متشابهة في تكوينها ونظامها ، فكل قبيلة كانت تقوم على أساس اشتراك أبنائها في الأصل الواحد والموطن الواحد ... ورباط القبيلة الأقوى هو العصبية ، والعصبية كما يعرفها ابن خلدون في مقدمته : « النصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضَيْم أو تصيبهم هلكة » .

وكان أفراد القبيلة متضامنين في المصائب والمسرات فقالوا : في الجريرة تشترك العشيرة[٢] .

ثم نشأعن طبيعة الجزيرة العربية ، وحتمية انتقال العرب وراء الماء وطلباً للكلأ ، النظام القبلي كضرورة اجتماعية وحيوية حتى يتنقلوا في جماعات توفر لأفرادها الحماية والأمن ... ولم يقتصر وجودها على البادية بل تعداها إلى الحواضر رغم قلتها وتناثرها في الصحراء المترامية[٣] .

ولقد كانت هيمنة القبيلة هي الأساس في البادية والحاضرة حيث أن هذه القبائل لم تفقد صورتها القبلية ، وظل لكل منها منازله الخاصة ، ومعاقلها الصغيرة ، وسيادتها وشئوونها الخاصة ، ومرد ذلك إلى أن رابطة القبيلة كانت أقوى من رابطة المدينة ، وقد تؤدي الثارات بين قبيلة وقبيلة إلى انقسام المدينة على نفسها .

---

(١) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي الجزء الرابع ص ٣٠٠ وما بعدها .

(٢) الشعر الجاهلي . د. يحيى الجبوري ص ٤٣-٤٤ .

(٣) الطريق إلى المدائن أحمد عادل كمال ص ٤٧ .

فوحدة القبيلة كانت أمراً مقدساً ، يترتب عليها طائفة من التقاليد ، تحدد علاقة الأفراد مع بعضهم ... وعلاقة الأفراد بقبائلهم ، لأن القبيلة هي الوحدة الاجتماعية التى عرفها المجتمع الجاهلي في البادية والحاضرة .. وكان أفراد القبيلة يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها ، متجانسة لا تباين بين أفرادها ... يعمل الجميع في سبيل هدف واحد وهو المحافظة عليها[1] .

كانت القبيلة في الواقع عماد الحياة في البادية حيث لا شرطة تؤدب المعتدين ، ولا سجون يسجن فيها الخارجون على نظام المجتمع وكل ما هنالك عصبية تأخذ بالحق ، وأعراف يجب أن تطاع ، والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو النسب ، حيث أن رابطة الدم عندهم هي رمز المجتمع السياسي في البادية ، والقبيلة هي الحكومة التي يفهمها الأعرابي ... وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المتعدي .

والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة أنذاك إلا أنها دولة القبيلة ، دولة صلة الرحم ... فالنسب عندهم هو دين الدولة وقانونها المقرّ المعترف به وبهذا العرف تسير الأمور ، فالحكام من القبيلة وأحكامهم تنفذ في القبيلة[2] .

وهكذا نلاحظ مدى اعتقاد القبيلة بوحدتها ، وشعورها بأن ذلك أمر مقدس ، يترتب عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية تحدد واجبات الأفراد وحقوقهم على أساسها ، ومرد ذلك كله هو العصبية ، التي تقضي أن يُنصر الفرد من قبل أفراد قبيلته ظالماً أو مظلوماً .

---

(١) الشعراء الصعاليك د. يوسف خليف ص ٨٧ .
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ٤/٣١٣-٣١٥ .

ولو تصفحنا الشعر الجاهلي ، لوجدنا الكثير منه يصور لنا هذه المعاني من عصبية ، وفخر ، وتعالٍ بالأنساب والمواقع الحربية ، دون الاستناد إلى عقلٍ مستنير ، لأن التعصب إلى القبيلة كان يفوق كل اعتبار .

يقول دريد بن الصمة[1] :

أمرتهم أمري بمنعرج اللـوى	فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى	غوايتهم وأنني غير مهتـد
وما أنا إلا من غزيَة إنْ غوتْ	غويتُ وإن ترشُد غزيةُ أرشُد

فالشاعر يرى رأي قبيلته ، ويتنازل عن رأيه ، من أجل متابعة رأيها ولو كان خطأً ، فضلاله ورشده يرتبطان بعشيرته فإن ضلت ضل معها ، وأمْعَن في الضلال ، وإنْ اهتدت اهتدى معها كذلك .

ويعبر النابغة الذبياني عن نفس المعنى بقوله[2] :

حدبتْ عليَّ بطونُ ضَنّةَ كلها	إنْ ظالماً فيهم وإنْ مظلومًا

كان على الفرد أن يحترم رأي قبيلته فلا يخرج عليه ، ولا يكون سبباً في تمزيق وحدتها ، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل أو تحميلها ما لا تطيق ، ولذلك اتخذت القبيلة حق الخلع أي الطرد لبعض أفرادها إذا تمردوا على تقاليدها ، كقتل بعض أفراد القبيلة ، أو سوء السلوك والخلق ، حسب مفاهيم القوم للأخلاق آنذاك ، وكان الخلع يعتبر من أشد العقوبات التي توجه للفرد في المجتمع البدوي حيث يهيم الخليع على وجهه طريداً يلتمس مجاورة رجل من قبيلة أخرى ، ولابد من إعلان الخلع هذا من قبل أهل

---

(١) الأصمعيات : عبد الملك بن قريب الأصمعي ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر – تحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ص١٠٧ .

(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، اختيارات الأعلم الشنتمري ص ٢٣٦ ، وضنة قبيلة من عذرة ثم من قضاعة وحدبت : عطفت وأشفقت .

الخليع ، ليكون ذلك معلوما فتسقط العصبية عندئذ عنه ، ويعلن ذلك في المواسم العامة كالحج مثلًا أو سوق عكاظ[1] .

شيخ القبيلة[2] :

ولكل قبيلة شيخها ، لهم عليه أن يتحمل تبعاتها ، وله عليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به ، وشيخ القبيلة يكون عادة شيخاً مجرباً يتميز بالحكمة ، ويكظم غيظه جاء في المثل « احلم تسد » ، وعليه أن يحترم الناس وأن يؤلف بينهم ، ويكون ملاذهم ، وأن يفتح بيته وقلبه للجميع .

وهو الذي يقود القبيلة في حروبها ويقسم غنائمها ، ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالفات ، ولا بد أن تتوفر فيه عدة صفات كالشجاعة والحسب والكرم والنجدة وحفظ الجوار ، وإعانة المعوزين ، ولابد من أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات، ولابد أن يعين أتباعه في كل جناية يجنونها، فهي وإن صدرت من غيره لكنها في النهايـة تقع على رأس سيد القبيلة ، ومن هنا كنّت العرب عن سيد القبيلة بقولها : « سيد معمم » أي كل جناية يجنيها أحد أفراد عشيرته معصوبة برأسه .

وغالبا يرث الشيخ سيادته عن آبائه ، وإلى ذلك يشير معاوية بـن مالك سيد بني كلاب وهو الملقب (بلمعودالحكماء) حيث يقول[3] :

إني امرؤٌ من عُصْبَة مشهورة　　　حُشُدٍ لهم مَجْدٌ أشمُّ تليـدُ

---

(١) انظر أسباب الخلع : كتاب الشعراء الصعاليك ص ٩١ وما بعدها . والخلع : « جواد علي ٤/٤١٠-٤١١ » .

(٢) انظر : عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٢٦/١ ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : ٣٤٤/٤-٣٤٨ ، والعصر الجاهلي : شوقي ضيف ص ٥٩ .

(٣) المفضليات : ط٥/دار المعارف بمصر ، أحمد محمد شاكر ، رقم القصيدة (١٠٤) ، والحشد الذين يحتشدون ويجتمعون للملمات .

أَلفَوْا أباهـم سيداً وأعانهـم كرمٌ وأعمامٌ لهـم وجدودُ
نعطي العشيرة حقها وحقيقها فيها ، ونغفرُ ذَنْبها ونسودُ
وإذا تحمّلنا العشيرة ثِقْلهـا قمنا به ، وإذا تعود نعـودُ

ويقول عبد الله بن عنمة ، (وكان حليفاً لبني شيبان) يرثي بسطام ابن قيس سيد بني شيبان ثم يذكر أعلام رئاسته فيها وقيادته[٢] :

لك المرباعُ منها والصفايـا وحكمُك والنشيطة والفضـولُ

هذه هي أهم صلاحيات شيخ القبيلة وخصائصه في العصر الجاهلي .

الاعتزاز بالنسب والقوة :

آمنت القبيلة بوحدة جنسها أي وحدة الدم ، فهم جنس ممتاز لا تفضلهم قبيلة أخرى ، فآباؤهم أشرف آباء ، وأمهاتهم أكرم أمهات ، والنسب عندهم جرثومة العصبية وأساسها ، ولهذا فيحرص العربي على حفظ نسبه ، ويروي لك شجرة هذا النسب ويبدأ النسب بالآباء غالبا وبالأم أحياناً .. فالبيت هو بيت أب ولذلك صار النظام فيه نظاماً أبوياً ، والسلطة العليا فيه للأب ، يتساوى في ذلك مجتمع الحضر ومجتمع أهل الوبر .

والعربي لا يعرف شيئاً غير القوة ولا يخضع إلا لسلطانها وهو فخور بنفسه متباه بشجاعته ، ويرى الجاحظ أن العرب أفخر الأمم وأرفعها وأحفظها لأيامها وينسب ذلك إلى طبيعة بلادهم ... فالعربي فخور بنفسه معجب بها يترفع عن غيره حتى لكأنه النمر مع أنه من أفقر الناس[٣] .

---

(١) الثقل : الغرم والدية وغيرهما ، يقول : تفعل ذلك كلما سئلنا مرة بعد مرة .

(٢) (المرباع) : هو ربع الغنيمة ، كان الرئيس يأخذه فى الجاهلية . و(الصفايا) : جمع صفية ، وهى ما كان يصطفيه الرئيس لنفسه من خيار الغنيمة (النشيطة) : ما أصابه الجيش فى طريقه قبل الغارة من فرس أو ناقة . و(الفضول) : ما فضل فلم ينقسم نحو الإداوة والسكين ، والنوعان الأخيران قد سقطا فى الإسلام. والأبيات فى الأصمعيات برقم (٨) ص٣٧، شرح أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٣٩٦/٤ ، ٣٥٣ ، ٣٠٧ .

وقد صوّر الشعر الجاهلي هذا الفخر ، الذي ما تزال تدوي أصداؤه في قصائد شعرائه .

ولعل معلقة عمرو بن كلثوم ، من خير ما يمثل الاعتزاز بالنسب ، والفخر بالآباء والأجداد إذ يقول[1] :

١ – ورثت مهلهلًا والخير منه زهيراً نعم ذخر الذاخرينا
٢ – وعتاباً وكلثومًا جميعـاً بهمْ نِلنا تراث الأكرمينـا
٣ – ومنا قبله الساعي كليبٌ فأي المجد إلا قد ولينـا

ثم يعتز بقوة قبيلته وعزتها ، وجبروتها فيقول[2] :

٤ – ونحن الحاكمون إذا أُطعْنا ونحن العازمون إذا عُصينا
٥ – ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا
٦ – وأنا المنعمون إذا قدرنـا وأنا المهلكون إذا أُتينـا
٧ – وأنا الشاربون الماء صفواً ويشرب غيرُنا كَدَراً وطيناً

إلى أن ينسى الشاعر نفسه ، ويتصور أنهم ملوك الدنيا ، المتصرفون الباطشون بلا رادع حيث يقول :

٨ – لنا الدنيا ومَنْ أضحى عليها ونبطِشُ حين نبطش قادرينا
٩ – إذا ما المَلكُ سامَ الناس خسفا أبينا أن نُقِرَّ الخسف فينـا

فالمعلقة كلها صياح وضجيج وهياج ، يتجاوز حدود العقل ، إلا أنها الجاهلية المتغطرسة ، بلا تعقل ولا تروٍ إذ تعلن على لسان شاعرها :

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٢٧٦ وما بعدها .
– مهلهل : هو عدي بن ربيعة أخو كليب وخال امرىء القيس وهو جد عمرو بن كلثوم من قبل أمه . وزهير : جده من قبل أبيه .

(٢) الحاكمون : العاصمون المانعون – العازمون : أي الغرم على قتال من عصاهم .
– الخسف : هنـا الظلم والنقصان .

١٠ إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ تخر له الجبابرَ ساجدينا
١١- ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا
١٢- ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

فالشاعر يفتخر بكثرة العدد عند قبيلته ، حتى ملأ أفرادها وجه الأرض وضاق البحر بسفنهم ؟! أما طفلهم الرضيع إذا بلغ الفطام انحنى له الجبابرة ساجدينا أذلاء .!! .

والشواهد كثيرة نختار منها بعض النماذج ، لإعطاء صورة واضحة عن جبروت الجاهلية وطيشها ، ذلك الجبروت الذي يتكرر في كل جاهلية على وجه الأرض ، لا تعي دور الإنسان وقدْره في هذه الحياة .

ومن هذا الشعر قول المرقش الأكبر يفتخر بكثرة عدد قومه من بني بكر بن وائل[1] :

هلّا سألت بنا فوارسَ وائِـل فلنحن أسرعها إلى أعدائها
ولنحن أكثرها إذا عُدّ الحصـى ولنا فواضِلُها ومجدُ لوائها

ثم يفتخر الشاعر بقوة قومه وشجاعتهم في الحروب ، فهم شعث الرؤوس لانهماكهم في القتال ، أجواد ذوو مروءة ، وأنَّ ناديهم خير نادٍ وأشرفه فيقول[2] :

شُعْثٌ مقادمنا نُهبىً مراجلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا
المطعمون إذا هبت شآميةٌ وخَيْرُ نَادٍ رآه الناس نادينا

فهم أصحاب حروب وقِرىً .

---

(١) المفضليات : المفضل الضبي – طبعة دار المعارف الثالثة ١٩٦٣ م رقم القصيدة (٥١) .

(٢) المفضليات : المفضل الضبي – طبعة دار المعارف رقم (١٢٨) .

ويفتخر طرفة بن العبد بقبيلته بكر ، فيتحدث عن كرمها وقوتها وحسبها بقوله[1] :

١ - ولقد تعلم بكر أننا آفة الجزر مساميحٌ يُسر
٢ - ولقد تعلم بكر أننا فاضلو الرأي وفي الروع وفر
٣ - ولقد تعلم بكر أننا صادقو البأس وفي المحل غر

والشاعر لبيد بن ربيعة يفخر كذلك بأحساب قومه وشرفهم فى معلقته ، ويعتبر المجد فيهم قد سنّهُ آباؤهم وورثوهم إياه فتبعه صغارهم بعد كبارهم[2] :

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنةٌ وإمامُها
فبنوا لنا بيتًا رفيعًا سمكه فسما إليه كهلها وغلامها

كان الاهتمام بالنسب مهماً في حياة العربي ، آمن به إيماناً شديداً ، وصارت الأنساب علماً عندهم رأوا منه ما يراه الناس في الوطن الآن ولاءً وفخراً بل وأشد من الولاء الوطني .

وكانت القبائل جميعها المتبدية والمتحضرة تتحد في نظمها السياسية وهي نظم قبلية تعتمد على الأعراف والتقاليد ، وكان الرابط الوحيد بين أفرادها هو العصبية ، إذ يجد فيها الفرد الأمن والسلامة في مجتمع لا يؤمن إلا بالقوة ، حيث لا دولة تحميه ، ولا سلطة يتحاكم إليها ، وكانت هذه العصبية للقبيلة فقط وليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، حتى

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، اختيارات الأعلم الشنتمري ط : دار الفكر ١٩٨٢ ، ص٤٢٢ .

المفردات : ١ - يسر : الداخلون فى الميسر .
٢ - تفضل سياستنا وآراؤنا رأي غيرنا ولا نخاف عند الروع بل نثبت ونتوقر .
٣ - أي وجوهنا مشرقة ترتاح للكرم .

(٢) المعلقات العشر . شرح التبريزي - ط : دار الكتب العلمية لبنان .

الإمارات التي نشأت في شمالي الجزيرة ظلت تقوم على هذا الأساس .. ولم ينفذ هؤلاء جميعًا إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، وكل ما هنالك كانت الإمارة اتحاداً قبلياً له رئيس[1] مما سنراه خلال حديثنا عن هذه الإمارات .

وكانت القبائل تعقد الأحلاف مع قبائل أخرى ، حماية لنفسها وخلال الحروب الضروس ، وأخذاً بالثأر ، وكثيراً ما تتكرر الحروب والغارات فيما يسمى (بأيام العرب) . هذه الصراعات الدامية كانت تشكل قوام حياة العرب السياسية والعلاقات الحربية . مما سنفصله في المباحث القادمة .

المنافـرات :

مفردها منافرة ، وسميت هكذا لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة إنا أعز نفراً ... ونافر معناه حاكم في النسب[2] .

وقد كثرت المفاخرات والمنافرات في الجاهلية ، إذ يزعم كل فريق أنهم أكثر عدداً وأعز نفراً ، وكان غالب مفاخراتهم و منافراتهم بالشجاعة والكرم والوفاء ، وذكر سادتهم وشجعانهم وأشرافهم ، وقد ذكر صاحب بلوغ الأرب نماذج كثيرة من هذه المنافرات كمفاخرة يمن ومضرُ ، ومفاخرة الأوس والخزرج ، ومنافرة عامر بن الطفيل مع علقمة بن علاثة ، ومنافرة هاشم وأمية[3] .

---

(١) انظر العصر الجاهلي : د. شوقي ضيف ص ٥٧ وما بعدها .

(٢) بلوغ الأرب للآلوسي : ٢٨٨ .

(٣) المصدر السابق : ١/٢٧٨-٣٠٧، ٢٨٨-٣٨٩ .

ومن أشهر المنافرات : منافرة عامر بن الطفيل مع علقمة بن علاثة ، تنافرا على رئاسة قومهما ، وذهبا إلى هرم بن قطبة الفزاري فقال لهما هرم : « إنكما قد تحاكمتما عندي ، وأنتما كركبتي البعير الأدرم[1] الفحل تقعان الأرض ، وليس منكما واحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه ، وكلاكما سيد كريم » ولم يفضل واحدًا على صاحبه كيلا يجلب بذلك شراً بين الحيين ، ونحر الجزر وفرق على الناس .

وعاش هرم حتى أدرك خلافة عمر رضي الله عنه فقال : يا هرم أي الرجلين كنت مفضلًا لو فعلت ؟ قال : لو قلت ذلك اليوم عادت جذعة ولبلغت شعفات هجر . فقال أمير المؤمنين : نعم مستودَع السر أنت يا هرم ، مثلك فليستودع العشيرة أسْرارهم وقال فيه الأعشى :

حكمتموه فقضى بينكم ... أبلج مثل القمر الباهر
لا يأخذ الرشوة في حكمه ... ولا يبالي غبن الخاسر[3]

وهكذا نجد أن هذه المنافرات ، تجسد لنا تلك العقلية التي تعتز بالعدد والكثرة ، والشجاعة والكرم ، وأن المنافر يعتبر نفسه وقبيلته من أفضل الناس ، وأشرف القبائل .

ومن هنا عاب القرآن الكريم هذا الأمر عند أهل الجاهلية فقال جل من قائلٍ : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

---

(١) بلوغ الأرب للألوسى : ١/٢٧٨-٣٠٧ ، ٢٨٨-٣٨٩ .
الجمل الأدرم : الذى سقطت أسنانه .

٤ - الإمارات العربية في شمالي الجزيرة العربية :

أقام العرب إماراتٍ لهم في عدد من المناطق في تخوم الشام حيث أسس الغساسنة إمارة لهم في شرقي الأردن والجولان ، وأسس المناذرة في الحيرة دولتهم على أطراف بلاد فارس .. ولقد أصطنعت الدولتان الكبريان هاتين الإمارتين لتكونا درعاً واقية لهما ضد غارات الأعراب من القبائل العربية وكثيراً ما وقعت الحروب بين هاتين الإمارتين لصالح ملوك فارس والروم ، وبدوافع قبلية أخرى .

إمارة الغساسنة[١] :

لا أريد في هذه الفقرة وما يليها - من حديث عن الإمارات - التأريخ لها ، وإنما القصد إعطاء فكرة موجزة، تعيننا في فهم دراسة الحياة الجاهلية ، وما قيل فيها من شعر .

كان من ملوك الغساسنة المشهورين الحارث بن جبلة ، وكان قد تنصر ثم خلفه ابنه المنذر ، وكان من ملوكهم أيضاً الحارث الأصغر ، وكانت جيوش الغساسنة تشتبك مع قبائل نجد كبني أسد وبني فزارة ، وقد وقع كثير من أسرى القبيلتين في يد عمرو أحد أبناء الحارث الأصغر ، الذي قصده النابغة الذبياني ومدحه متوسلًا إليه في فكاك الأسرى ، ومن روائع مدائحه فيه البائية التي يقول فيها[٢] :

إذا ما غزوْا بالجيش حلّق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائبهم
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

---

(١) انظر جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/٣٨٧-٥٣٨ .
(٢) اختيارات الأعلم : القصيدة ٦ رقم (٣) ص ٢٠٢ .

وعمرو وهو ممدوح حسان بن ثابت رضي الله عنه ، أيام الجاهلية حيث كان ينزل عليه وعلى غيره من أمراء غسان .

ومن مدائحه فيهم[1] :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم	شم الأنوف من الطراز الأول
يُغْشوْن حتى ما تهر كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل

إمارة المناذرة[2] :

أقاموا دولتهم في العراق، حيث رحلت قبائل لخم وتنوخ، واصطنعهم الفرس ليحاربوا بهم عرب الشام أحلاف الروم . ومن أهم ملوكهم : المنذر ابن ماء السماء (٥١٤-٥٥٤ م) وامتد سلطانه على عدد من قبائل نجد ، وكان له يومان : يوم نعيم ويوم بؤس ، وممن قتل في يوم بؤس المنذر الشاعر عبيد بن الأبرص ، وقتل المنذر في حروبه مع الغساسنة في وقعة عين أباغ ، وذلك عندما سار المنذر في معدّ كلها إلى الحارث الأعرج ملك العرب في الشام ، وطلب منه الفدية أو الحرب ، إلا أن جيوشه هُزمت بعد أن قُتل ولدان للحارث الأعرج ، ثم سار الحارث إلى الحيرة وأحرقها بعد أن نهبها[3] .

ثم خلف المنذرَ ابنهُ عمرو بن هند ، وكان طاغية مستبداً ، هجاه الشعراء ، منهم سويد بن خذّاق حيث يقول[4] :

---

(١) الشعر والشعراء : لابن قتيبة ٣١١/١، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثالثة .
(٢) انظر مملكة الحيرة ، جواد علي ١٥٥/٣-٣١٤ .
(٣) انظر : عين أباغ : الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٣٢٦/١ .
(٤) الأغاني : ١٢٦/٢١ طبعة ساسي ، والشعر والشعراء ٣٩٤/١ لابن قتيبة .

أبى القلبُ أن يأتي السديرَ وأهله وإنْ قيل عيشٌ بالسدير غزير [1]
به البقُّ والحمّى وأسْدُ خفيَّةٍ وعمرو بن هند يعتدي ويجور [2]

وقد قتله عمرو بن كلثوم في قصة مشهورة يشير إليها في معلقته[3] :

بأي مشيئة عمرو بن هنـد تطيـع بنا الوشاة وتزدرينـا
تهددنـا وتوعدنـا رويـداً متى كنا لأمك مَقْتوينـا

ومن ملوكهم النعمان الثالث بن المنذر المكنى بأبي قابوس ، وقد امتد سلطانه إلى نجد والبحرين وعمان، واشتهر بلطائمه[4] التي كانت إجارتها سبباً في حروب شغلت قبائل قيس ردحاً من الزمن ، ويقال : إنه لقي مصرعه على يد كسرى بسبب قتله عدي بن زيد العبادي .. وأبو قابوس هو ممدوح النابغة الذبياني الذي قال فيه اعتذارياته ومنها[5] :

أنبئت أن أبا قابوس أو عدني ولا قرار على زأر من الأسد

وبسبب مقتل أبي قابوس وودائعه التي تركها في قبيلة بكر كانت وقعة ذي قار ، بين بكر وحلفائها ، وجيوش كسرى من الفرس وحلفائهم من قبائل العرب .

لقد أدت هاتان الإمارتان : الغساسنة والمناذرة دورهما في خدمة سادتهما خير أداء ، فقد بطش ملوكهم بقبائل العرب بطشا مريعاً ، ففي يوم أوارة الأول مثلًا بطش المنذر بن ماء السماء بقبيلة بكر لأنها رفضت طاعته وقتل منها خلقاً كثيراً بعد حرب دامية ثم أسر منهم عدداً كبيراً وأمر بهم أن يُذبحوا على جبل أُوارة ، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار .

(١) الدير : قصر الملك .
(٢) أسد خيفة ، الحفية غيضة يتخذها الأسد عرينه ، أو اسم على المأسدة بعينها .
(٣) شرح المعلقات العشر للتبريزي ص٢٥٢ ، مقتوينا : أي خدماً .
(٤) اللطائم : قوافل التجارة .
(٥) ديوان النابغة والأعلم في اختياراته ص١٩٦ .

وابنه عمرو بن هند في يوم أوارة الثاني أسر وقتل إحراقاً بالنار (من بني دارم من تميم) ثمانية وتسعين ، وسمي لذلك محرّقاً[1] .

وبقي أمر الحيرة مضطرباً بعد مقتل أبي قابوس حتى فتحها المسلمون وأذعنت لخالد بن الوليد رضى الله عنه .

وهنالك إمارة كندة[2] :

حيث تقع في شمالي نجد في دومة الجندل ، ومن أشهر ملوكهم حجر الملقب بآكل المرار ، وقد سيطر على القبائل الشمالية في نجد واليمامة ثم خلفه خفيده الحارث الذي عين أبناءه على قبائل نجد ، ومنهم ابنه حجر والد امرئ القيس ، الذي ساءت سيرته في بني أسد فقتله بعد أن انهزمت كندة ، وغنمت أسدٌ أموالهم وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص[3] :

هلّا سألت جموع كندة ... يوم ولّوا هاربينا

وأمضى امرؤ القيس بقية حياته يستعين بقبائل العرب من حمير وطيء ، يريد الثأر من بني أسد ، وليستعيد ملك آبائه فلم يَشْتَفِ ، ثم اتجه إلى قيصر الروم ، ولقي حتفه بينما كان راجعًا من تلك البلاد ، ومن شعره في ذلك[4] :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

(١) انظر : يوم أوارة الأول والثانى : ابن الأثير ٣٣٤/١ ، وأيام العرب جاد المولى ص٩٩-١٠٠ ، وأوارة جبل من ناحية البحرين .
(٢) أنظر مملكة كندة : جواد علي ٣١٥/٣-٣٨٦ .
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٢١/١ .
(٤) ديوان امرىء القيس ص ٦٦ - واختيارات الأعلم .

٥ - مكة المكرمة وغيرها من مدن الحجاز :

تقع مكة المكرمة في منتصف الطريق المعبدة للقوافل بين اليمن والشام حيث تمسك بزمام القوافل التجارية ، وكانت تعتبر أكبر مركز ديني للوثنية عند العرب .

لقد كانت مسكنًا لقبيلة جرهم وبقايا الأمم البائدة ، ثم سكنها إسماعيل عليه السلام ، وأصهر إلى قبيلة جرهم ، ثم نزلت قبيلة خزاعة مكة وَأَجْلَتْ قبيلة جرهم عنها .

ثم نزلها قصي بن كلاب ومن معه من قريش ، وأصهر إلى خزاعة وأساءت خزاعة إلى البيت العتيق ، فأخرجها قصي ومن معه .

كان قصي بن كلاب مطاعاً في قومه ، سيداً رئيساً معظماً ، ولي أمر مكة، وجمّع قومه من منازلهم المتفرقة، وتملك على قومه فملكوه، وأقر العرب على ما كانوا عليه من النسيء والإجازة من مزدلفة ... حتى جاء الإسلام فهدم الله به كل ذلك .

وصارت إلى قصي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مُكة كله، وأقطع مكة رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة[١] .

قال قائلهم في مدح قصي وشرفه :

قصي لعمري كان يُدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر
همو ملأوا البطحاء مجداً وسؤددا ... وهمو طردوا عنا غواة بني بكر

ومكة لم تدنْ لأي ملك أجنبي وفي ذلك يقول حرب بن أمية[٢] :

---

(١) البداية والنهاية : لابن كثير ٢٠٥/٢ وما بعدها .

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ : ١٤١/٣ ، وصلاح هنا مكة .

أبا مطر هلمّ إلى صلاح ... فتكفيك الندامى من قريش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم ... أبا مطر هديت لخير عيش
وتنزل بلدة عزت قديمًا ... وتأمن أن يزورك رب جيش

ولم تؤد مكة وأهلها في الجاهلية إتاوة قط ... وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعز العرب فيتأمرون عليهم قاطبة »[1] .

وكانوا يأخذون إتاوة من التجار الغرباء إذا ألموا بهم ، مما يؤكد زعامة قريش ومكانتها عند العرب ، فمكة بيت كعبتهم وبيت تجارتهم ، أقاموا حولها الأسواق التجارية كسوق عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وكان يعرض فيها الشعر والأدب أيضاً ، وفي مكة دار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر للنظر في شؤونها الدينية والتجارية ، وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة من الغساسنة ، إلا أن مجتمعها كان قبلياً على أي حال ، فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض في حلف بغرض سدانة الكعبة والقيام على تجارة القوافل ، ولا سلطان لقبيلة على أخرى .

وكان مجلس دار الندوة ينظر في شؤون مكة ومصالحها ، حسب قوانين العرف والعادة ، وكان للفرد حريته ، وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية[2] .

وكانت الطائف[3] مصيفاً جميلًا ، يصطاف فيه القرشيون حيث الثمرات اليانعة والخمور الصافية ، وكانت تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وكانت حياتهم لا تختلف عن حياة القبائل النجدية البدوية في شيء سوى ما أتاحته

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه ، نقلا عن كتاب العصر الجاهلي لشوقي ضيف .
(٢) انظر العصر الجاهلي : د. شوقي ضيف .
(٣) انظر يثرب والطائف : جواد علي ٢٨/٤-١٥٨ .

لهم زروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش في مكة المكرمة .

أما المدينة المنورة . وكانت تسمى يثرب ، فقد سكنها اليهود في القرن الثاني الميلادي ، على أثر اضطهاد الروم لهم في فلسطين ، وظلوا يحتفظون بدينهم ، واتخذوا العربية لغة لهم في حياتهم اليومية ، وظلوا كذلك يحتفظون بالعبرية في طقوسهم الدينية ، وظهر بينهم عدد من الشعراء أمثال كعب بن الأشرف .

ثم وفدت قبائل الأوس والخزرج من اليمن على المدينة ، وأصبحوا سادتها الحقيقيين ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، ويعتمدون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة .

كانت حياة الأوس والخزرج تشبه حياة البدو مع أنهم سكنوا آطام المدينة ، وكانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية .

وكان اليهود يثيرون نار العداوة بينهم حتى كثرت أيامهم ووقائعهم مثل يوم حاطب ويوم فارع ويوم بعاث وغيرها .

وكانت الحياة بينهم دامية ، وكأنما تعاهدوا على الفناء لولا أن منّ الله عليهم بالإسلام ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانـًا .

وكان هنالك قرى خاصة باليهود أشهرها خيبر وفدك وتيماء ومازالوا بها حتى أخرجهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الجزيرة كلها ، وظهر من بينهم شعراء أمثال السمـوأل بن عادياء في تيمياء وكان معاصراً لامرىء القيس .

كان العرب لا يطمئنون إلى هؤلاء اليهود ، ولذلك لم يتأثروا في حياتهم الدينية بهم ، فقد ظلوا بعيدين عنها[1] .

---

(١) انظر : العصر الجاهلي لشوقي ضيف .

هذه صورة مجملة لحياة العرب وظروفهم السياسية في الحاضرة والبادية ، كانت قائمة على العادات والتقاليد ، ومظاهر الحياة القبلية هي التي تتحكم في علاقاتهم وسوف نتحدث عن هذه المظاهر إن شاء الله في المباحث القادمة .

المبحث الثاني
الحروب الجاهلية

أ – أسبابها .
ب – أثرها على موضوعات الشعر .
جـ – طريقة المقاتلة وأدوات القتال .
د – الأسرى والسبايا .
هـ – الدعوة إلى نبذ الحرب .

كانت الحرب أبرز ظاهرة يتميز بها المجتمع الجاهلي ، فحياة القبيلة تتلخص في الترحال والانتقال ، والغزو والثأر ، أو السبي والثأر ، وها نحن مع الشعر يصور لنا تلك الحياة الحربية .

أ – أسباب الحرب بين القبائل[1] :

إن الصلات القبلية كانت قد أسست على العداء والحروب المتوالية ، أو على التحالف والنصرة .

ولو تساءلنا ما أسباب هذه الحروب؟ وما الدوافع الكامنة وراء قيامها ؟ لوجدنا أن الاختلاف على الماء والمرعى ، بسبب جفاف الصحراء ، وقلة الموارد ، من أهم هذه الأسباب ، كما حصل في يوم سفوان عندما التقى بنو مازن وبنوشيبان على ماء يقال له سفوان ، فزعمت كل قبيلة أنه لها ، كان سببًا لحرب شديدة[2] .

وقد تشتعل الحرب رغبة في السلب والغارة ، لأن هؤلاء الغزاة جعلوا أرزاقهم في رماحهم ، ويصور لنا القطامي – وهو شاعر مخضرم – الفرسان وغاراتهم ، وديدنهم في السلب والغارة[3] :

وكنّ إذا أغرْن على جنابٍ ... وأعوزهن نهبٌ حيث كانا
وأحياناً على بكـر أخينـا ... إذا ما لم نجد إلا أخانـا

وكان الاستيلاء على الغنائم أو الأسرى من الدوافع الأساسية للحروب الجاهلية ، ومن وصية أكثم بن صيفي عندما بلغ قومه أن مذحجاً وأحلافهم

---

(١) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٢٣٠ وما بعدها ، د. محمد أحمد الحوفي ، والفروسية في الشعر الجاهلي : د. نوري القيسى .

(٢) العقد الفريد : ٢٠١ .

(٣) شرح الحماسة لأبي تمام : تحقيق العسيلان ٢٠٣/١ .

عازمون على غزوهم : « البسوا جلود النمر ، والثبات أفضل من القوة ، أهنأ الظفر كثرة الأسرى ، وخير الغنيمة المال »[1] .

فالحروب كانت ضرورة أساسية للحصول على العيش ، ولذلك افتخر الفرسان بجمع الأسرى ، والغنائم من إبل وغيرها ، يقول سلامة بن جندل ، إن بقاءه بعيداً عن الغزو ، سيؤخر عن جمع الإبل الكثيرة[2] :

تقول ابنتي إن انطلاقك واحداً ... إلى الروع يوماً تاركي لا أباليا
دعينا من الإشفاق أو قدّ مِي لنا ... من الحدثـان والمنيـة واقيـًا
ستتلف نفسِي أو سأجمع هجمةً ... ترى ساقييها يألمان التراقيـا

وقد تثور الحرب بسبب المنافرة بين خصمين سعياً وراء الشهرة والسيادة ، فإذا حكم القاضي لأحدهما زاد العداء اشتعالا وإذا كان الحكم خبيراً بما سيجره حكمه من تصدع سوّى بين المتنافرين كما فعل هرم بن قطبة حينما سوّى بين عامر بن الطفيل وعلقمة بـن علاثة العامريّين .

وقد تشتعل الحرب انتصاراً لقريب ، وإن كان ظالماً لأن شعارهم « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » على الحقيقة ، وليس على المجاز ، مـن نصرته . قال قُريْط بن أُنيف وكان بعض بني شيبان أغار على إبلـه ، فاستنجد بقومه فلم ينجدوه ، لجأ بعدها إلى بني مازن من قبيلة تميم فأنجدوه[3] :

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢٦١ .

(٢) ديوان سلامة بن جندل : ص ٢١ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي (١/١٩) ، وشرح العسيلان ١/٥٧ ، وفي شرح العسيلان : اللقيطة بدلا من الشقيقة ، وشنوا بدلا من شكروا ، وحسب بدلا من عدد .

لو كنت من مازنٍ لم تُستبَحْ إبلي		بنو الشقيقة من ذُهل بن شيبانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم		في النائبات على ما قال برهانا
لكنّ قومي وإن كانوا ذوي عدد		ليسوا من الشرّ في شيء وإن هانا
فليت لي بهم قوماً إذا ركبـوا		شدّوا الإغارة فرساناً وركباناَ

وقد تدور رحى الحرب لأسباب أخرى منها :

إجارة المستجير ، أو حماية الجار ، كما حصل في حرب سُمَيْر بين الأوس والخزرج .

وربما نشأت الحرب بسبب الدفاع عن العرض ، أو الأخذ بالثأر أو بسبب المنافسة على رئاسة وزعامة ، وقد تجر المنافسة الطائشة إلى حروب طاحنة ، وقد تكون الأسباب تافهة كما حصل في حرب البسوس الشهيرة بين بكر وتغلب ، ولا ننسى حرب داحس والغبراء ، التي استمرت أربعين سنة ، بسبب سباق بين فرسين .

ويوجز الألوسي أسباب القتال والحروب عامة حيث يقول :

« وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للمُلْك وسعي فى تمهيده ، فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة ، والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر ، كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم .. والثالث وهو المسمى في الشريعة بالجهاد ، والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها ... »[1] .

---

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : السيد محمود شكرى الألوسى ٥٦/٢ .

هذه هي أهم الأسباب التي من أجلها كانت تقوم الحروب بين القبائل ، وسنرى أثر هذه الحروب على موضوعات الشعر المختلفة ، وعلى مظاهر الحياة العربية في العصر الجاهلي .

ب - الحروب الطاحنة وأثرها على موضوعات الشعر :

لعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية ، هي الحروب وسفك الدماء .. حتى لكان إراقة الدم أصبحت سنة متبعة لديهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون لا يفرغون من الدم إلا إلى دم .

وكانت الحرب تبدأ صغيرة ضعيفة ثم تقوى ويصطلي الجميع بنارها حتى أصبحت كأنها أمنيتهم ومبتغاهم . يقول زهير بن أبي سلمى[(١)] :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم ... طوال الرماح لاضعافٌ ولا عُزُلُ
فإنْ يُقتَلوا فيُشتفى بدمائهم ... وكانوا قديماً من مناياهم القتل

فجميعهم يطيرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم ، وتدور رحى الحرب ، فيقتلون من أعدائهم ويشفون حقدهم ، ويقتل منهم أعداؤهم فيشفون غليلهم .. وهذا هو شأنهم وديدنهم .

يقول دريد بن الصمة[(٢)] :

فإنا لَلَحْمُ السيف غيرَ نكيرةٍ ... ونُلحِمُه حيناً وليس بذي نُكر
يُغارُ علينا واترين فيُشتفى ... بنا إنْ أُصبْنا أو نُغير على وتْر
قسمنا بذاك الدهرَ شطرين بيننا ... فما ينقضي إلا ونحن على شطْر

ومثل قبيلة دريد قبائل العرب كلها ، فهم طعام السيوف ، وهم دائماً واترون موتورون .

---

(١) ديوان زهير : ص ١٠٢ ، والأعزل : من لا سلاح له ، فزعوا : أغاثوا .
(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام : شرح وتحقيق العسيلان ٣٩٦/١ .

وما كانوا يرهبون شيئاً مثل الموت حتف الأنف بعيداً عن ميادين القتال، ميادين الشرف والبطولة حيث تتناثر أشلاؤهم وتأكلها السباع . يقول الشنفرى[1] :

ولا تقبْروني إن قبريَ محرَّمٌ عليكمْ ولكن أبشري أمَّ عامر

فهو يتمنى ألا يقبر في التراب ، ويبشر الضبع بجسده حتى يخلد في سجل قتلى الجاهلية .

هكذا كانت طبيعة العربي في باديته ، حب للحرية ، وتعشق للقوة وتفضيل للموت تحت صليل السيوف ، حتى لا يحيا حياة الذل ولا يقبل بالضيم ، مما جعل حياته حرباً ضروساً لا تهدأ ، يقول الأفوه الأودي[2] :

نقود ونأبى أن نُقَادَ ولا نرى لقوم علينا في مكارمهم فضْلًا

فالقبيلة العربية كانت تؤمن إيمانًا كلياً ، بإخضاع القبائل الأخرى لمشيئتها سعياً وراء المجد ، مما يدفع القبائل إلى التناحر والتصادم[3] .

لقد كان أثر الحرب على موضوعات الشعر الجاهلي قوياً متنوعاً يصعب علينا حصره ، ولكنْ سنذكر نماذج من أهم هذه الموضوعات .

الفخر والحماسة :

كان شعر الحماسة من أروع موضوعات الشعر لدى العرب ، ولعله استغرق كثيراً من القصائد الجاهلية ، فهم يتغنون ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت « ويرتفع هذا الغناء بل هذا الصياح في كل مكان بحيث يخيل إلينا أنه لم

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام : شرح وتحقيق العسيلان ٢٦٢/١ .

(٢) الطرائف الأدبية : شعر الأفوه الأودي ص ٢٢ .

(٣) انظر : العصر الجاهلي لشوقي ضيف : ص ٦٢ وما بعدها ، والفروسية في الشعر الجاهلي لنوري القيسي ص ٧٧ ومابعدها .

يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أباتمام إلى أن يسمي مجموعته من أشعارهم وأشعار مَنْ خلفوهم باسم الحماسة فهي ديوانهم الذي يسطر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، ومن قرأ شعر الأصمعيات والمفضليات يجد هذا الفخر وما يطوىٰ فيه من حماسة يدور على كل لسان »[1] .

لقد وصف شعراؤهم الحرب وصفاً مسهباً فيه فخر واعتزاز ، فهذا عنترة بن شداد يصف وطأة الحرب وشدتها إذ يقول[2] :

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى ... إذ تقلُص الشفتان عن وضَح الفم
في حومة الموت التي لا تشتكي ... غمراتها الأبطال غير تغمْغُمِ
لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مُذمّمِ
يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم
مازلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلامَ مكلّمي

نشوة عجيبة يحس بها عنترة ، وهو يخوض غمرات الموت ، فيسطر لنا مشاعر الفخر والحماسة في معلقته هذه .

كان الشعراء يعجبون بالشجاعة والشجعان ، ويفتخرون بالقوة والفروسية . استمع إلى قول طرفة بن العبد في معلقته[3] :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه ... خشاشٌ كرأس الحية المتوقد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني ... منيعاً إذا بلت بقائمه يدي

---

(١) انظر العصر الجاهلي : شوقي ضيف ص ٢٠٢ .

(٢) شرح المعلقات العشر للتبريزي ص ٢٤٥ وما بعدها ، يتذامرون : يحض بعضهم بعضاً ، وأشطان البئر : حباله (ويروى بغرة وجهه) .

(٣) المصدر السابق للتبريزي . (الضرب : الخفيف – خشاش فيه قوة ومضاء ، بلت : ظفرت وتمكنت) .

فالقوة وصليل السيوف ، والغارات المزيعة ، هي قوام حياة العربي في باديته ، ومجال فخره وعزه ، حتى أصبحت حكمتهم المنشودة في الدعوة إلى الظلم حتى لا تُظلم ، فلا يجرؤ العدو على انتقاص حقك يقول زهير بن أبي سلمى[1] :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

أي من لا يدافع عن عشريته يذل ، ويشرح الأصمعي البيت الأول بقوله : من ملأ حوضه ثم لم يمنع منه غُشي وهدم ، ومن لان للناس ظلموه .

واستمع إلى معلقة عمرو بن كلثوم إذ يقول[2] :

نُسمَّى ظالمينَ وما ظَلَمْنا ولكنّا سنبدأ ظالمينا

ثم نراه يصيح مباهياً بانتصارات قومه وأيامهم المشهورة :

متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثِفالُها شرقيّ نجد و لُهْوَتُها قضاعةَ أجمعينا
نطاعن ما تراضى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غُشينا
ورثنا المجد قد علمت مَعَدٌّ نطاعن دونه حتى يبينا
نجذ رؤوسهم في غير وِتر فما يدرون ماذا يتقونا
كأنّ ثيابنا منا ومنهم خُضبْن بأرجوانٍ أو طُلينا

« فالمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذي يرفع فيه قبيلته تغلب فوق قبائل نجد شرقيها وغربيها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها

(١) شرح المعلقات للتبريزي ص ١٥١ .

(٢) شرح المعلقات العشر اللتبريزى : ص ٢٨٨ .

الثيفال: خرقة توضع تحت الرحى لاستقبال ما يطحن – اللهوة : القبضة من الحب – يبين : يظهر – الوتر : الثأر – نجذ : نقطع – الأرجوان : صباغ أحمر .

كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول : إن حياتهم سلسلة من الحروب ... ويعترف لأعدائه بشجاعتهم، فهم يُقتلون ويُقتل من قومه، فثيابهم جميعا ملطخة بالدماء .. »[1] .

وهناك كثير من الشعراء وصفوا خصومهم بالشجاعة ، وأنصفوهم في قصائد عرفت بالمنصفات في الشعر الجاهلي .

وإليك نبذة عن المنصفات عند العرب .

إنصاف الخصوم في الحرب :

قتال ورجولة وإنصاف ، هكذا كان يفهم العربي الحروب ومن ذلك قول المفضل النكري يصف موقعة بين عشيرته من بني نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف إذ يقول[2] :

وكم من سيد منا ومنهم ... بذي الطرفاء منطِقُه شهيقُ
فأشبْعنا السباع وأشبعوها ... فراحت كلها تَئِقٌ يفوقُ
فأبكينا نساءهم وأبكوْا ... نساءً ما يسوغُ لهنّ رِيقُ

وصف مثير للمعركة ، فيه إنصاف للخصوم ، ورجولة تبتعد عن الادعاء الفارغ ، مما تعجز عنه جعجعة الجاهلية الحديثة وطنينها الكاذب في بيانات الحروب الصورية ، وفي كل جاهلية شر .

ومن المنصفات أيضاً قصيدة للعباس بن مرداس يصف فيها حرباً شديدة وقعت بين قومه بني سليم ، وكان الشاعر رئيسهم وبين قبيلة مراد

---

(١) العصر الجاهلي : شوقي ضيف .
(٢) الأصمعيات : ص ١٩٩ . والطرفاء : موضع المعركة — التئق : الممتلىء ، يفوق : أي أخذه البهر .

عندما غزوْا مراداً بقيادة عمرو بن معد يكرب ... وفيها إنصاف للخصوم وشجاعتهم منها[1] :

فلم أرَ مثل الحيّ حياً مصبَّحاً | ولا مِثْلَنا لما التقينا فوارسا
فإنْ يقتلوا منا كريمًا فإننا | أبَأْنا به قتلى تُذِل المعاطسا

ونختم حديثنا عن المنصفات بقول الحصين بن الحمام المري عندما يندد بخصمه حيناً ويصفه بالجبن ، ثم يحاول أن ينصفه فيصف المودة التي كانت بينهم ، وأنهم أعِزَّة عليهم ، وما عاد الود بنافع إياهم الآن ، ويصور المعركة وشدة البأس فيها ، لقد كان الخصوم أعزاء بالأمس واليوم تنقطع حبال الود ، في لهيب المعارك[2] :

ولما رأيت الود ليس بنافعي | وإن كان يوماً ذا كواكبَ مظلما
يفلقن هاماً من رجال أعزةٍ | علينا وهمُ كانوا أعقّ وأظلما
وجوه عدوٍ والصدور حديثة | بود فأودى كل ود فأنعما
نطاردهم نستنقذ الجرد كالقنا | ويستنقذون السهريَّ المقوّما

لقد كان هذا الشعر من فخر وحماسة ، يصور الذكريات الدامية والانتصارات الغاضبة للعرب في جاهليتهم ، وكانت لذة النصر تحرك المشاعر ، وشدة الغيظ والحقد تلهب النفوس .

الهجـاء : يشارك في المعارك .

لقد حاول الشعراء أن يهاجموا خصومهم ، وأن يتهموهم بالجبن والفرار والهزيمة ، ولم يسلم الأشراف ولا السادة من اتهامهم بالعار

(١) الأصمعيات ص ٢٠٤ – أباءه به : قتله به والبواء : الكف ، والمعاطس : الأنوف .
(٢) المفضل الضبي فى المفضليات : ص ٦٤ رقم القصيدة (١٢) .

والخزي ، وكان تأثير الهجاء عنيفاً على النفوس قوياً على المهجوّين ، حتى أن بعض السادة ربما بكى من وهج الهجاء ، فقد بكى منه علقمة بن علاثة وعبد الله بن جدعان ، ومخارق بن شهاب وهم من أشراف قومهم وسادة قبائلهم[1] .

وكان اللسان ينكأ بهجائه في الأعداء نكأ السيوف والرماح وكان المتحاربون وكذلك الشعراء يتبارون في أيهم يكون أنفذ سهماً ، حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة .

ومن هنا اقترن الهجاء عند عبد قيس بن خفاف البرجمي بالسيف والرمح إذ يقول[2] :

فأصبحت أعددت للنائبات عِرضًا بريئاً وعضباً صقيلًا
ووقع لسان كحد السنان ورمحًا طويلَ القناة عسولا[3]

وكأنما أصبح هم الهاجي أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، بل لكأن مناقبه كانت تؤذيهم فكانوا يلطخونه بالعار ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا شاعراً يهجو النعمان بن المنذر ويتهمه أنه لم يولد لرشده وأنه ليس سليل المناذرة ، إنما هو سليل صائغ بالحيرة .

يقول عبد قيس بن خفاف البرجمي أيضاً[4] :

لعن الله ثم ثنى بلعن ابن الصائغ الظلوم الجهولا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو فتيلًا

(١) انظر الحيوان للجاحظ .
(٢) المفضليات رقم القطعة (١١٧) .
(٣) العضب : السيف القاطع – الصقيل : المصقول الحاد ، العسول : اللين المضطرب للينه .
(٤) كتاب الحيوان : ٣٧٩/٤ ، وانظر العصر الجاهلي لشوقي ضيف .

الرثـاء :

ولقد بكى الشعراء صرعى المعارك بكاءً مراً ، وندبت النساء الثكلى ، وكن ما زلن ينحن على القتيل حتى يُثأر له ، وكانت الخنساء تخرج إلى سوق عكاظ تندب أخويها، وكانت هند بنت عتبة تبكي أهلها قتلى بدر ، وتنوح على أبيها من بينهم .

وكانت النسوة يشققن جيوبهن ، ويلطمن الوجوه ، ويقرعن الصدور ، ومن أكثر النساء بكاء الخنساء ، حيث تبكي أخاها صخراً ومن رائع ما ندبته به وقد قتل في إحدى المعارك(1) :

قذىً بعينك أم بالعين عُوّارُ	أم ذرَّفَتْ إذْ خلت من أهلها الدارُ
كأنّ عيني لذكراه إذا خطرتْ	فيضٌ يسيل على الخدين مِدْرارُ
تبكي خناسُ وما تنفك ماعَمَرت	لها عليه رنينٌ وهي مِقْتـار
وإن صخرًا لتأتم الهداةُ بـه	كأنه علم في رأسه نارُ(2)

ويرثي أبو دؤاد الإيادي من أودى من شباب قبيلته وكهولهم فيقول في قصيدته(3) :

لا أعد الإقتار عدماً ولكـن	فَقْدُ من قد رُزئتهُ الإعدامُ

ويستمر يبكي فيهم العظماء ذوي الصفات الفريدة ويقول : إنهم أصبحوا هامًا وصدًى ..

---

(1) ديوان الخنساء : ص ٤٩ ، طبعة دار الأندلس للطباعة والنشر ١٩٨١ م العوار : الرمد – مدرار : كثير .

(2) خناس : الخنساء – مقتار : ضعيف – العلم : الجبل .

(3) الأصمعيات رقم (٦٥) ص ١٨٥ – الإقتار : قلة المال وضيق العيش ، العدم والإعدام : الفقر – الهام : ج هامة وكانوا يزعمون أن عظام الميت أو روحه تعيد هامة فتطير ، وحرم ذلك الإسلام ونفاه .

سلط الدهرُ والمنونُ عليهـمْ   فلهم في صدى المقابر هـامُ
فعلى إثْرهم تساقط نفسـي   حسرات وذكرهم لي سـقامُ

وأروع الرثاء ما ندب به الأبطال فى حرمات القتال لأن الشعراء فى بكائهم وفي تعداد مناقب الموتى يثيرون الأحقاد ويشحذون العزائم ، ويهيجون القبيلة للحرب ويدعون إلى الأخذ بالثأر[1] .

وهذه أم ندبة ترثي ابنها رثاء مريراً ، وتلوم زوجها حذيفة على قبول الدية ، وترسل هذه الآهات شعراً إذ تقول[2] :

حذيفة لاسلمتَ من الأعـادي   ولا وقيت شـر النائبـات
أتقْتُلُ ندبـةَ قيسٌ وترضـى   بأنعامٍ ونـوقٍ سارحـاتِ
أما تخشى إذا قال الأعـادي   حذيفـةَ قلبه قلب البنـات
فخذ ثأراً بأطراف العـوالي   وبالبِيض الحـداد المرهفـاتِ
وإلا خلّني أبكـي نهـاري   وليلي بالدمـوع الجاريـات
لعلّ منيتي تأتي سريعـًا   وترقيني سهام الحادثـات
أحـبّ إليّ من بعلٍ جبـان   تكون حياته أردا الحيـاة

والمهلهل بن ربيعة الذي عرف بمراثيه لكليب يعدد مناقب أخيه ، ويذكر عزته وعزمه ... يندبه قائداً للخيل يوم الوغي[3] :

أضحت منازل بالسلان قد درست   تبكي كليباً ولم تفزع أقاصيها
الحـزم والعزم كانا من ضيعتـه   ما كل آلائه يا قوم أحصيها
القائد الخيل تردي في أعنتها   زهواً إذا الخيل بُحّتْ في تعاديها

(١) انظر الفروسية في الشعر الجاهلي ص ٢٦٥ وما بعدها .
(٢) رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب : لويس شيخو .
(٣) شعراء النصرانية : لويس شيخو ١/١٦٦ .

وشعر الرثاء الباكي كثير ، كثرة القتلى والمعارك الدامية ، وقد ساهم في إثارة الأشجان ، والمطالبة بالثأر ، وبإشعال نيران الحروب ، وهذه هي الجاهلية ، قتال ، وثأر ، وغزو وحخرب ، فبكاء القتلى ، حماس فى مفاخرة أو منافرة .

ولقد اهتم العرب بالحروب ، وأعدوا لها العُدَد المتاحة وأدوات القتال المعروفة لديهم .

جـ - طريقة المقاتلة وأدوات القتال :

لقد أسهب الشعر الجاهلي في وصف كل ما يتعلق بالحرب ، طرقه وأدواتها وأوقاتها[١] .

كان قتالهم على طريقة الكر والفر أحياناً ، وقد يتخذون وراءهم حواجز من الظعائن أو الإبل يرجعون إليها ، كما أنهم عرفوا الحروب المنظمة أحياناً أخرى .

وكانت المبارزة تسبق الحرب في بعض الحالات . قال عنترة[٢] :

سأخرج للبرازِ خَلِيَّ بـالٍ   بقلب قُدَّ من زبَر الحديـد

وفي غزوة أُحُد تقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه متحدياً المشركين وخرج إليه أبو سعد بن أبي طلحة ليبارزه فضربه عليّ وصرعه وبدأت غزوة بدر بالمبارزة أيضاً بين الحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث من بني هاشم من جهة ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة من المشركين من جهة ثانية[٣] .

(١) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ص ٢٣٢ حتى ص ٢٦٤ .

(٢) الديوان : ص ٥٤، تحقيق عبد المنعم شلبي - قد : قطع - زبر الحديـد : قطع الحديد .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : غزوة بدر : ٦٢٥/١ .

وقد تكون الغارة على العدو عند العرب في الليل أو النهار ، وربما كان أكثر الغارات ليلًا والقوم رقود ، وكانوا يمتنعون عن القتال في الأشهر الحرم ، وفي ذلك حكمة بالغة في أمة اعتادت شَن الغارات وتعودت على السطو والسلب ، حيث يتمكن العقلاء من محاولات الصلح ، وليتمكن الإنسان من قضاء حاجاته وأمور معاشه .

وكانوا يحرصون على أدوات القتال ، يحملونها معهم فلا تفارقه وافتخروا بها وبجودتها ، فيها يغيرون أو يثأرون ويغنمون ذكروا في شعرهم السيوف والرماح والدروع بأنواعها ، وتحدثوا عن السهام والقسي بأشكالها ، وفاخروا بالخيول الأصيلة ، لأنها من أهم وسائل القتال عندهم . فهذا عنترة يفتخر بأن وسادة درعه ورمحه ، وأن مقيله ظهر حصانه[1] :

أيا عبلَ ما كنت لـولا هـواك	قليلَ الصديق كثير الأعـادي
وحقك لا زال ظهر الجـواد	مقيلي،وسيفي ودرعي وسادي

ومن أهم هذه الوسائل الخيول ، فقد أعزوها إعزازاً عجيباً وافتخروا بها لأنها وسيلة الكر والفر ، وعرف العرب بالمحافظة على أنسابها وعدم الخلط بين سلالاتها . وكان إطلاق الأسماء على الخيل عادة معروفة ليميزوا بين الأصيل والهجين ، وقد ذكر صاحب أنساب الخيل (ابن الكلبي) أكثر من مائة فرس ، من أفراس الجاهلية والإسلام مع نسبتها إلى أصحابها ، من ذلك أعوج سيد الخيل المشهورة كان لملك من ملوك كندة ، والغراب والوجيع وَلَا حِق والمذهّب ومكتوم .

قال طفيل الغنوي :

بنات الغراب والوجيه ولاحـق	وأعوج تنمي نسبة المتنسـب

---

(١) ديوان عنترة : ص ٥٣ .

ومنها داحس والغبراء ، والسلس فرس المهلهل بن ربيعة التغلبي[1] وقد أورد صاحب المفضليات عدداً من الخيول الأصيلة الشهيرة مثل العرادة والرحالة ، وقد يطول الكلام في إعزاز العرب للخيول ويكثر الشعر ، وكان أشراف العرب يخدمونها بأنفسهم ، ويفتخرون بكثرة العناية بها ، فالأعرج المعنى يَعْجب أن زوجته تعيب عليه إيثار فرسه الوَرْد عليها ، باللبن والطعام ، ويقول : إن فرسه أفضل من زوجته ساعة الفزع ووقت الغارة[2] :

أرى أم سهل ما تزال تفجّعُ ... تلوم ولا أدري عَلامَ توجّعُ
تلوم على أن أعطيَ الوَرْدَ لِقْحةً ... وما تستوي والوَرْدَ ساعةَ تُفزع

وكذلك عنترة بن شداد كان يلوم امرأته لاعتراضها على سقائه اللبن وإطعامه الطعام[3] :

لا تذكري مهري وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب
إن الغبوق له وأنت مسوءةٌ ... فتأوهي ما شئتِ ثم تحوبي

نرى هنا أن عنترة أنذر زوجته بالهجر فكأنها الجرباء ، إن اعترضته وأصر أن اللبن سيبقى شراب فرسه في كل مساء وإن حزنت وتألمت .

وقد أكثر الشعراء من وصف الخيل ، وما ذلك إلا لأنهم أمة جلاد وكفاح فهي أول عدتهم وهي حصونهم المنيعة[4] .

---

(١) انظر : أنساب الخيل لابن الكلبى ص ١٢٩ ، والفروسية فى الشعر الجاهلى ص ١٣٩ ، وبلوغ الأرب : خيل العرب المشهورة ص ١٠٤ وما بعدها .
(٢) شرح الحماسة : ت العسيلان ٢٠٤/١ ولِقْحة : لبن الناقة .
(٣) ديوان عنترة : ص ١٩ . والتحوب : التوجع .
(٤) انظر معلقة امرىء القيس فى وصف الحصان ، والأصمعيات رقم القطعة (٣٩) .

وقد ورد الثناء عليها في القرآن الكريم والحديث الشريف .. لأنها وسيلة الجهاد في سبيل الله .. قال تعالى : ﴿ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ .

وفى الحديث الشريف : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة » فالحياة الحربية جعلت العرب يمجدون الشجعان والفرسان الكماة حتى كثر هؤلاء وضربت بهم الأمثال ، وقد ترجم صاحب بلوغ الأرب[1] لعدد كبير منهم كربيعة بن مكرم فارس بني كنانة ، وعنترة بن شداد العبسي ، وأخباره في حرب داحس والغبراء مشهورة ، وزيد الخيل ، وهوزيد بن مهلهل الطائي الذي أسلم وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : زيد الخير ، وعامر بن الطفيل فارس بني عامر ، وكان من أشهر فرسان العرب بأساً ونجدة .

ومنهم عمرو بن معد يكرب وينتهي نسبه إلى كهلان بن سبأ ، دريد بن الصمة من بني جشم ، وعمرو بن كلثوم التغلبي ، أحد فتاك العرب المشهورين وهو الذي قتل عمرو بن هند في مقر ملكه وبسيفه والحارث بن عباد كان من فرسان ربيعة المعدودين ، ومثله مهلهل بن ربيعة التغلبي وهو عدي بن ربيعة صاحب حرب البسوس .

ومن طرائف أخبار هذين الفارسين : أن الحارث كان قد اعتزل حرب البسوس ، ثم حاول أن يسعى بالصلح بين القبيلتين فأرسل ولده (وقيل ابن أخيه بجيراً ، من أجل ذلك ولكن المهلهل قتله وقال له : « بؤبشسع نعل كليب » . ولما علم الحارث بذلك غضب ودعا بفرسه النعامة فجزّ ناصيتها وقال قصيدة ضويلة منها[2] :

---

(١) انظر بلوغ الأرب : الألوسي ٢/١٢٤-١٦٠ .

(٢) الأصمعيات : رقم القطعة (١٧) .

(*) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/١٣ .

قَرِّبَا مربط النعامة منّي لقحت حربُ وائل عن حِيال[1]
لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليومَ صالِ

ثم قاد الحارث قبائل بكر وقاتل قبيلة تغلب،، حتى هرب المهلهل وتفرقت قبيلته ، وكان أول يوم شهده الحارث بن عباد هو يوم : تحلاق اللمم ، وفيه أَسَرَ الحارث مهلهلًا وهو لا يعرفه فقال له دلني على عدي بن ربيعة أخل عنك ، فقال له : عليك العهد بذلك إن دللتك عليه ؟ قال : نعم . قال عدي : فأنا عدي عندها جزّ ناصيته وتركه وقال :

لهفَ نفسي على عدي ولم أعـ ـرف عدياً إذأمكنتني اليدانِ[2]

وهذا وفاء نادر ، ورجولة تستحق الإكبار ، تتضاءل أمامها مواقف الرجال من أتباع الجاهلية الحديثة ، حيث لا رجولة ولا وفاء ، بل غدر وإسفاف .

والعرب لم يتركوا وسيلة إلا وقد حاربوا بها ، حتى الحجارة استخدمت في قتالهم وكثيراً ما ساعدتهم نساؤهم في نقلها إليهم .

قال بعض الشعراء[3] :

فإن تمنعوا منا السلاح فعندنا سلاح لنا لا يشترى بالدراهم
جلاميد أملاء الأُكف كأنها رؤوس رجال حُلقت بالمواسم

قتال بالحجارة ، إذا لم يوجد السلاح ، كذلك يَفعل شباب الانتفاضة من أبناء فلسطين ، يمنع عنهم السلاح ، فيلجأون إلى الحجارة يجهزون بها على عدو الله وعدوهم من أبناء يهود ، سلاح كان معطلًا طوال

(١) ولقحت الحرب : أى هاجت بعد سكون.
(٢) انظر القصة مفصلة في بلوغ الأرب : ٢/١٧٤ ، ١٥٦ / والبيت فى الشعر والشعراء ١/٣٠٤ .
(٣) انظر : شرح الحماسة للمرزوقي : ١/١١٨ ، والمواسم : مواسم الحج .

قرون خلت ، يحيا من جديد على أيدي هؤء الفتيان حتى الأطفال والنساء . نرجو من الله أن يكون ذلك على هدي من كتاب الله وسنة رسوله لاستخلاص المقدسات وإعلاء كلمة الله فيها .

د - الأسرى والسبايا[1] :

للحروب نتائجها المريرة ، قديماً وحديثاً ، وطالما فخر الشعراء بأخذ الأسرى لأنه برهان على النصر ، وإذا أخذت النساء والأطفال سبايا حرب ، فذلك برهان صادق لديهم على القوة والعزة وتحقق النصر .

وقال المهلهل يفتخر بأنهم أسروا من أعدائهم وشفوا بسبب ذلك الصدور[2] :

فجاءوا يهرعون وهم أسارى نقودهم على رغم الأنوف

وافتخر عمرو بن كلثوم بعودته وقومه ظافرين معهم الأسلاب والسبايا والأسارى[3] :

فآبوا بالنّهاب وبالسبايا وأبْنا بالملوك مصفّدينا

وقد يسخّرون الأسرى عبيداً ، أو يُودونهم حتفهم ، وفي يوم أوارة الأول عندما أسر المنذر بن ماء السماء من بني بكر أسرى كثيرة ، أمر بهم فذبحوا على جبل أوارة ، وأمر بالنساء أن يحرقن[4] .

وقد يطلقون الأسير ويمنون عليه ، بعد أن يجزوا ناصيته ، وكان حرصهم على جز ناصية الشريف شديداً ، إذلالًا له ، واعتزازاً بالعفو عنه

---

(١) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي للحوفي (٢٦٤-٢٧٢) .
(٢) شعراء النصرانية : ١٨٠/٢ .
(٣) المعلقة : التبريزي ص ٢٨٠ .
(٤) الكامل لابن الأثير ٣٣٤/١ .

بعد المقدرة ، ومن أخبار العرب أن زيد الخيل أسر عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته ثم خلى سبيله[1] .

كان شعراء العرب في الجاهلية يفتخرون بجز الناصية بعد الاحتفاظ بها لإظهارها عند اللزوم مباهاةً وفخراً تقول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانها وكانوا يظنون أن لا تُجزّا[2]

وقالت في أخيها صخر :

رداد عادية فكاك عانية كضيغم باسل للقِرن هصار

وقد يطلق الآسر أسيره جزاء مدحة يسمعها ، ويؤثرها على الفداء . فقد أسر صعصعة بن محمود ، أحمدَ بنَ جندل ، فبعث إليه سلامة بن جندل أبياتاً منها :

فإنْ شئتَ أهدينا ثناءً ومِدْحةً وإن شئت عدّينا لكم مائة معاً

فأطلقه آسره وقال : المدحة والثناء أحبّ إلينا[3] .

وكان العرب يفدون الأسرى أحياناً ، وأكبر قيمة دفعت في الفداء ثلاثمائة بعير دفعتها أم بسطام بن عبد الله فداء لابنها[4] .

وقيل : إن الأشعث بن قيس الكندي غزا مذجحاً ، فأسر وفدى نفسه بألفي بعير[5] .

وقد يستولدون السبايا، ولكنّ العربية السبية ما كانت لتنسى قومها وإنْ طال العهد ، ويروى أن عروة بن الورد كان قد أصاب امرأة في بعض

(١) الأغاني : ١٦/٥١ .
(٢) الديوان : ص٨٧ ، ٨٢ ، ط . دار الأندلس .
(٣) ديوان سلامة بن جندل : ص ٢٢ .
(٤) أيام العرب : جاد المولى ص ٢٠٠ .
(٥) الميداني في مجمع الأمثال : ٢/١١ .

غاراته – من كنانة ، واتخذها لنفسه وأولدها وحج بها ، ولقيه قومها ، وقالوا : فادِنا بصاحبتنا فإنا نكره أن تكون سبية عندك ، قال على شريطة أن نخيرها بعد الفداء .. وكان يرى أنها لا تختار عليه ، فرضوا بذلك ، وفادوا بها ، فلما خيروها أختارت قومها ثم قالت : أما إني لا أعلم امرأة ألقت ستراً على خير منك ... ولقد أقمتُ معك ، وما يمضي يوم إلا والموت أحب إليّ من الحياة فيه وذلك أني كنت أسمع المرأة من قومك تقول : قالت أمةُ عروة كذا ، وقالت أمته كذا ، والله لانظرت في وجه غطفانية ، فارجع راشدًا وأحسن إلى ولدك[1] .

وقال فيها قصيدة طويلة يتحسر على زوجته منها .

ولَوْ كاليوم عليَّ أمـري	ومَنْ لـك بالتدبر في الأمـور
إذنْ لملكتُ عصمـة أم عمرٍو	على ما كان من حسك الصدور[2]
فيا للناس كيف أطعتُ نفسي	على شيء ويكرهه ضميري

وكثير من سادات العرب في الجاهلية ، كانوا أبناء سبايا مثل : دريد ابن الصمـة ، أمه ريحانة بنت معد يكرب أسرها الصمة ثم تزوجها ، فأنجبت دريداً وإخوتـه ، وفي إسارها يقول أخوها عمرو[3] :

أمِنْ ريحانة الداعـي السميـع	يؤرقني وأصحابـي هجـوع
سباهـا الصمـة الجشمي غصباً	كأن بياضَ غرتها صديـع
وحـالت دونها فرسانُ قيـسٍ	تكشّفُ عن سواعدها الدروع

وقد تلقي المرأة السبية بنفسها ، من على ظهر هودجها ، كما فعلت فاطمة بنت الخرشب ، أم الربيع بن زياد العبسي ... عندما أُسرت رمَت بنفسها على رأسها من البعير فماتت ، خوفاً من أن يلحق بنيها العار .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٦٧٧/٢ ت أحمد محمد شاكر .
(٢) المراد بحسك الصدور : الغل والعداوة .
(٣) الأغاني : ٢/٩ ساسي .

هـ - الدعوة إلى نبذ الحرب[1] :

لا يكاد القتال في الجاهلية يهدأ ، فالأرواح تُزهق والنساء ترمل ، والبيوت تدمر ، والثأر يزيد الأحقاد اشتعالًا ، في أرض لا تعرف الهدوء وسط صحراء لا ترحم .

والشعر الجاهلي صوّر لنا هذه الحروب - فيما مر - وتلك المخاوف والويلات .

وها هو عامر بن الطفيل يفتخر ببطولته وبطولة قومه ، ثم يعدد لنا انتصاراتهم بقوله[2] :

ونحن صبّحنا حي أسماء بالقنا ... ونحن تركنا حيّي مرة مَأْتَما
بقرنا الحبالي من شنوءة بعدما ... خبَطْنَ بفيف الريح نهداً وخثعما
ونحن صبّحنا حي نجرانَ غارةً ... تُبيل حُبالاها مخافتنا دما

نصر وقتل ، وبقرٌ لبطون الحوامل ، ثم ترك المآتم تُقام في عدد من أحياء العرب . هكذا كانت الجاهلية في منطقها وهو منطق كل جاهلية في التاريخ ، فلا تسير على هدى ولا كتاب مستنير ، بل إن الدمار والخراب في الحروب الحديثة فاق كل وصف ، وتجاوز كل حد .

على أن هذا الصخب وذلك الضجيج ، الذي شمل مظاهر الحياة كلها ، لم يمنع الأصوات القليلة من المناداة بالرجوع إلى حياة الأمن والاستقرار ، على أن العرب ما كانوا يقبلون الصلح ويرضون بالديات ، إلا

---

(١) انظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٢٧٢ وما بعدها ، والفروسية للقيسي ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل : ط دار صادر بيروت ١٩٥٩ م ص١١٧ « وحي أسماء : يعني فزارة - وشنوءة ونهد وخثعم : من القبائل اليمنية - تبيل : أي ترمي أولادها من مخافتنا » .

بعد تفاقم الأمر ، وبعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل ، أما قبل ذلك ، فقد كانت سُبَّةً وعاراً عندهم .

ومن المواقف النادرة في مساعي الصلح ، ما قام به هرم بن سنان ، والحارث بن عوف من بني مرة ، فقد تحملا ديات لقتلى من عبسي وذبيان ، في حرب داحس والغبراء ، التي استمرت أربعين سنة ، وكانت ثلاثة آلاف بعير أدياها في ثلاثة أعوام ... فمدحهما زهير بن أبي سلمى وخلد ذكرهما في معلقته[1] :

١ – سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما	تبزّل ما بين العشيرة بالدم
٢ – يمينا لنعم السيدان وجدتما	على كل حال من سحيل ومُبْرَمِ
٣ – تداركتما عبساً وذبيان بعدما	تفانَوْا ودقوا بينهم عطر منشِمِ
٤ – وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً	بمال ومعروف من القول نسلم

لقد أتاحت هذه الحرب لزهير أن يتأمل ويلاتها ، وأن يعظ وينصح بقوله :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم	وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً	وتضَر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثِفَالها	وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم
فتنتج لكن غلمانَ أشأمَ كلّهم	كأحمر عادٍ ثم ترضع فيفطم
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها	قرى بالعراق من قفيز ودرهم

(١) انظر معلقة زهير : القصائد العشر بشرح التبريزي ص ١٣٥ وما بعدها .
المفردات : ١ – تبزل : تشقق ، ٢ – أي نعم السيدان وجدتما لأمر أبرمتماه أو لم تبرماه ولم تحكماه : أي على كل حال من شدة الأمر وسهولته .
٣ – منشم : امرأة عطارة ، تحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها ليتحرموا به ثم خرجوا إلى طرب فقتلوا جميعاً فتشاءمت العرب بها .

أجاد زهير في أبياته هذه للتنفير من الحرب ، فيقول : لقد جربتم الحرب وذقتم ويلاتها ، والحرب لا تلد إلا الحرب لأن العداء تتوارثه الأجيال بعد الأجيال ، والحرب تلد توأمين ، أى أن شرها يتضاعف ، ولن يكون المولود إلا موتوراً ناقما ، ولـن تكون الأجيال المولودة إلا مشائيم ، كأن كلًا منهم أحمر عاد الذى عقر الناقة فأهلك القوم ... فالإنتاج لن يكون إلا ما تكرهون لا كإنتاج وغَلة قرى العراق من الحبوب والدراهم .

ولقد أنصف عنترة العبسي عندما قيل له صف لنا الحرب فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى .

كان الأشراف يتوسطون في الصلح ، والقتلى يُحسبون من الطرفين ، وتدفع ديات من زادت قتلاهم ، وللصريح ديته وللحليف ديته ، وهي نصف دية الصريح ، كما حدث عندما حكمت الأوس والخزرج (في حرب سُمير) ثابت بن المنذر بن حرام والد حسان بن ثابت رضي الله عنه[1] . وكان تقسيمها ألفاً للملوك ومائة للصريح وخمسين للحليف ، وكانت الديات تقدر بالإبل .

وكان العرف في الديات والقتلى قائماً على التكافؤ بين الطبقات حيث أن دم القتيل الشريف لا يغسل إلا بدم شريف مثله ومن أهل مكانته.. فالدم لا يغسل إلا بدم مواز له ، فلابد من قتل شريف بشريف حتى ينام أهل القتيل ، وعلى هذا بنوا تقييـم أثمان الديات ، أي ثمن الدم ، فدية الملوك في الجاهلية أغلى ما دفع ثمناً عن دم إذ جعلت للملك ألفاً من الإبل ، تليها ديات الأشراف وسادات القوم حسب الشرف والمنزلة حتى تصل إلى ديات المغمورين فتكون أقلها إذ تبلغ خمساً من الإبل[2] .

(١) انظر حرب سمير : ابن الأثير ٤٠٢/١ .

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٤٢/٤ .

المبحث الثالث : الثأر[1]

كان الأخذ بالثأر من العادات المستحكمة في نفوس العرب ، وكثيراً ما سبب الثأر حروباً لا تنطفى ، وحوادث وأياماً ، كانت شغلهم الشاغل في العصر الجاهلي ، وظلوا يتذاكرونها في ليالي سمرهم ، وأماكن تجمعهم ، مما يسبب اشتعال الحروب من جديد ... وإثارة الأحقاد والفتن .

ونظرة إلى ايام العرب ، التى استمر بعضها سنوات طويلة ، ترينا أن الثأر كان من أقوى أسباب استمرارها ، فانهزام البدوي في المعركة ، أو قتل أحد أفراد قبيلته ، كان يثير في نفسه عوامل الحقد والكراهية ولا يشفي غليله إلا الثأر والانتقام ، ولقد تأصلت هذه العادة في نفس العربي ، حتى أصبحت جزءاً من كيانه ، إذا أراد العيش محترماً في مجتمعه ، لأن الأخذ بالثأر دليل القوة والشجاعة ، والسكوت عنه دليل الخضوع والمذلة ، تمشياً مع الأعراف السائدة آنذاك .

« وقد قيل لأعرابي : أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسيء إلى مَنْ أساء إليك ؟ فقال : بل يسرني أن أدرك الثأر وأدخل النار »[2] .

وبلغ من كلفهم بالثأر أنهم كانوا يتجافون عن النساء ويبتعدون عن الخمر والطيب لأنها ضرب من التنعم والبهجة ولا يليق ذلك بحزين موتور .

قال المهلهل في مناجاة أخيه كليب ، وقد أخذ العهد على نفسه بأنه سيهجر الغوانى ، ويمتنع عن الشراب ، ولن ينزع سلاحه حتى يأخذ بثأره[3] :

---

(١) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٢٧٦ وما بعدها .

(٢) نهاية الأرب : للنويري ٦/٦٧ .

(٣) شعراء النصرانية : ص ١٦٤ .

كأني إذا نعى الناعي كليباً ... تطايرَ بين جنبيّ الشّرار
خذ العهد الأكيد عليٌّ عمري ... بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس ... ولبُس جبةً لا تُستعار
ولست بخالع درعي وسيفي ... إلى أن يخلعَ الليلَ النهارُ
وإلا أن تبيد سراة بكر ... فلا يبقى لها أبداً آثارُ

لابد أن يبيد سادة بكر ، حتى لا يبقى لهم آثار تذكر ، ثأراً لمقتل أخيه كليب ، وتستمر الحرب أربعين عاماً ، حرب البسوس الشهيرة .

أما امرؤ القيس فقد أمضى بقية عمره يجمع القبائل ، يستعين بها على استرداد ملك أبيه ، مطالباً بالثأر لمقتله من بني أسد حتى هلك دون ذلك .

وعندما وصله خبر مقتل والده حُجر وهو بدمّون ، أقسم ألا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره من بني أسد ، ثم جمع القبائل ولحق أعداءه وقتل منهم خلقاً كثيراً ومما قاله في هذا الشأن[1] :

قولا لدودان : عبيدَ العصا ... ما غركم بالأسد الباسل
حلت لي الخمر وكنت امرءا ... عن شربها في شُغُل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقبٍ ... إثمًا من الله ولا واغلِ

وإذا ثأرت القبيلة لنفسها ، وشفت نار حقدها ، أخذ شعراؤها ينشدون الأناشيد ، ويحللون على أنفسهم ما حرموه .

وقد لا يرضي حقدهم قتل القاتل أو قتل أحد أقاربه ، فالشاعر عصمة بن حدرة اليربوعي مثلًا كان قد نذر ألا يطعم لحماً ولا يشرب خمراً

---

(١) الشعراء الستة الجاهليين : اختيارات الأعلم ص ٩٧-٩٩
دودان : قبيلة من بني أسد ، غير مستحقب إثماً من الله : أي غير مكتسبه ولا محتمله ، الواغل : الداخل على قوم يشربون ولم يُدع وكان والد امرىء القيس إذا غضب على أحد من بني أسد أمر بضربه بالعصا فسموا عبيد العصا .

ولا يقرب امرأة ، حتى يقتل من بني عبس سبعين رجلًا بابن عم له ، فلما قتلهم قال[1] :

الله قد أمكنني من عبـس ساغ شرابي وشـفيت نفسـي
وكنت لا أقرب طهر عرس وكنت لا أشرب فضل الكأس
ولا أشد بالوخاف رأسي

ولم تقف صلة القرابة حائلًا ، دون الأخذ بالثأر ، ويصور لنا بعض شعراء الجاهلية هذا الصراع في نفوس أصحابه ، بين عصبية القرابة ، ودوافع الثأر للأقرب .

يقول قيس بن زهير وهو سيد بني عبس ، لما وقف على جثة حذيفة ابن بدر، وقد قتل ثأراً لمالك أخي قيس ، وذلك يوم الهباءة وهو من أيام داحس والغبراء ، قال يرثيه ويرثي أخاه حملًا[2] :

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
شفيت بقتلهم لغليل صدري ولكني قطعت بهم بنانـي
فلا كانت الغبراء ولا كان داحس ولا كان ذاك اليوم يوم رهاني

فثأره من قريبه كان موجعاً له كبتر أصابع يده ، ولكن ذلك يريحه أيضاً لأنه شفى غليله بسبب مقتل أخيه من قبل حذيفة .

وخير ما يصور هذا الصراع النفسي ، بين عاطفة الثأر للعزيز القتيل ، وعاطفة الحب للقريب القاتل ، قول أعرابي ، قتل أخوه ابناً له ، ثم

---

(١) معجم الشعراء ص ٢٧٤ ، والوخاف : الخطمي يغسل به الرأس .

(٢) أيام العرب فى الجاهلية ، جاد المولى وأصحابه (٢٦٤-٢٦٥) ، والحماسة تحقيق العسيلان ١١٧/١ وفيه رواية أخرى للبيت الثاني :

فإنْ أكُ قد بردتُ بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بنانـي

تتغلب عاطفة الحب للأخ ويقنع بالأسى والحسرة ويُبقي على واتره عندما قدُم له ليقتاد منه وأنشأ يقول[1] :

أقول للنفس تأساءً وتعزيةً ... إحدى يديّ أصابتني ولم تُردِ
كلاهما خَلَفٌ من فقد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وكانت النساء تؤجج الصدور حفيظةً ، ويلهبن النفوس حمية ، للأخذ بثأر القتيل . قالت أم عمرو بنت وَقْدان تحرض قومها على الثأر لأخيها وإلا فهم أولى بلبس نُقب النساء وحليهن[2] :

إنْ أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ ... فذروا السلاح ووحّشوا بالأبْرَقِ
وخذوا المكاحل والمجاسدَ والبسوا ... نُقبَ النساءِ فبئس رهطُ المُرهَقِ

وقد مر معنا كيف أن ندبة كانت تُعَيِّر زوجها بالجبن ، وكيف قبل بالدية من الأنعام والنوق السارحة ؟

وهكذا كان الثأر نظاماً متبعاً حيث لا حكومة ولا سلطة تحول بين الواتر والموتور ، وكأن له بعض النفع حيث يكبح جماح الحمقى الذين تسيرهم شهوة القتل وإراقة الدماء .

وكان الثأر واجباً على أقرب الناس للقتيل ، وكانت عشيرة القاتل لا تخذله ولا تسلمه إلى الموتور ، بل كانت تحميه وتؤازره ، وتعتبر تسليمه عاراً وعيباً ، كما كان أخذ الدية عاراً كذلك ، لأنه سمة الضعف والهوان .

---

(١) الحماسة : تحقيق العسيلان ١٢٠/١ ، والشاعر هو : العريان بن سهلة النبهاني .
(٢) الحماسة العسيلان : ٢٤١/٢ ، وحسن الرجل إذا رمى بثوبه وسلاحه مخافة أنْ يلحق– المجاسد : ثياب مصبوغة بالزعفران – والمرهن : المضيق عليه – ونقب النساء : أُزُرهن .

قال مرة الفقعسي[1] :

فلا تأخذوا عقْلًا من القوم إنني أرى العار يبقى والمعاقلُ تذهب
كأنك لم تُسبقْ من الدهر ليلةً إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

وما تزال عادات الثأر هذه متأصلة في نفوس الأعراب حتى أيامنا هذه .

(١) الحماسة : العسيلان ١/١٢٤ . (والمعاقل : الديات) .

المبحث الرابع : الأحلاف[1]

في هذه البيئة الحربية ، التى كان يشيع فيها الفزع والهول ، ويعم فيها الاضطراب والخوف ، كان الفرد يبحث عن الأمن في ظل القبيلة ، وكانت هذه القبيلة تلجأ إلى التحالف مع القبائل الأخرى ، إذ تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية ، لتحميها وترد عنها العدوان .

وربما آثرت القبيلة هذا الحلف أو ذاك ، بدافع مصلحتها ، أو بسبب ضعفها ، أو حباً في الجوار ، وبمجرد أن تدخل القبيلة في الحلف ، يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها .

وقد تضعف بعض الأحلاف لتحل محلها أحلاف أخرى، وقد ترفض بعض القبائل أن تدخل مع غيرها في حلف ، بسبب قوتها وشعورها بشوكتها بين العرب ، ولذلك سميت « جمَرات العرب » . ومن هذه القبائل – وهي قليلة – بنو عامر بن صعصعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبّة ، وبنو عبس ، وقيل : إنها إذا تحالفت مع غيرها أطفئت[2] .

وكانت هذه القبائل تتفاخر بنفسها لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها لقوتها وكثرة عددها .

وكانت بعض القبائل في الجاهلية تشرك مواليها معها في حروبها كما فعلت ذلك قبيلة مذحج في يوم الكلاب ، وإلى ذلك يشير ربيعة بن مقروم في حرب مذحج مع قبيلة تميم[3] :

---

(١) انظر : جواد علي ٤/٣٧٠ – ٣٩٠ .

(٢) انظر : العصر الجاهلي : شوقي ضيف ص ٥٨ ، والفروسية في الشعر الجاهلي / القيسي ص ٧٩ .

(٣) المفضليات : ص ١٨٤ .

وساقت لنا مذحجٌ بالكُلاب موالِيَهـا كُلّهـا والصَّميمـا

وكذلك استعانت قبيلة قريش بحلفائها من الأحابيش يوم فتح مكة ، فأعانوهم وحاربوا معهم .

وقد أطلق على الأحلاف بعض الأسماء بسبب بعض المناسبات المحيطة بنشأتها ، مثل حلف لعقة الدم ، والحلف في الأصل مأخوذ من الحَلِف وهو اليمين ، إذ كانوا يوثقون هذا الحلف بالدم أحيانا ليحل محل العشب كحلف لعقة الدم الآنف الذكر[١] .

وأحياناً كانوا يوثقون الحلف بالماء كما حصل في حلف الفضول ، وسببه أن رجلًا من اليمن ، من قبيلة زبيد ، كان قد قدم مكة ببضاعة ، واشتراها منه العاص بن وائل ، ولم يعطه الثمن ، فوقف على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ونادى بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعتـه ببطن مكـة نائي الدار والنفـر
ومحرم أشعث لم يقـض عمرتـه ياللرجال وبين الحِجْر والحَجر

فاجتمعت بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تميم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان ، وتحالفوا وتعاهدوا ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل وانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه .

وفي السيرة النبوية لابن هشام : أن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لقد شهدت في دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت »[٢] .

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ٢٨٦ للحوفي .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٢/٢٩١-٢٩٣ ، والسيرة النبوية لابن هشام ١/١٣٣ .

ويعتبر هذا الحلف من خير أحلاف الجاهلية ، لأنه كان نصرة للمظلوم وردعاً للظالم .

أما حلف المطيبين فقد غمسوا أيديهم بجفنة فيها طيب ، وهم القبائل التى ناصرت بني عبد مناف ضد بني عبد الدار ، ومَنْ حالفهم ، إلا أنهم اصطلحوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف ، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار ، فانبرم الأمر على ذلك واستمر[1] .

وكان بعض العرب أحياناً ، يتحالفون على النار ، ولعل ذلك سرى إليهم من المجوسية الفارسية ، ومن هؤلاء حلف المحاش ، وقد فعل ذلك قبائل مرة بن عوف من ذبيان حينما تحالفوا عندنا ودنوا منها حتى محشتهم ، فسموا بذلك حلف المحاشي[2] .

وقد تحدث شعراء الجاهلية عن هذه الأحلاف ، وبينوا أهميتها ودافعوا عنها بحرارة ، كما أنهم حذروا من خيانة الحليف .

فقد دافع النابغة الذبياني عن حلف قومه (ذبيان) مع (بني أسد) عندما حاول عيينة بن حصن زعيم ذبيان أن ينقض هذا الحلف ، ويتعاون مع خصومهم من عبس ، فنظم النابغة قصيدة طويلة يخاطب فيها عيينة قائلاً[3] :

إذا حاولت في أسد فجوراً ... فإني لستُ منك ولستَ مني

ثم يمدح بني أسد ويعدد مآثرهم ويدعو إلى الوفاء معهم .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٢٠٩/٢ ، وانظر بلوغ الأرب : ٢٧٧/١ .

(٢) الشعر الجاهلي : د. يحيى الجبوري ص ٤٦ .

(٣) اختيارات الأعلم : ص ٢٤٦ . الفجور : الفساد – المجن – الترس .
الخميس : الجيش – النسار : يوم كانت فيه وقعة . حُجر : والد امرىء القيس الشاعر .

فهم درعي التى استلأمت فيها | إلى يوم النّسار وهم مجني
وهم ساروا لحُجر في خميس | كانوا يوم ذلك عند ظني

إلى أن يقول :

ولو أني أطلعتك في أمور | قرعت ندامة من ذاك سنّي

ويحرض بشامة بن الغدير قومه من بني سهم بن مرة ، ألا يغدروا بحلفائهم وألا يخذلوهم ، وألا يتركوهم وحدهم أمام غطفان ، وأكد هذا الحلف مع قبيلة (الحرُقة) الحصين بن الحمام المري ، وقد كان سيد قومه من بني مرة وذا رأي وقيادة .

وذكر بشامة هذا الحلف في قصيدة منها[1] :

فإمّا هلكتُ ولم آمنهم | فأبلغ أماثل سهم رسولا
بأنْ قومُكم خُيرُوا خصلتين | كلتاهما جعلوها عدولًا
خزي الحياة وحرب الصديق | وكلٌّ أراه طعاماً وبيلًا

وكان الحصين بن الحمام المري يعتبر من أوفياء العرب ، وفي نصرته لحلفائه وجيرانه يقول[2] :

ولما رأيت الود ليس بنافعي | وأنْ كان يوماً ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر فينا سجيةً | بأسيافنا تقطَعْنَ كفاً ومعْصَما
يُفْلّقْنَ هاماً من رجال أعزةٍ | علينا وهُمُ كانوا أعقَّ وأظلما

---

(١) المفضليات رقم (١٠) ص ٥٥-٥٩ .
« أماثلهم : خيارهم - عدولًا : جوراً لأنهم عدلوا عن الحق ، خزي الحياة : ما يلحقهم من العار إذا خذلوا حلفاءهم - الطعام الوبيل : غير المستمرأ» .
(٢) المفضليات : رقم (١٢) ص ٦٥ .
« كانوا يوماً مظلماً : بسبب غبار الحرب حتى أستبانت الكواكب - الهام : ج هامة الرأس - أظلما : بدأونا بالظلم على إعزازنا إياهم » .

لقد أعزّ العرب حلفاءهم ، وحاولوا أن يكونوا أوفياء معهم ، وكانوا يعتبرون أن الحليف من العشيرة ، حتى أن قبيلة قريش كانت تترفع عن تزويج بناتها من غيرها إلا إذا كان من حلفائها .

وافتخر العرب بحماية الجار حتى قالوا : فلان منيع الجار حامي الذمار ، لأن ذلك دليل القوة والرهبة .

قال عبيد بن الأبرص[1] :

نحمي حقيقتنا ونمنع جارنا ونُلفَ بين أرامل الأيتام

وكان من العار الغدر بالحليف ، ولم يكن من السهل أن ينقض حامٍ ذمةً عقدها لجاره ، فإنهم كانوا إذا غدر منهم أحد رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به ، وفي ذلك يقول قطبة بن أوس بن محصن (الحادرة)[2] :

أسميُّ ويحك هل سمعت بغدرةٍ رفع اللواء لنا بها في مجمع
إنا نعفُّ فلا نُريب حليفنا ونكف شح نفوسنا في المطمع

ويذكر الميداني أنهم كانوا يقولون : الدم الدم ، والهدم الهدم ، يعني أبايعك على أن دمي دمك وهدمي هدمك[3] .

وهكذا كانت أحلافهم مظهراً من مظاهر الدفاع عن النفس في بيئة يسودها الحرب والقتال ، وسط صحراء ملتهبة وقبائل متناحرة .

ونادراً ما قامت الأحلاف دفاعاً عن المظلوم كما هي الحال في حلف الفضول .

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص : ص ٤ .
(٢) المفضليات رقم القطعة (٨) ص ٤٥ .
« لا نريب حليفنا : لا نغدر به ، ولا تأتيه منا ريبة » .
(٣) مجمع الأمثال : ٢٤٣/١ .

المبحث الخامس : أيام العرب

ومن أهمها :

١ – من أيام العرب والفرس : يوم الصفقة ، ويوم ذي قار .

٢ – من أيام القحطانيين فيما بينهم : حروب المناذر والغساسنة والحروب التى دارت بين الأوس والخزرج .

٣ – حرب البسوس : بين قبائل بكر وتغلب (وهي من أيام ربيعة) .

٤ – حرب داحس والغبراء : بين قبائل عبس وذبيان .

٥ – حروب الفجار : بين قبائل كنانة وقريش ، وقبائل قيس عيلان وعلى رأسها هوازن وثقيف .

تمهيـد :

كان العرب يسمون حروبهم أياماً ، لأنهم يتحاربون نهاراً فإذا جنّهم الليل توقفوا عن القتال ، فإذا حال اليوم الثاني عادوا إلى القتال .

وتسمى هذه الحروب والأيام غالباً بأسماء الأماكن التي وقعت فيها . مثل يوم الكلاب ، وعين أباغ ، وذي قار .

أو بأسماء الأشخاص أو الحوادث البارزة فيها ، كيوم البسوس ويوم حليمة ، وأيام داحس والغبراء .

أو باسم الصفة التي تميزت فيها كيوم تحلاق اللمم ويوم الفجار .

وأيام العرب كثيرة بحيث يقال[1] : إن أبا عبيدة معمر بن المثنى (توفى ٢١١ هـ) ألف كتاباً جاء فيه ذكر مائتين وألف يوم ، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، أما كتابه شرح النقائض فقد حفظ لنا طائفة كبيرة من تلك الأيام .

وفى كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير – الجزء الأول – طائفة كثيرة من هذه الأيام ، وكذلك الأمر في كلٍ من كتابي الأغاني والعقد الفريد .

« وتعتبر هذه الأيام في الجاهلية مصدراً خصيباً من مصادر التاريخ ، وينبوعاً صافياً من ينابيع الأدب ، ونوعاً طريفاً من أنواع القصص ، بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث ، وما روي في أثنائها من نثر وشعر .

« وهي مرآة صافية لأحوال العرب وعاداتهم، وأسلوب الحياة الدائرة بينهم ... في الحرب والسلم ، والاجتماع والفرقة ، والفداء والأسر » .

---

(١) الفهرست لابن النديم .

« ولو نظرت إلى الشعر الجاهلي ، وبخاصة ما كان في الفخر والحماسة والرثاء والهجاء ، فإنك تجده قد ارتبط بهذه الأيام ارتباطاً تاماً »[1] . فقد ندب الشعراء الصرعى من أشرافهم ، وذبوا عن الأحساب ، وهجْوا الخصوم ، ومن هؤلاء عنترة بن شداد وعامر بن الطفيل ، والمهلهل بن ربيعة وغيرهم كثير .

إن الحروب الدامية كانت سمة العصر الجاهلي ، وسوف نشير إلى بعض وأهم أيامهم المشهورة ، فهي كثيره جداً ، وما نذكره إنما هو نماذج من بعضها توضح لنا القصد .

١ - **فمن أيام العرب والفرس** : يوم الصفقة ، وذي قار .

أ - **يوم الصفقة**[2] : (ويسمى أيضاً يوم المشقّر) .

وكان النصر لكسرى على قبيلة تميم ، حيث أن كسرى ، أصفق على بني تميم الباب في حصن المشقر ، وهو حصن في البحرين ، إذ خُدع الناس بالميرة ، وصاروا يدخلون رجلًا رجلًا ، إلى عامل كسرى على البحرين (المكعبر) ، وهو فارسي ، حتى انتبه أحد بني تميم وقال : يا قوم أين عقولكم ، فوالله ما بعد السلب إلا القتل وضرب بسيفه سلسلة كانت على باب الحصن ، فقطعها ، وفتح الباب وإذا الناس يُقتلون ، فثارت بنو تميم .

وفي ذلك يقول الأعشى مادحاً هوذة ، وهو رجل من بني حينفة كان قد أشار على كسر بفكرة الميرة وحيلة الحصن لينتقم من بني تميم . يقول الأعشى[3] :

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية: «المقدمة» محمد أحمد جاد المولى- علي البجّاوى، أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٦١ .

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٢٧٥/١ ط : بيروت دار الفكر ١٩٧٨ م .

(٣) ديوان الأعشى : ص١٠٥ -١١٠ ، ط : دار بيروت .

سائل تميماً به أيام صفقتهم لما أتوه أسارى كلهم ضَرَعا
وسط المشَقّر في عيطاءَ مظلمةٍ لا يستطيعون فيها ثَمَّ مُمْتنعا[1]
أصابهم من عقاب الملك طائفةٌ كل تميم بما في نفسه جُدِعا

وهي قصيدة طويلة مدح فيها الأعشى هوذة بن علي الحنفي ، واعتبر أنه استطاع أن يخلص مائة من خيار تميم ، وذلك عندما علم هوذة بدخول بني تميم الحصن ، ويتظاهر في ذلك بأنه بريء مما فعله كسرى وعامله في البحرين .

ب - يوم ذي قار[2] :

وهو من أهم الأيام بين العرب والفرس ، وذو قار : ماء لبني بكر بن وائل ، قريب من الكوفة ، ومن أسباب هذه الحرب : أن كسرى كان قد غضب على النعمان بن المنذر ، أمير الحيرة ، بسبب عدي بن زيد الذي قتله النعمان ، ثم فرّ النعمان وحاول أن يلتجىء إلى قبائل العرب ، ثم استودع ودائع عند القبائل ، ووضع أهله وسلاحه ودرعه عند هانيء بن قبيصة ابن هانيء بن مسعود الشيباني وعندما جاء رسول كسرى بالأمان إلى النعمان ، خرج الأمير حتى أتى كسرى في المدائن ، فأمر به كسرى فحبس ومات في حبسه ، أو قتل تحت أرجل الفيلة ، وعُين بدلًا منه إياس بن قبيصة الطائي ، على الحيرة .

بعث كسرى إلى هانىء الشيباني : إن أموال عبدي النعمان عندك ، فابعث بها إليّ ، اعتذر هانىء بحجة أنها أمانة ، ولن يسلمها .

---

(١) وفي رواية أخرى : غبراء مظلمة .
(٢) الكامل في التاريخ : ٢٨٥/١-٢٩٣، وأيام العرب فى الجاهلية (٦-٣٩) .

جهز كسرى عند ذلك جيشاً ، عقد فيه للنعمان بن زرْعة ، التغلبي على تغلب والنمر ، ولخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وإياد ، وعقد لإياس ابن قبيصة الطائي على بقية العرب ، فكان العرب ثلاثة آلاف، وعقد للهامرز على ألف من الأساورة[1] .

ثم بعث كسرى مع هؤلاء القادة اللطيمة[2] ، وكانت تخرج بالبضائع ، وأمرهم إذا شارفوا بلاد بكر ، ودنوا منها أن يبعثوا النعمان التغلبي ليخيرهم بين ثلاث : إمّا أن يعطوا السلاح وما بأيديهم ويحكم فيهم الملك بما يشاء ، وإما أن يتركوا الديار ، أو أنْ يأذنوا بحرب .

وكان كسرى قد أوقع ببني تميم يوم الصفقة ، والعرب ما تزال خائفة منه وجلة .

اجتمعت قبائل بكر في بطحاء ذي قار ، وعينوا حنظلة بن ثعلبة العجلي قائداً على حربهم ، ثم أُخرجت الدروع ، وفرْقت في القوم المحاربين ولما تقارب الزحفان ، قام حنظلة وقطع الوضْن (وضْن الهوادج)[3] ، فسقطت على الأرض ، وقال : ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته ، ثم ضرب على نفسه قبة في بطحاء ذي قار ، وآلى على نفسه ألا يفر ، حتى تفر القبة .

ثم احتدم القتال بين العجم وَمْن معهم من العرب ، وبين قبائل بكر ابن وائل ، ومنهم بنو شيبان ، وبنو عجل وغيرهم .

---

(١) الهامَرْز : لقب للقائد عند الفرس ، وكان على مسلحة كسرى بالسواد .
والأساورة : ج آسوار : وهو الجيد الرمي بالسهام .

(٢) اللطيمة : قافلة كانت تخرج من العراق تحمل البزّ والعطر والألطاف متوجهة إلى باذان عامل كسرى في اليمن .

(٣) الوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر ، وقيل : لا يكون إلا من الجلد .

وفى هذه المعركة قتل الحوفزانُ الهامـرزَ مبارزة ، ثم أرسلت قبيلة إياد إلى قبيلة بكر ، تعلمها وتخيرها : إما أن تهرب وتترك جيوش كسرى ، أو أن تفر حين ملاقاة القوم وفعلًا انهزمت إياد عندما التقى الناس ، وفتوا في عضد الأعاجم ومَنْ والاهم ، وانهزم الفرس وأحلافهم .

واتبعتهم قبيلة بكر ، يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم ، حتى أصبحوا من الغد وقد شارفوا السواد ثم دخلوه في طلب القوم .

ويقول الأعشى في هذا اليوم مفتخراً(١) .

لما التقينا كشفنا عن جماجمنا ... ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
وجندُ كسرى غداة الحِنوِ صبحهم ... منا كتائب تُزجي الموت فانصرفوا
وخيل بكر فما تنفك تطحنُهم ... حتى تولوا وكاد اليومُ ينتصفُ
لو أنّ كل معدٍّ كان شاركنا ... في يوم ذي قار ماأخطأهُمُ الشرفُ

فالحرب في ذي قار كانت حرباً قبلية ، بين بكر من ربيعة وليست قبائل معدّ كلها ، وبين الفرس ومَنْ معهم من قبائل العرب كقبيلة تغلب ، وطيء ، وقد شاركوا في هذا اليوم تزلفاً إلى كسرى ، وانتقاماً من قبيلة بكر .

فالحرب إذن ليست عربية فارسية ، بالمفهوم القومي الذي يزعمه بعض دعاة القومية المتأخرين .

ومما قاله الأعشى أيضاً في مدح بني شيبان ، لأنهم كانوا من أحسن الناس بلاء في هذه الحرب ، هذه القصيدة ومنها(٢) :

---

(١) ديوان الأعشى : ص ١١٢ .
(٢) ديوان الأعشى : ص ٣٣-٣٤ .

فدىً لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبُها يوم اللقاء وقلَّتِ
همُ ضربوا بالحِنْوِ، حِنْو قُراقر ... مُقدمةَ الهامَرْز حتى تولَّتِ
تناهتْ بنو الأحرار إذ صبرتْ لهم ... فوارسُ من شيبانَ غُلْبٌ فولَّتِ

وفي الأصمعيات قصيدة طويلة ، قالها عمرو بن الأسود تحدث فيها عن يوم ذي قار ، ووصف حومة الحرب وتساقط الفرسان ، ثم سرد أسماء القبائل التي اشتركت في هذه الحرب[1] .

٢ – أيام القحطانية فيما بينهم :

أ – ما بين المناذرة والغساسنة :

كانت الأيام بينهم كثيرة ، لأنهم صنائع الفرس والروم يثيرونهم ضد بعضهم من جهة ، ولأنهم قبائل متناحرة من جهة أخرى . ومن أشهر هذه الأيام :

يوم عين أُباغ[2] :

وعين أباغ واد يقع وراء الأنبار ، التقى فيه الحارث الأعرج بن جبلة ملك الغساسنة ، بالمنذر بن ماء السماء ملك المناذرة في الحيرة ، حيث إن المنذر كان قد سار في قبائل معدّ كلها ، إلى الحارث ، وكان قد أرسل إليه يطلب منه الفدية ، لينصرف بجنوده ، أو أن يأذن بحرب ، ثم التقى الجيشان ،

« الحنو : منعرج الوادي » ، والأعشى من قيس بن ثعلبة أحد بطون بكر بن وائل بن ربيعة .

« قلت : قل الشيء أي علا – حنو قراقر : موضع قرب الكوفة » .

« الهامرز : القائد عند الفرس – بنو الأحرار : الفرس » .

« غلب : ج أغلب وهو غليظ العنق ، كناية عن القوة » .

(١) الأصمعيات : ص ٧٩ رقم القصيدة (٢١) .

(٢) انظر : الكامل في التاريخ ٣٢٥/١ وما بعدها ، وأيام العرب / ص ٥١–٨٤ .

وبدأت الحرب مبارزة ، إذ أخرج المنذر عبدين فارسين من عبيدة ، الواحد بعد الآخر على أنهما ولداه ، خديعة منه للحارث ، ليقاتلا ولدي الحارث ، وقد قتل ولداه فعلًا في هذه المبارزة ، والتحم الجيشان بعد ذلك (ثم علم الحارث بالخدعة) وانهزم جيش المناذرة بعد أن قُتل المنذر في هذا اليوم ، ثم سار الحارث وجيشه إلى الحيرة فنهبها وأحرقها .

وقد وصف عديٌّ بن رَعْلاء الغساني هذه الحرب فى قوله[1] :

ربّما ضربةٍ بسيفٍ صقيلٍ ... دونَ بُصرى وطعنةٍ نجلاءِ
وغموسٍ تضل فيها يدُ الآ ... سيّ ويعيا طبيبها بالدواء
فصبرنَ النفوسَ للطعن حتى ... جَرَتِ الخيلُ بيننا في الدماء

إلى أن يقول في شأن من تركته الحرب سليماً معافىً فى ثياب من الذل، فحياته ليست إلا موتاً، وقد سار البيتان التاليان مسيرة الحكمة لكل حياة ذليلة رخيصة :

ليس مَنْ مات فاستراح بِميْتٍ ... إنما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ
إنما المَيْتُ من يعيش ذليلًا ... سيئاً بالهُ قليلَ الرجاءِ

ثم حاول المنذر بن المنذر أن يثأر لأبيه ، فكان **يوم حليمة** ، واستمرت الحرب أياماً ينتصف بعضهم من بعض ، إلى أن دعا الحارث ابنته واسمها (حليمة) وكانت من أجمل النساء ، وأعطاها طيباً لتطيب مَنْ يمر بها من جنده ثم نادى : يا فتيان غسان ، من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي هذه ، وانهزمت لخم وجيش المنذر ، وقتل المنذر على يد لبيد بن عمرو الغساني ، ثم قُتل هو أيضاً .

---

(١) الأصمعيات : ص ١٥٢ .
« بصرى : من أعمال دمشق وهي قصبة جوران آنذاك » .
« الغموس : الطعنة الواسعة – الآسي : الطبيب » .

وانصرفت غسان بأحسن الظفر بعد أن أسروا كثيراً ممن كانوا في جيش المنذر ، وكان منهم مائة من بني تميم فيهم شأس بن عبدة ، ولما سمع أخوه علقمة الفحل بأسر أخيه ، وفد إلى الحارث الغساني مستشفعاً ثم أنشده قصيدة طويلة منها هذا المطلع[1] :

طحابك قلبٌ في الحسان طروبُ   بُعَيْدَ الشبابِ عصرَ حانَ مشيبُ

ثم مدح النعمان ونوه بمواقفه في الحرب ، وذكر الشؤم الذي أصاب أعداءه بسبب التقتيل والهزيمة ، ومن ثم طلب إنقاذ أخيه من الأسر إذ يقول :

فوالله لولا فارسُ الجَوْنِ منهمُ   لآبو خزايا ، والإيابُ حبيبُ
فقاتلتَهم حتى اتقوك بكبشهم   وقد حانَ من شمسِ النهار غروبُ
وفي كل حـي قد خبطتَ بنعمةٍ   فحُقَّ لشأسٍ من نَداك ذَنوبُ

ولما بلغ قوله : فحق لشأس من نداك ذنوب ... أمر الملك بإطلاق شأس وسائر أسرى بني تميم .

(١) المفضليات : رقم (١١٩) .
« طحابك : اتسع بك وذهب كل مذهب » .
« الجون : فرس الحارث بن أبي شمر الغسانى » .
« كبشهم : أي ملكهم ورأسهم ، يعني المنذر » .
« يقال : خبطه بخير ، أعطاه من غير معرفة بينهما » .
« الذنوب : الدلو ويقصد الحظ والنصيب » .

ب - الحروب الدائرة بين الأوس والخزرج[1] : من أهمها :

حرب سُـمير :

وسببها أن رجلًا من ذبيان اسمه كعب من بني ثعلبة ، كان قد نزل على مالك بن العجلان الخزرجي ، وحالفه وأقام معه .

ثم خرج كعب إلى سـوق بني قينقاع ، فرأى رجلًا من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب . فقال الناس : فلان أو فلان ، حتى قال كعب : مالك بن العجلان أعز أهل يثرب ، وكثر الكلام ، ثم قبل الغطفاني قول كعب ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان الخزرجي .. فقال كعب : ألم أقل لكم إن حليفي أفضلكم ؟ فغضب رجل من الأوس يُقال له : سُمير بـن يزيد وشتمه ثم افترقا .

قصد كعْب سوقاً لهم في قباء ، فقصده سُمير وقتله .. ثم طالب مالك بن العجلان بقتل سمير أو بدية حليفه ... فرفضت الأوس أن تدفع إلا دية الحليف وهي النصف ...

ثم حكّموا بينهم عمرو بن امرىء القيس ، جد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، وهو خزرجي ، فقضى بنصف الدية ...

رفض مالك واستنصر قبائل الخزرج .. وزحفت الأوس بمن معها من حلفائها من قريظة والنضير ، والتقوا قرب قباء واقتتلوا قتالا شديداً وانصرفوا ، ثم التقوا ثانية واقتتلوا حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر للأوس على الخزرج .

---

(١) انظر : الكامل في التاريخ لابن الأثير : الجزء الأول ص ٤٠٢ وما بعدها .

واستمرت الأوس والخزرج متحاربتين عشرين سنة في أمر سمير ، يتعاودون القتال ، وكثرت أيامهم ومواطنهم نتيجة لذلك كيوم حاطب ويوم كعب ويوم بعاث وغيرها .

وأخيراً حكموا بينهم ثابت بن المنذر بن حرام والد حسان بن ثابت رضي الله عنه ، وحكم بأن يودى حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون السنة فيهم بعده ، ما كانت عليه ، الصريح على ديته ، والحليف على ديته ، وأن تعد القتلى وتعطى الديات ، لمن زاد قتلاهم فرضي مالك وسلّمت الأوس وتفرقوا .

ونظرة مُتفحصة في هذه الحرب وأسبابها ، ترينا مقدار سيطرة العصبية ، وشدة الكبر عند عرب الجاهلية ، بلْ وعُبيّة الجاهلية وحميّتها ، مما أدى إلى حروب دامية استمرت عشرين عاماً .

رجل غطفاني يسأل عن أعز العرب . لماذا ؟ ليسلمه الفرس التي يقودها .. ثم ماذا ؟ يتلاحى حليف مالك بن العجلان مع رجل من الأوس بسبب ذلك ، ثم يُقتل الحليف الذبياني ، وهكذا تستمر الحروب والثارات .

وتتكرر الأيام حتى ينعم الله عليهم بالإسلام ، فتندثر العصبيات ، ويصبح الولاء للدين الجديد عند أتباعه من المؤمنين .

يصبح هؤلاء الأنصار ، من طلائع كتائب الجهاد في سبيل الله ، ليقهروا الشرك وأهله مع إخوانهم المهاجرين ، وتحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يــوم بُعاث[1] :

ويعتبر من أواخر أيامهم المشهورة .

وسببه أن سيد الخزرج ، وهو عمرو بن النعمان البياضي قال لقومه : إن أباكم أنزلكم منزلة سوء ، والله لا يمس رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير ، وأقتل رهنهم[2] .

وأرسل إلى يهود في ذلك ، وهموا بالخروج من ديارهم حتى نهاهم كعب بن أسيد القرظي ، واعترض عبد الله بن أبي بن سلول ، على هذا الأمر واشتد الشجار ، فوقعت الحرب ، والتقت الأوس ومعها حلفاؤها من اليهود ، مع الخزرج وحلفائها من أشجع وجهينة ، وكان القتال شديداً ، دارت الدائرة فيه على الخزرج ، وأحرقت دورهم ونخيلهم ، من قبل الأوس ، وأجار سعد بن معاذ أموال بني سلمة ، جزاء معروف سابق لهم عليه .

وفي هذا اليوم يقول أبو قيس بن الأسلت[3]وقد عاد من الحرب ، مخاطباً زوجته ، بعد أن مكث في الحرب أشهراً ، حتى شحب لونه وتغير مما جعل زوجته تنكره ، وتقول : والله ما عرفتك حتى تكلمت . قال قصيدة طويلة في هذه الحرب منها[4] :

---

(١) انظر : المرجع السابق ، وأيام العرب فى الجاهلية ص ٧٣ .

(٢) الرهن : أربعون غلاماً من اليهود ، كانوا رهائن عند الخزرج بسبب الحروب السابقة ولمساعدة يهود الأوس ضد الخزرج .

(٣) من شعراء الجاهلية المجيدين ، وهو سيد الأوس وصاحب حربها يوم بعاث .

(٤) جمهرة أشعار العرب : ٢/٦٦٥ تحقيق د. محمد علي الهاشمي .

« الخنا : الكلام الفاسد » .

قَالت ولم تقصِد لقيل الخَنَا … مهلًا فقد أبلغت إسماعـي
أنكـــرتِه حين توسمتِـــه … والحربُ غولٌ ذاتُ أوجاع[1]
قد حَصَّتْ البيضَةُ رأسي فما … أطعُمُ نوماً غير تهْجاعِ[2]
لا نألمُ القتل ونجزي به الأعداء … كيـــل الصَّاع بالصــاع

لقد سطر الشعر الجاهلي قصائد طويلة في هذه الحرب ، حتى أن القصائد السبع « المذْهبات » في جمهرة أشعار العرب كانت تدور حول حروب الأوس والخزرج ، وكلها لشعراء هاتين القبيلتين .

ففي حرب سُمير قال مالك بن العجلان قصيدة يعتب فيها على قومه من بني الحارث لأنهم رفضوا نصرته، غضباً لرده قضاء عمرو بن امرىء القيس ، ويحرض الشاعر هنا بني النجار على نصرته[3] :

إن سُميراً أرى عشيرته … قد حدِبوا دونَهُ وقد أَنِفُوا
لكنّ موالي قد بدا لهـمُ … رأيٌ سوى ما لديّ أو ضَعُفُوا

ثم يفتخر بقوة قومه في الحرب وبعزتهم بين العرب إذ يقول[4] :

نحن بنو الحرب حين تشتجر الـ … ـحربُ ، إذ ما يهابُها الكشُفُ
ما قصَّر المجدُ دون محتد نا … بل لم يزلْ في بيوتنا يكفُ
إنَّ سميراً عبدٌ بغى بطـراً … وأدركتـهُ المنيَّـةُ التُّلَـفُ

---

(١) أي شكّت فيه حين توسمته أي تثبتت من معرفته ، والغول : ما اغتال الأشياء فذهب بها .

(٢) المعنى : أنه يطيل لبس السلاح ويُقل النوم – والبيضة : خوذة من الحديد حصته : أذهبت شعره – التهاجع : النوم الخفيف .

(٣) جمهرة أشعار العرب : ٦٣٧/٢ « وهي الثالثة من المذهبات » .

(٤) المفردات : تشتجر : تستوقد – الكشف : الذين لا ترس لهم .
المحتد : الأصل والطبع – يكف : يسيل ويتقاطر « أي أن المجد ثابت مستمر لا ينقطع » .
سمير : قاتل جار مالك .

ويشير كذلك **قيس بن الخطيم**، شاعر الأوس إلى حرب حاطب، وحرب بعاث في قصيدة طويلة منها:

يقول قيس بن الخطيم[1]:

دعوت بني عوف لحقْن دمائهم	فلما أبَوْا سامحتُ في حرب حاطب
ضربناكم بالبِيض حتى لأنتمُ	أذلُّ من السُّقبان بين الحلائب
ويومَ بُعاثٍ أسلمتنا سيوفُنا	إلى حسَبٍ فِي جِذْم غسانَ ثاقبِ
رضينا لعوف أن تقول نساؤهم	ويهز أن منهم: ليتنا لم نحارب

ومما قاله حسان بن ثابت الخزرجي (رضى الله عنه) في هذه الحروب قبل إسلامه، يرد على شاعر الأوس قيس بن الخطيم[2]:

فلا تعجلَنْ يا قيس واربَعْ فإنما	قصاراك أنْ تُلقى بكل مهنّدِ
فقد لاقتْ الأوسُ القتالَ وطُرِّدتْ	وأنت لدى الكنّاتِ في كل مَطْرَدِ
فغنِّ لدى الأبياتِ حوراً كواعباً	وحجِّرْ مآ قيك الحسانَ بإثْمِدِ

ويقول عبد الله بن رواحة (رضي الله عنه) وهو من الخزرج، مفتخراً ومشيداً بانتصار قومه على الأوس في قصيدة طويلة منها[3]:

إذا نُدعى لسيب أو لجـارٍ	فنحـن الأكثرون بهـا عديـدا
زعمتم أنما نلتـم ملوكـاً	ونزعم أننـا نلنـا عبيـدا

أي أن الأسرى من الأوس كالعبيد الأذلة، بينما يعتبر الشاعر أن أسرى الخزرج كالملوك الأعزاء.

---

(١) جمهرة أشعار العرب: ٦٤٥/٢ «الرابعة من المذهبات» «المفردات: بني عوف: من الخزرج – سامحت: تابعت – السقبان: ج سقب وهو ولد الناقة».

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٦٢١/٢، «الأولى من المذهبات».

المفردات: اربع: أقم وكف نفسك – الكنات: ج كنّة وهي «امرأة الابن والأخ». البيت الأخير: «أي دعك مع النساء لاهياً وخذ زينتهن فأنت بهنّ أشبه».

(٣) جمهرة أشعار العرب: ٦٢٩/٢ (القصيدة الثانية من المذهبات).

هذه حالة الأوس والخزرج قبل الإسلام ، حروب وتناحر وانقسام ، وتفاخر ومباهاة ، وضغائن يشترك في إشعالها اليهود .

هذه يثرب بانقساماتها وحروبها ، تتحول بعد الهجرة إلى طيبة إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى دار الهجرة ، إلى منطلق الفتوحات الإسلامية ، فتوحات الهدى والخير ، ويكون من طلائع هذه الفتوحات ، وقادة هذه الجيوش المهاجرون والأنصار .

إنه الإيمان الذي يصنع في النفوس الأعاجيب ، إنه الإسلام الذي جعل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وشعراء الأوس والخزرج من المسلمين ، يتحولون إلى دعاة لنشر هذا الدين ، والذب عن حياضه ، يصبحون شعراء الدعوة الإسلامية فحسان بن ثابت رضي الله عنه ، الذي عاش ستين سنة في الجاهلية ، ودافع عن تراث آبائه وأجداده ، ونافح عن حسب الخزرج ومفاخرها ، بشعر قد نضج في تعبيراته ومعانيه ، يتحول إلى إنسان آخر ، لقد خالط الإسلام قلبه فخلع – وأمثاله من الصحابة – على عتبة الإسلام كل شيء كان يفعله أو يعتقده في جاهليته .

الإسلام هو الذي جعل حسان بن ثابت رضي الله عنه يقول قبل فتح مكة[1] :

وقال الله : قد أرسلتُ عبداً ... يقول الحقّ إنْ نفع البلاءُ
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاءُ
فإنّ أبي ووالده وعرضي ... لعِرض محمدّ منكم وِقاءُ

ثم يقول مخاطباً أبا سفيان بن الحارث وبقية قريش :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
فمَنْ يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه ، وينصره سواءُ

(١) ديوان حسان بن ثابت : ص ٩٠٨ /دار بيروت للطباعة والنشر .

فحسان يفدي الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه وأهله وعرضه ، لقد ذابت العصبيات التي رأينا أوارها في شعر أيام العرب ، وعند شعراء الأوس والخزرج قبل الإسلام . لقد وقف حسان الخزرجي في صف الإسلام مع الأوس ومع قريش ، مع المؤمنين ، ضد معسكر الشرك وأهله ، لقد تمايزت الصفوف واختلفت المعايير ، ومنَّ الله على عباده بنعمة الإسلام وأمنه وأخوّته[1] .

وها هو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بعد أن كان يدافع عن مفاخر قبيلته في حروبها مع الأوس ، يصبح قائداً لسرايا الجهاد في مؤتة ، يقاتل الروم وأحلافهم من العرب يقول رضي الله عنه[2] :

أقامَتْ ليلتين على معـان ... فأعقب بعد فترتهـا جمـومُ
فلا وأبي مـرآب لنأتينّهـا ... وإنْ كانت بها عربٌ ورومُ

وهو القائد الشهيد الذي يعقر فرسه ويقاتل الروم حتى قتل . وكان يرتجز[3] :

يا حـبذا الجنة واقترابهـا ... طيبـة وبـارداً شرابهـا
والروم رومٌ قـد دنـا عذابهـا ... كافـرةٌ بعيـدةٌ أنسابهـا
عليّ إذ لا قيتها ضرابهـا

وهذا كعب بن مالك الأنصاري – رضي الله عنه ، يصبح لسان الدعوة الإسلامية ، ويهدد قبائل الحجاز بعد حُنَيْن ، وكانت قصيدته (في

---

(٢) سنزيد هذا الموضوع تفصيلًا إن شاء الله في الفصل القادم : (الإسلام والجاهلية) .

(١) السيرة لابن هشام : ٣٧٥ذ٢ ، ويشير هنا إلى الخيل ، ومعنى جموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة ، ومآب ومعان : مدن في الأردن الآن .

(٢) المصدر السابق : ٣٧٨/٢ .

ذلك) اللسان الرسمي للإشاعة بغزو الطائف أو دوس .. حتى إن دوساً خافت لما سمعت هذه القصيدة فجاءت عجلى لتسلم يقول منها[1] :

قضينا من تهامة كل رَيْب — وخيبر ثم أجمَعْنا السيوفا
نخيرها ولو نطقت لقالت — قواطعهنّ دَوْساً بل ثقيفا

إلى أن يقول :

نطيع نبينا ونطيع رباً — هو الرحمن كان بنا رؤوفا
فإن تلقوا إلينا السّلْم — نقبلْ ونجعلكم لنا عضُداً ضعيفا
نجالد ما بقينا أو تنيبوا — إلى الإسلام إذعانًا مضيفاً

ثم يقول : إن حروبهم وقتالهم في سبيل الله :

لأمر الله والإسلام حتى — يقوم الدين معتدلًا حنيفاً
وتُنْسى اللاتُ والعزّى ووَدٌّ — ويسلبها القلائد والشنوفا

٣ - حرب البسوس[2] :

وهي من أيام العرب الشهيرة ، وكانت بين قبائل ربيعة ، بكر وتغلب ، في أواخر القرن الخامس الميلادي .

وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب على ناقة للبسوس اسمها سراب ، والبسوس خالة جِساس بن مرة سيد بني بكر ، كانت قد نزلت بجواره وهي من قبيلة تميم .

---

(١) ابن هشام ٣٠٢/٢ ، وابن سلام : ١٨٤-١٨٥ .
« الشنوف : ج شَنَف قرط يلبس فوق الأذن - الخسوف : الضيم والذل .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير : ٣١٢/١-٣٢٤ ، وأيام العرب في الجاهلية (١٤٢-١٦٧) .

وكان كليب[1] قائد معدّ يوم خزاز ، فض جموع اليمن وهزمهم ، فجعلت له معد قسم الملك وتاجه وطاعته وبقي زمانًا على ذلك ، ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه حتى أنه كان يحمي مواقع السحاب ، فلا يرعى حماه ، ولا يورد أحد مع إبله .

وذات مرة رأى كليب ناقة البسوس ترعى في حماه فرمى ضرعها بسهم ، واختلط لبنها بدمها ، ولما علم جساس بالأمر ، وسمع صياح البسوس وهي تصيح : واذلاه ... انتقم من كليب وطعنه بالرمح وقتله ، على حين غرة .

واشتدت الحرب بين الطرفين ، وقاد عدي بن ربيعة الملقب بالمهلهل جموع تغلب ضد بني بكر ، بعد أن فشلت كل مساعي الصلح ، واستمرت رحى الحرب أربعين سنة وكثرت أيامها مثل : يوم عنيزة ، ويوم واردات ، ويوم الحِنْو ، ويوم القصيبات ، ويوم تحلاق اللـمم الذي حضره الحارث بن عباد .

وقتل في هذه الحروب جِساس بن مرة وأخوه همام ، وقتل كذلك بجير ولد الحارث بن عباد ، وخلق كثير ... وملّ الناس الحرب ، ثم عرض المهلهل على قومه أن يغادرهم ، إنْ أرادوا الصلح ،وارتحل فعلًا ونزل في حي من اليمن اسمه جنب ، ومن غريب ما انتهى إليه أمره ، أن القوم أجبروه على زواج ابنته وساقوا إليه صداقها جلوداً من أدم فقال في ذلك[2] :

---

(١) اسم كليب : وائل بن ربيعة ، لقب بذلك لأنه كان إذا سار أخذ معه جر وكلب ، فإذا مر بروضة أو بموضع يعجبه ضرب الجرو ثم ألقاه وهو يصيح في ذلك المكان ويعوي ، فلا يسمع بمواءه أحد إلا تجنب ذلك الموضع ، وكان يقال له كليب وائل ، ثم اختصروا فقالوا : كليب فغلب عليه ذلك .

(٢) الشعر والشعراء : ابن قتيبة : ٢٩٩/١ .

أنكحها فقدُها الأراقـمَ في جنـب وكان الحبـاءُ من أدَم
لو بأبانَيْـن جـاء يخطبهـا رُمِّـل ما أنفُ خاطب بدم(*)

ثم انحدر إلى قومه ، فلقيه عوف بن مالك وهو أبو أسماء صاحبة المرقش الأكبر فأسره ومات في أسره .

قال المهلهل كثيراً من الشعر في هذه الحرب . منها هذه القصيدة التي نظمها بعد أن أدرك ثأر أخيه[1] :

فإنْ بك بالذنائب طال ليلي . فقد يُبْكى من الليل القصيـر
فلو نبش المقابر عن كليـب فيُخبَر بالذنائب أيُّ زيـر
فلولا الريحُ أسمع أهل حجـرٍ صليل البِيـض يُقْدع بالذكور

ومن جيد شعر المهلهل بطل هذه المعارك قصيدة ذكرها صاحب جمهرة أشعار العرب واعتبرها من المنتقيات ، قالها يهدد بني بكر ، ويتوعدهم بالثأر لأخيـه ، ويتحدث عن ظلم جساس وقومه ، وقتله لكليب (سيد العرب من معدّ) ، وقائدها يوم خزاز ، ضد جموع اليمن ، إذ استطاعت ربيعة (ومضر) أن تهزم أعداءها ، ثم يهدد أعداءه بالذبح ، ذبح الشياه ومن هذه القصيدة[2] :

جارت بنو بكر ولم يعدلوا والمرءُ قد يعرف قصد الطريقْ

(*) « الأرقم : أحياء من قوم المهلهل – أبانان : جبلان – رُمّل : لطخ .

(١) الأصمعيات : ص ١٥٤ رقم (٥٣) .

« الذئاب : موضع به قبر كليب – أي زير : أيْ أي زير هو ، والزير الذي يخالط النساء ويريد حديثهن لغير شر .

« حَجر : مدينة باليمامة – الذكور : أجود السيوف » .

يقدع : يضرب ، وفي البيت مبالغة : إذ لـولا الرع لسمع أهل اليمامة صليل السيوف .

(٢) جمهرة أشعار العرب : ٢/٥٨٧–٥٩٤ .

« قصد الطريق : استقامة الطريق » .

حطتْ ركاب البغي من وائلٍ　　في رهط جساسٍ ثقال الوسوقْ[١]
يا أيها الجاني على قومه　　ما لم يكن كان له بالخليق
إن امرءاً ضرجتمُ ثوبه　　من عاتك من دمه كالخلوق[٢]
لم يك كالسيد في قومه　　بل مَلِكٌ ، دِين له بالحقوق
إن نحنُ لم نثأر به فاتخذوا　　شَفاركم منّا لحزِّ الحلوقْ[٣]
ذبحاً كذبحِ الشاة لا تتقي　　ذابحها إلا بشخْب العروق[٤]

استمرت العداوة والحروب بين قبائل تغلب وبكر ، وكلها من ربيعة ، سنوات طويلة ، اشترك في ذكرها عدد من شعراء القبيلتين ، وتركوا لنا شعراً كثيراً ينبض بالحرارة والحيوية وينفح بالدم والبغضاء .

نذكر من هؤلاء على سبيل المثال : عمرو بن كلثوم في معلقته — والشاعر من سادات تغلب[٥] —:

إليكم يا بني بكر إليكم　　ألما تعرفوا منا اليقينا
ألمّا تعلموا منا ومنكم　　كتائب يطّعن ويرتمِينا

ومعلقة الحارث بن حلّزة اليشكري التي يرد فيها على عمرو بن كلثوم وهي طويلة ، وأنشدها أمام عمرو بن هند ملك الحيرة[٦] :

أيها الناطقُ المرقشُ عنا　　عند عمرو وهل لذاك بقاءُ
ما أصابوا من تغلبي فمطلول　　عليه إذا تولى العفاءُ
أيها الشانيء المبلغُ عنا　　عند عمرو وهل لذاك انتهاء

(١) الوسوق : الأحمال .
(٢) عاتك : شديد الحمرة . والخلوق : ضرب من الطيب .
(٣) شفرات السيوف : حدها .
(٤) شخب العروق : قطعها وسيلان الدم منها .
(٥) شرح القصائد العشر للتبريزي / ص ٢٥٢ .
(٦) المصدر السابق : ص ٢٩٩ ، والمرقش : الذي يزين القول بالباطل ليقبل الملك منه باطله ، مطلول عليه : أي لا يدرك بثأره .

هكذا كانت هذه الحروب ، ميداناً للفروسية ، ومجالًا لفرسان الشعر يذبون عن قبائلهم ، ويحاولون تخليد أسمائها وأيامها وانتصاراتها ، وبقى العرب يذكرونها في مجالس سمرهم ، وحكايات شيوخهم .

٤ - حرب داحس والغبراء[١] .

وهي من الحروب المشهورة عند العرب ، من أيام قبائل قيس فيما بينها ، كانت في أواخر العصر الجاهلي بين قبيلتي : عبس وذبيان .

وسببها رهان على سباق بين الخيول ، منها فرسان أسمهما داحس والغبراء سميت الحرب باسمهما . كان سيد بني عبس ، قيس بن زهير قد اشتراهما من أهل مكة .. بعد خلافه مع الربيع بن زياد - وهو من سادة عبس أيضاً - على درع موصوفة كانت لقيس اشتراها من المدينة المنورة ليحارب بني عامر ويثأر لمقتل أبيه .

نزل قيس بن زهير في جوار حذيفة بن بدر ، وأخيه حمل بن بدر وهما من سادة ذبيان ... وكان حذيفة يحسد قيسًا على خيوله ويكتم ذلك في نفسه .

استغل حذيفة بن بدر غياب قيس للعمرة ، فراهن أحد بني عبس على السباق بين فرسين لقيس : داحس والغبراء ، مقابل فرسين لحذيفة : الخطار والحنفاء .

ولما رجع قيس أراد فك الرهان فرفض حذيفة ، وكان الرهان على مائة من الإبل ، ثم أجريت السباق ، وكمن رجل من بني أسد في الطريق ليرد داحساً إنْ جاء سابقاً.. وفعلًا نفذ الأسدي خطة حذيفة ولطم وجه

---

(١) انظر : الكامل في التاريخ لابن الأثير : ١/٣٤٣-٣٥٥ وأيام العرب في الجاهلية : جاد المولى : ٢٤٦-٢٧٧ .

داحس وألقاه وفارسه في الماء ، ثم جاءت الغبراء سابقة ، وتبعها الخطار ثم الحنفاء ثم داحس ، وندم الأسدي مما كان منه واعترف بما صنع ، ولكن حذيفة أنكر ذلك ، وطلب الرهان المضروب .. حاول الناس أن يتوسطوا في الأمر ، ورضي بنو عبس بجزور واحدة يطعمونها أهل الماء ومَنْ حضر . وقالوا : إنا نكره القالة في العرب ، فأبى بنو فزارة (من ذبيان) وقال أحدهم : مائة جزور ، وجزور واحدة سواء .

ثم لج حذيفة في ظلمه وأرسل ابنه ندبة يطالب بالسبق ، وهنا تناول قيس الرمح وطعن ندبة فقتله ، ورحل بمن معه من بني عبس ، وأرسل لأخيه مالك ليلحق به ، إلا أن حذيفة بعث مَنْ يقتل مالك بن زهير . ولما علم الربيع بن زياد بذلك جزع على مقتل مالك وقال قصيدة منها[1] :

من كان مسروراً بمقتل مالــك	فليأتِ نسوتنا بوجه نهار
يجد النســاء حواسراً يندبنه	يلطمْن أوجُهَهُنَّ بالأسحــار
يضربن حُرَّ وجوههن على فتىً	عفِّ الشمائل طيب الأخبار

واجتمعت عبس كلها على حرب ذبيان ، وأحلافها من أسد وتميم ، وكان قد انضم إلى عبس بنو عامر .

واستمرت الحرب فيما يقال : أربعين عاماً ، وكان من أشهرها : يوم المريقب ، وفيه قتل عنترة بن شدادا ضمضماً والحارث بن بدر وإلى هذا يشير عنترة في معلقته[2] :

---

(١) ديوان الحماسة : تحقيق العسيلان ، رقم القصيدة (٣٤٨) .
« والمعنى أن نساءهم كن يسترن وجوههن عفة وحياء ، والآن ظهرن لا يعقلن من الحزن » .

(٢) المعلقة : ص٤٧٥ الأعلم / والتبريزي ص ٢١٠ .

ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابنْي ضمضم[1]
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جَزَراً لخامعةٍ ونسر قشعم[2]

ومنها يوم جفر الهباءة ، وفيه قُتل حذيفة وحمل ابنا بدر وسيدا ذبيان ، ورثاهما قيس بن زهير رثاءً حاراً ، وكنا قد أشرنا إلى ذلك خلال الحديث عن الثأر .

وكانت عبس قد تعرضت لترحال كثير ، وحروب شديدة ، مع عدد من قبائل العرب ، أمثال قبيلة شيبان ، وأهل هجر وكلب وبني ضبة وتيم والرباب ، ومع بنى عامر حلفائهم السابقين وكان عنترة العبسي من أبطال هذه الحروب وقد سجلها في ديوانه[3] .

وكان قيس بن زهير قد قال لقومه بعد أنْ ملّ الحرب ، أُنهكت عبس : ارجعوا إلى قومكم فهم خير لكم ... أما أنا فلا والله لا أجاور بيتاً غطفانياً أبداً[4] ، فلحق بعُمان وهلك فيها ، ثم رجع الربيع بن زياد ، ومعه عبس ، وقال في ذلك[5] :

حرَّقَ قيسٌ عليَّ البلاد حتى إذا اضطرَمَتْ أجذما
جَنِيَّةُ حربٍ جناها فما تُفرِّجَ عنه وما أُسْلِما

ولما تفانى الحيان ، رغبت عبس في الصلح ، واستجاب لذلك سيدان من سادات ذبيان هما : الحارث بن عوف المري ، وهرم بن سنان ، وتحمل السيدان المذكوران الديات ، وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين .

---

(١) ابنا ضمضم : كان عنترة قتل أباهما وهما يتوعدانه .
(٢) الخامعة : الضبع – القشعم : الكبير من النسور ، وفى رواية التبريزى : جزر السباع ، وكل نسر قشعم .
(٣) انظر : اختيارات الأعلم (من ص٤٨٢–٥١٧) . شعر عنترة .
(٤) غطفان : منها عبس وذبيان .
(٥) ديوان الحماسة لأبي تمام : رقم القصيدة : ١٦٥/العسيلان .

وفي وصف هذه الحرب ، وتصوير شدتها وبشاعتها ، قال زهير بن أبي سُلمى معلقته الشهيرة . وفيها يمدح هذين السيدين ومما قاله فيهما[1] :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزّل ما بين العشيرة بالدم
تداركتما عبساً وذبيانَ بعدما تفانوْا ودقوا بينهم عطر منشم
عظيمين في عُليا معدٍّ هديتما ومن يستبحْ كنزاً من المجد يعظم

هذه صورة موجزة عن حرب داحس والغبراء ، وقد عرفنا سببها ، وما تركته من ثارات وقتلى ، وقد تتكرر أمثال هذه الخلافات ، من رهان على الخيول ، إلى سباق في السيارات أو الدراجات أو مباريات رياضية ، تُشَد إليها الأعصاب ويتحزب من أجلها الفرقاء ، ضمن الأسرة الواحدة ، فيقع الشقاق أو الطلاق ، والشحناء من أجل تشجيع أحد الفريقين .

٥ - حروب الفجار[2] :

الفِجار (بالكسر) معناه المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وذلك لأنها وقعت في الأشهر الحرم ، وهي الشهور التى كان العرب يحرمون القتال فيها ، إلا أنهم فجروا فيها بسبب هذه الحروب .

وحروب الفجار فجاران : الفجار الأول ثلاثة أيام ، والثاني خمسة أيام في أربع سنين ، وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم يوم عكاظ مع أعمامه ، وكان يناولهم النبل ، وانتهت هذه الحروب سنة ٥٨٩ م .

---

(١) معلقة زهير : القصائد العشر للتبريزي ص١٢٥ وما بعدها . والأبيات شرحت خلال الحديث عن : الدعوة إلى نبذ الحرب ص ٦٠ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٣٥٩/١ ، وانظر أيام العرب في الجاهلية ص ٣٢٢ وما بعدها .

أيام الفِجـار الأول :

اليوم الأول : كان سببه أن بدر بن معشر الغفاري (ينتهي نسبه إلى كنانة) كان رجلًا منيعاً يستطيل على من يرد سوق عكاظ ، وفي أحد المواسم جلس ومد رجله وقال : أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز مني ، فليضربها بالسيف ، فوثب رجل من بني نصر – من قبيلة هوازن – وضربه على ركبته بالسيف فخدشها خدشاً يسيراً ، واختصم الناس ثم اصطلحوا .

أما اليوم الثاني : فسببه أن شباباً من قريش وكنانة ، قعدوا إلى امرأة من بني عامر ، وكانت وضيئة عليها برقع ، وذلك فى سوق عكاظ ، وقالوا لها : أسفري عن وجهك ، فرفضت ، ثم قام غلام منهم ، وشك ذيل درعها إلى ظهرها وهي لا تشعر ، فلما قامت انكشفت درعها عن ظهرها فضحكوا وقالوا : منَعَتِنا النظر إلى وجهك ، وجُدتِ لنا بالنظر إلى ظهرك ؟!.

عندها نادت المرأة : يا بني عامر فضحت ، فساروا إليها وحملوا السلاح ، وحملته كنانة وقريش ، واقتتل الطرفان ووقعت بينهم دماء يسيرة ، ثم توسط حرب بن أمية ، واحتمل دماء القوم وأرضى بني عامر من مثلة صاحبتهم[١] .

أما اليوم الثالث : فسببه أن رجلًا من كنانة كان عليه دَينٌ لرجل من بني نصر – من هوازن – جاء النصري سوق عكاظ بقرد وقال من يبعني مثل هذا بمالي على فلان ، فعل ذلك تعييراً للكناني وقومه ، ولما مرّ به رجل من كنانه ، ضرب القرد بالسيف وقتله ، أنفةً مما قال النصري ، عندها صرخ كل من الرجلين : يا آل كنانة ، يا آل هوازن !!!

---

(١) يرى ابن الأثير أنه لم يحصل قتال ، ورأى الناس أن الأمر يسير واصطلحوا .

تجمع الناس من القبيلتين ثم تحاجزوا ، ولم يكن بينهم قتلى ، وأصلح عبد الله بن جدعان بين الناس .

هذه الأيام الثلاثة من حروب الفجار الأولى ، يلاحظ أن أسبابها تافهة للغاية ، فرجل يستطيل على الناس ويتحدى مَنْ يضرب رجله ، لأنه أعز العرب ، ويرد عليه آخر يزعم أنه أعز العرب فيضرب رجله بالسيف .

وشبانٌ من قريش وكنانة يتحرشون بالمرأة العامرية سفهاً وطيشاً ، وآخر يحمل قرداً ويشهّر برجل كناني كان قد استدان منه مالًا ولم يسدد ديونه بعد .

وتقع الحروب ، ويصطلح الناس ، وتثور الحمية والعصبية الجاهلية ولمثل هذه الأسباب وغيرها كانت تقع الحروب .

أيام الفجار الثاني[1] :

هاجت الحرب بين قريش ومن معهم من كنانة ، وبين قيس عيلان ، وسببها : أن عروة الرجال وهو من بني عامر كان قد أجار لطيمة للنعمان بن المنذر ، ولما قال له البراض بن قيس الكناني[2] أتجيرها على كنانة ؟ قال : نعم وعلى الخلق كلهم .

خرج عروة الرجال في اللطيمة، وتبعه البراض يطلب غفلته، وفي تيمُن من أرض نجد ، غفل عروة ، فوثب عليه البراض وقتله في الشهر الحرام .

ولما علمت قريش بالخبر وهم في عكاظ ، انسلّتْ وهوازن لا تشعر بها ، ولما علمت هوازن بما حصل تبعتهم وأدركتهم قبل أن يدخلوا الحرم ، واقتتل الفريقان حتى جاء الليل ، ودخلت قريش الحرم وأمسكت عنها

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام ١٨٤/١ ، وانظر الكامل في السير .
(٢) وكان رجلًا خليعاً فاتكاً .

هوازن ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً عديدة ، منها يوم شمطة ويوم العبلاء ، ويوم عكاظ وهو أشدها .

ويذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان قد شهد بعض أيامهم ، إذ أخرجه أعمامه معهم ، وقال عليه الصلاة والسلام ، (كنت انبل على أعمامي) . أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

كان حرب بن أمية قائد قريش وكنانة في هذه الحرب وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة .

قال ابن إسحق : هاجت حرب الفجار ، ورسول الله ابن عشرين سنة .

ويرى ابن الأثير أن الحيين تداعيا إلى الصلح بعد يوم عكاظ ، واصطلحا على أن تُعد القتلى ، وتدفع الديات .

ورهن حرب بن أمية ابنه أبا سفيان يومئذ في ديات القوم حتى يؤديها ، ورهن غيره من الرؤساء ، ثم وضعت الحرب أوزارها .

وقد ذكر الشعراء هذه الحروب في شعرهم .

مثل ضرار بن الخطاب الفهري[1] :

ألم تسأل الناس عن شأننا ... ولم يُثبت الأمر كالخابر
غداة عكاظ إذا استكملت ... هوازن في كفها الحاضر
ففرت سُليم ولم يصبروا ... وطارت شَعاعًا بنو عامر
وفرت ثقيف إلى لاتها ... بمنقلب الخائب الخاسر

---

(١) أيام العرب في الجاهلية : ص٣٣٥ ، « شعاعاً » متفرقين ، لاتها : صنمها .

وفي يوم العبلاء يقول خداش بن زهير[1] :

ألم يبلغك ما قالت قريش　　وحي بني كنانة إذْ أُثيروا
دهمناهم بأرعن مكفهرٍ　　فظل لنا بعقوتهم زئير

هذه حروب الفجار كانت بين قريش وأحلافها ، ضد قبائل قيس عيلان من هوازن ، وثقيف ، ومن هذه القبائل جميعها كانت كتائب المجاهدين تجوب الآفاق ، حاملة راية التوحيد ، فأصبحوا خير أمة أخرجت للناس ، يحملون مشعل الهداية والنور إلى العالم كافة .

(١) المصدر السابق ، ويقصد هنا (بالعقوة : الساحة والمحلة) ، « والأرعن : الأنف العظيم من الجبل ، شبه به الجيش » .

نتـائج وملاحظـات

من خلال دراستنا للشعر الجاهلي في الفصل السابق لاحظنا أن الحياة السياسية تعتمد على **مقومات أساسية** عند العرب في ذلك العصر ، ويمكن أن أوجزها في النقاط التالية :

١ - **العصبية للقبيلة** : كانت القبيلة هي البنية الاجتماعية والوحدة السياسية في تلك المجتمعات ، ففيها كان يجد العربي الحماية والاطمئنان ، وإليها كان يأوي ويتعصب ، فهي الرباط الأقوى في حياته ، والتعصب لقبيلته كان ينسيه كل تعقل وتوازن فلا رأي للفرد أمام عادات القبيلة وتقاليدها ، وإلا تعرض للخلع والطرد .

ولقد نفخت العصبية في أفراد القبيلة نيراناً لاهبة من الحمية ، فهم يرون أنفسهم أفضل الناس ، وآباؤهم أشرف آباء ، حتى أن شاعرهم كان ينسى نفسه ويتصور أنه وقومه ملوك الدنيا المتصرفون الباطشون بلا رادع .

وقد افتخروا بكثرة العدد والعدة ، وتباهوا بالقوة والشجاعة ، وتطاولوا بالجبروت والبطش .

وهذا كله من أهم مقومات تلك الجاهلية ..

والشعر الجاهلي زاخر بهذه المعاني ، ينبض حيوية وقوة .

ولعل هذا المقوم كان من أقوى مقومات الجاهلية عند العرب ، وحوله تدور اهتمامات العربي وفي سبيله تهون الصعاب وتذلل .

٢ - سطوة العادات والتقاليـد :

لم يحتكم العرب في جاهليتهم إلى دين سماوي ، وإنما كانوا يرجعون إلى التقاليد والعادات ، لأن لها سيطرة الدين وقوة العقيدة ، ولا يستطيع الفرد مهما أولىَ من مكانة أن يخرج على هذه العادات .

لقد تاه القوم في ضلالات الجهالة وظلمات التقاليد ، عطلوا من أجلها الأفكار والعقول ، ولذلك سفه الإسلام أحلامهم وحاول أن يحرر عقولهم ، فخلصهم من رواسب هذه القيود .

واستطاع أن يعلو بأتباعه ، في آفاق الإيمان النيّر ، وأن يجعل منهم رجالًا يتحررون من قيود الجاهلية وجواذبها .

٣ - التفرق والتناحر :

من سمات الجاهلية التباغض والتفرق ، إذ لم يعرف العرب وحدة سياسية في تاريخهم الجاهلي ، حتى أن الامارات التي ظهرت في الجزيرة العربية كانت لا تزيد عن كونها قبائل متصارعة مع أمثالها ، ولم ترْقَ إلى فكرة الأمة أو الجنس ، بحيث يجتمع العرب تحت لواء واحد ، إنما اتخذت هذه الإمارات صورة اتحاد قبلي له رئيس ليس غير .

لقد كون المناذرة والغساسنة إمارتين متقابلتين ، اصطنعتهما فارس والروم من أجل ضرب القبائل الأخرى في الجزيرة ، وحمايةً لحدود الدولتين الكبريين من غارات الأعراب في الصحاري المترامية الأطراف .

وكثيراً ما وقعت الحروب الطاحنة بين هاتين الإمارتين خدمةً للأسياد ، وبطشاً وتخريباً وثأراً بين قبائل العرب المتناصرة .

وفى مؤتة حارب مع الروم ما يزيد عن مائة ألف من قبائل العرب أمثال : لخم وجذام وبلي وغيرهم ، إضافة إلى مثلهم من الروم[١] .

أما إمارة كندة ، ومدن الحجاز ، فما كانت إلا تجمعات قبلية سكنت الحاضرة ، ولم تخرج على عادات القبائل وصراعاتها .

---

(١) البداية والنهاية : لابن كثير ٢٤٣/٤ .

وعلى العموم سنرى في الفصل القادم ، كيف جمع الإسلام هذه الأمة ، على هدي الرسالة ، ونور الإيمان ، وأصبحت خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتهى عن المنكر ، وتقيم شرائع التوحيد في العالم كله..

٤ - الحروب والأيام :

لا شك أن العربي كان شجاعاً يفضل الموت تحت ظلال السيوف ، على حياة الذل والضيم .

كانت حياته حرباً قاسية لا تهدأ ، فكثرت الأيام الفاصلة ، والمعارك الدامية ، وصور الشعر الجاهلي هذه الأيام تصويراً حاراً ، إذ مدح الشعراء الشجاعة والشجعان وأشادوا بالفروسية والفرسان ، وبحياة القوة التي عبر عنها زهير بن أبي سلمى بقوله :

ومَنْ لم يذدْ عن حوضه بسلاحه ... يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

ثم كثر الهجاء وشارك في المعارك ، مصوراً الفرار والهزيمة ، وبكى الشعراء قتلاهم ، وندبت النساء الموتى ، وعرف الشعر العربي عدداً من أصحاب المراثي .

وكان لهذه الحروب آثار قوية في حياة القوم : فقد كثر **الأسرى والسبايا** ، مما ساهم في توريث العداوة والبغضاء .

وظهرت عادة **الثأر** قوية متأصلة ، وكثيراً ما سببت حروباً لا تنطفىء ، وقد تلجأ القبائل في هذه البيئة التي يشيع فيها الفزع والهول ، إلى التحالف مع قبائل أخرى لترد عن نفسها العدوان .

ولقد صورت لنا **أيام العرب** - التي تحدثنا عن بعضها - الحياة الحربية ، والصراع الدامي .

هكذا كانت الجاهلية ، وهذه هي مقوماتها ، انطلقت صاخبة لا ترعوي ، مادامت لا تحتكم إلى دين ، وتصر جاهدة على اتباع منهج الآباء والأجداد .

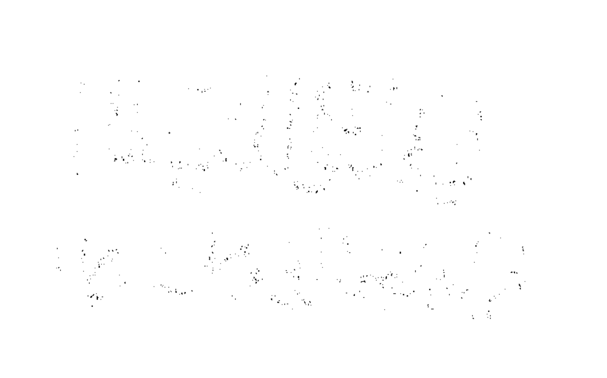
لقد كان العربي في وثنيته مستعبداً لعدد من الأرباب والمعبودات ، فبالإضافة إلى عبادة الأصنام والكواكب كان الفرد ينصاع إلى استعباد القبيلة والعرف والعادة ثم يستسلم إلى الأهواء والشهوات .

وفى الفصل القادم : الإسلام والجاهلية سنرى بإذنه تعالى ، كيف تمكن هذا الدين الحنيف من اقتلاع جذور الجاهلية ، تلك التي رسخت دعائمها مع توالي القرون .

سنرى أن التربية العقدية ، تربية التوحيد الخالص مع الابتلاء والصبر والاحتساب ، قد قوضت مقومات جاهلية شرسة ، وتقاليد عنيدة ، وعصبيات أصيلة وكلما ضعفت هذه العقيدة ، ظهرت رواسب الجاهلية من جديد .

الفَصْلُ الثَّانِي
الإسلام والجاهِليَّة

المبحث الأول : التربية العقدية ودورها في اجتثاث مقومات الجاهلية .
المبحث الثاني : العصبية وموقف الإسلام منها .
المبحث الثالث : وحدة الأمة بعد التفرق والتناحر .
المبحث الرابع : سيطرة العادات واتباع الأهواء من مقومات الجاهلية .
المبحث الخامس : الجهاد في سبيل الله ، بدلًا من الحروب الدامية .



المبحث الأول : التربيـــة العقديـــة

أ – طريقة الإسلام في التربية .
ب – الحب في الله والبغض في الله .
جـ – من آثار هذه التربية .
ء – نماذج من شعر الدعوة الإسلامية .

أ - طريقة الإسلام في التربية

كيف واجه الإسلام الجاهلية ؟ كيف انتشل العرب من أوضارها ؟ كيف انتصر الإيمان على مقومات الوثنية ؟ ما الطريقة التى ربى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى تخلصوا من القيم التي كانوا يقدسونها ، والعادات التي كانوا يخضعون لها .

للإجابة على هذه الأسئلة لابد من العودة إلى منهج التربية الذي رُبي عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو قدوتنا ، ومن الواجب علينا اتباع نهجه .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . الأحزاب : ٢١

إن البداية الأولى في التربية كانت في تصحيح العقيدة ، كانت تعتمد منذ اللحظة الأولى على التوحيد الخالص، فمنذ أن يعلن المسلم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله » . كان انتماؤه يتحول إلى الدين الجديد ، ويتبرأ بعدها من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله[١]

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ سورة البقرة : ٢٥٦ .

وفي الحديث الشريف ،عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله قد أذهب عنكم عُبّيّة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي أو فاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب ، ليدَعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونَنّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن »[٢] . والعبية : الكبر والنخوة .

---

(١) انظر : كتاب الولاء والبراء - د. محمد سعيد القحطاني ، ط أولى ص١٠٤ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ٥/٣٤٠ ح ٥١١٦ ، وأخرجه الترمذي في المناقب وقال : حديث حسن .

بهذا التصوير وبهذا التنفير ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفر أصحابه من رواسب الجاهلية ، فيبتعدون عن مفاخرها وضغائنها . « فقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام ، يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية .

كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلًا كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية .. كان يقف منها موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام .

وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد »[1] .

هكذا كان مفهوم التوحيد ، يتغلغل في حنايا نفس المسلم ، ويتحول إلى واقع حي متحرك ، بعيداً عن المفاهيم الذهنية المجردة والمعرفة العقلية البحتة .

« فالمعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة شيء والمعرفة الحية التي تنبع من الوجدان ، فتنفعل بها النفس كلها ، وتعطي تأثيراً معيناً في السلوك الواقعي شيء آخر ، هي ما يطلبه الإسلام بالذات ، ويستنبته في قلوب المسلمين ليصبحوا مسلمين » .

والحادث الآن في الأجيال القائمة هو هذه الجهالة بالمعنى الحقيقي للاإله إلا الله ... وصلتها الوثيقة (التى لا تنفصم) بالحكم بما أنزل الله « وعندما تستقر هذه الحقيقة في الأذهان ينبغى أن تعمل على تحويل حياتنا كلها لتستقيم على منهج الله في كل شيء ، في سياسة الحكم ، في سياسة المال ، في سياسة المجتمع .. »[2] .

---

(١) معالم في الطريق : سيد قطب ص ١٩-٢٠ / طبعة دار الشروق التاسعة .

(٢) منهج التربية الإسلامية : محمد قطب ، ٢٨/٢، ٨٣ الطبعة الثانية دار الشروق .

إن المسلم إذا تمكنت عقيدة التوحيد من نفسه ، فلابد أن يتبرأ من المشركين وما هم عليه .

« إنه لا يستقيم للإنسان إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض[1] . كما قال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ المجادلة :٢٢.

وفي الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » .

قال أبو بكر رضي الله عنه عندما عزم على قتال المرتدين وقيل له : كيف نقاتلهم وقد قال رسول الله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ قال الصديق رضي الله عنه : فإن الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه »[2] .

« إن بني حنيفة من أشهر أهل الردة ، وأعظمهم كفراً وهم مع هذا يشهدون : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويؤذنون ويصلون ... »[3] .

« ولو كانت كلمة لا إله إلا الله مجرد كلمة لقالتها قريش في الجاهلية ، إلا أنها تعلم أن لها مقتضياتها .. فكفار مكة قد علموا مراد النبي

---

(١) انظر : مجموعة التوحيد ، وستة مواضع من مقدمة مختصر السيرة النبوية للشيخ محمد بن عبد الوهاب .

(٢،٣) انظر : مختصر السيرة النبوية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٠-٣٢ توزيع رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد /الرياض .

عليه الصلاة والسلام من هذه الكلمة (لا إله إلا الله) ، فأبوا واستكبروا ولم ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محيي مميت ، ولما قال لهم النبي قولوا : لا إله إلا الله قالوا[1] : ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ سورة ص : ٥ .

فالرسول صلى الله عليه وسلم بدأ بغرس عقيدة التوحيد ، ومعاني الإيمان الخالص ، مع اجتثاث كل رواسب الجاهلية ، من نخوة وحمية وتعلق قلوب العرب بذلك ، في أحاديثه الشريفة وخطبه الكريمة، إذ وضع كل مآثر الجاهلية تحت قدميه بعد فتح مكة « ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ... »[2] .

وفى فصل : لا إله إلا الله منهج حياة ، يتحدث المرحوم سيد قطب عن هذا المفهوم بقوله : « ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة »[3] .

﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ سورة يوسف : ٤٠ .

إن الإصرار على صفاء التوحيد ، ونقاء العقيدة ، مع انتزاع رواسب الجاهلية ، كان من أهم مقومات التربية المحمدية في دار الأرقم ، وفي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما تزال هي الطريقة الوحيدة ، لكل تربية

---

(١) المرجع السابق .

(٢) مختصر السيرة النبوية : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٤٦ .

(٣) معالم في الطريق ص ٩٢ .

جادة ، تريد أن يعود للمسلمين مجدهم بعيداً عن العبث واللهو ، أو التسول على فتات تربية الشرق والغرب ، باسم الإسلام حيناً وضغوط العصر الحاضر ومدنيته حيناً آخر .

ب - الحب في الله والبغض في الله

شهدت مكة المكرمة ولادة المجتمع الإسلامي ، الذي قام على أنقاض مجتمع الجاهلية ، ثم اكتملت صورة هذا المجتمع بعد الهجرة إلى المدينة المنورة ...

وهكذا تشكل مجتمع العقيدة على الحب بين المؤمنين ، والأخوة بين المسلمين .

إن الحب الخالص بين المؤمنين ، هو الذي كان يحرك حياة المؤمن هو الذي كان مفتاح التربية الإسلامية ، ونقطة ارتكازها « والأخوة هنا.. حيث لم تكن هناك - في الجاهلية - أخوة الترابط الصادق ، كانت هي الخطوة الأولى في التربية ، هي حب الله ورسوله ، والخطوة الثانية : هي الالتقاء على حب الله ورسوله ، « حيث يلتقى الناس على العقيدة في الله .. لأن كلًا منهم يحب الله ورسوله ، فلا تكون ذواتهم بارزة.. إنما يكون الجانب البارز هو الحب ... بل إن الإنسان المؤمن كان يحب أن يؤثر أخاه على نفسه ... وذلك من معجزات العقيدة ، ومعجزات التربية على العقيدة ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . الحشر : ٩ « وكان يغيظ قريشاً ، ويثير عجبها محبة أصحاب محمد لمحمد ، حتى قال أبو سفيان : « ما رأيت أحداً يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمداً »[١] .

---

(١) منهج التربية الإسلامية : الأستاذ محمد قطب ٢/٣٧-٤٢ .

إن هذه المحبة بين المؤمنين من لوازم لا إله إلا الله ، والبراءة من المشركين من لوازمها أيضاً ، يقول تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ . آل عمران :٢٨ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله ، والمعاداة في الله ، والحب في الله والبغض في الله »[١] .

روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله بايعه على أنْ « تنصح للمسلم وتبرأ من الكافر »[٢] .

وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المرء مع مَنْ أحب »[٣] .

« فأصل الموالاة الحب ، وأصل المعاداة البغض ، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة ... كالنصرة والأنس والمعاونة والجهاد والهجرة ونحو ذلك »[٤] .

ويتضح مما سبق أن الولاء في الله هو محبة الله ونصرة دينه ، ومحبة أوليائه ونصرتهم ، والبراء هو البغض لأعداء الله ، ومجاهدتهم[٥] .

فموالاة المشركين خطيرة ، كان الجيل الأول ينفر منها ويتقرب إلى الله بهذا النفور ، أما موالاة المؤمنين ومحبتهم فهي من علامات الإيمان .

---

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ٣٤٣/٢ ح ٢٥٣٦، وقال الألباني : حديث حسن .
(٢) مسند الإمام أحمد : ج ٣٥٧/٤ .
(٣) فتح الباري : كتاب الأدب ، ٥٥٧/١٠ ، ح/٦١٦٨ .
(٤) الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ .
(٥) الولاء والبراء : القحطاني ص ٤٣ .

ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي »[1] .

هكذا كانت التربية ، تقوم على المحبة والتآخي ، والإيثار والتضحية ، بين المؤمنين من أتباع الدعوة الجديدة .

كانت تعتمد على البراءة من المجتمع الجاهلي وأتباعه ، ولو كانوا من الأهل والعشيرة .

وبهذه التربية يمكن لدعاة الإسلام وعلمائه ، أن يعيدوا للمسلمين ذلك الحب الصافي ، فلا يبقى بعد ذلك لعيش الجاهليةَ أثر ، ولا للتباغض والأنانية بقية .

فالتربية المطلوبة اليوم ، هي تطبيق عملي للتصورات الإيمانية وليست كلاماً يقال ، ولا نظريات تسطر على الورق .

وإلا فأين التآخي الصادق ؟ وأين المحبة والإيثار ؟ وها هي مجتمعاتنا تشكو من فقد هذه الأخلاق ... إذكم من المشردين المسلمين ، يهيمون على وجوههم هرباً بدينهم من نيران الجاهلية المعاصرة ؟! وقد لا يجدو ن لهم معينا ولا نصيراً ؟ من أولئك الذين لم تخالط بشاشة العقيدة قلوبهم بعد .

إن تأصيل هذه التربية العقدية ، واجب شرعي ، وضرورة ملحة ، وإن تطبيق هذه التربية في عالم الواقع بات أمراً لازماً ، إذا أردنا التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بطريقته في البناء .

وهذه هي دعوة الأنبياء جميعاً ، كانت تقوم على التوحيد الخالص ، كلمة واحدة كان يرددها كل رسول « لا إله إلا الله » و« اعبدوا الله ، ما

---

(١) صحيح مسلم : ك البر الجزء الرابع / الحديث ٢٥٦٦ / .

لكم من إله غيره ﴾ وعلى البراءة الخالصة من الشرك في جميع أشكاله وألوانه ، حيث كان يتبرأ الأنبياء من الشرك بكل أشكاله فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يتبرأ من عبادة قومه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ سورة الممتحنة : ١٤ .

ولا بد من التأسي بخاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء به ، في كل ما جاءنا به .

فرسول الله وإخوانه الأنبياء كانوا نماذج الهدى لجميع الناس في كل أمر من أمور حياتهم ومماتهم ، فأوجب الله طاعتهم واتباع أوامرهم[1] .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

جـ - من آثار هذه التربية :

كانت التربية العقدية ، نموذجاً فريداً ، تخرج عليها جيل الصحابة رضي الله عنهم ، أولئك القمم الشامخة ، الذين ارتفعوا فوق جواذب الجاهلية ، وأصبح ولاؤهم لمجتمع العقيدة الوليد ، سواء في مكة المكرمة ، محضن الابتلاء والصبر والتعذيب ، وتعميق أسس البنيان المبارك ، أو فى المدينة المنورة ، حيث الأخوة والإيثار والجهاد في سبيل الله ، ونشر رايات الدعوة في أنحاء الأرض .

كانت تربية واقعية طبقت ، فتحقق على هديها ميلاد جيل جديد من البشر .

---

(١) انظر : منهج الأنبياء في الدعوة : الأستاذ محمد سرور زين العابدين : الجزء الأول .

تُرى ماذا لو فكر الدعاة في تطبيقها في عصرنا الحاضر ؟! وغرسها من جديد في نفوس الأجيال الناشئة ؟! هلّ تخلصت الأجيال المعاصرة مما هي فيه من خلل واضطراب كي تعيد للمسلمين الواقع الحيّ النظيف ؟!

إننا نتكلم في النظريات بعيداً عن الواقع ، إن نظرة بسيطة إلى النماذج القليلة من سيرة السلف الصالح – وحصرها صعب – في كتب السيرة ، فهي زاخرة بعطرها الفواح ، ترينا أنّ التربية امتزجت بالعقيدة ، وبالسلوك ، والتضحية والإيثار ، الخروج على تقاليد كانت راسخة عند الآباء والأجداد .

نذكر بعض هذه النماذج عسى أن تكون نبراساً لأجيال اليوم ، يضيء لها ظلمة الطريق .

كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، من السابقين الأولين في الإسلام ، وكان باراً بأمه حمنة بنت أبي سفيان قالت له أمه : ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعيّر بذلك أبد الدهر ، فيقال : يا قاتل أمه !

وبعد يومين وليلتين من امتناعها عن الطعام والشراب ، جاء إليها سعد وقال : يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني ، فكلي وإن شئت فلا تأكلي ، فلما أيست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ . سورة لقمان : ١٥ .

وأُمر بعدم طاعتهما في الشرك ، لأنه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[١] .

(١) حديث صحيح : مشكاة المصابيح – ح/٣٦٩٦ الجزء الثانى / ١٠٩٢/٢ ، والقصة وردت في تفسير البغوي ١٨٨/٥ .

لقد ارتفع سعد رضي الله عنه بإيمانه ورغم بره بأمه ، ضحى بها لو ماتت جوعاً وعطشا ، وعلى أن يساوم على عقيدته . هكذا يفعل الإيمان فعله في النفوس ، فترتفع في آفاق عالية ، ما تزال البشرية تنظر إليها بأنظار الإعجاب والإكبار .

ومثله أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، كان خير نموذج لتربية دار الأرقم ، عندما رد جوار ابن الدغنة ليبقى في جوار ربه ، وقد كاد أن يشرف على الموت ، إذ ضُرب ضرباً شديداً ، وكان أول ما قال عندما تكلم آخر النهار : ما فعل رسول الله ؟ ورفض الطعام والشراب حتى يطمئن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما رآه صحيحاً معافىً في دار الأرقم اطمأنت نفسه رضي الله عنه[1] .

كاد الصديق أن يفارق الحياة ، فهو مثخن بالجراح ، إلا أنه رفض الطعام والشراب حتى يطمئن على حياة رسول الله قائد هذه الدعوة ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

إن الأمثلة كثيرة ، وعبيرها فواح ، ما أجدر شباب هذه الأمة أن يطلعوا عليها ثم يتمثلوها في سلوكهم وتصرفاتهم :

قدم أبو سفيان – وهو زعيم قريش وقائدها أنذاك – على ابنته أم حبيبة – أم المؤمنين – رضي الله عنها – فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ، طوته عنه ، فقال يا بنية : ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عني ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، فقال : والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر »[2] .

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ، ٣٠/٣ – طبعة دار الفكر بيروت ١٩٧٨ .

(٢) « السيرة النبوية لابن هشام ٣٩٦/٢، ط ٣ ، مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٥ هـ .

هكذا تبرأت أم المؤمنين من أبيها ، وهو سيد قريش ، ثم تقول له : وبكل صراحة : إنك مشرك نجس .

فما أجدر بنات اليوم ، وأمهات أجيال عصرنا الحاضر بالقدوة الطيبة ، ومفاصلة المشركين ولو كانوا ذوي قربى .

وقصة الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي ، وموقفه من ملك الروم ، مثال رائع فى التضحية بالنفس والنفيس .

لقد كان أسيراً ، فرفض أن يتنصر ، أو أن يطلق سراحه وحده مقابل بعض التنازلات ، وكان ملك الروم قد أغراه بمشاطرته ملكه فرفض ، وهدده بالقتل والحرق فأبى أن يتنصر وهو الأسير المجاهد ...

ما الذي جعل هذا الصحابي الجليل يتعالى على ملك الروم ، وقد كان بالأمس ، كل عربي يتمني الدخول إليه ؟ ويعد ذلك من الحظوة والسعادة .

إن عزة الإيمان هي التي ارتفعت بنفس الصحابي الجليل ، وبنفوس ذلك الجيل جيل القمة السامقة[1] .

أما موقف أبي عبيدة بن الجراح فقد كان أعجب وأعظم ، لقد قتل أباه في بدر ، لأنه كان كافراً محارباً لله ولرسوله ، ولم تمنعه صلة الأبوة من ولائه ونصرته لله ولرسوله ، والمؤمنين ، وفيه نزلت الآية الكريمة : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ .

إن هذا الموقف ، تتضاءل أمامه النفوس ، وتتراجع التضحيات ، إنه تجرد خالص للعقيدة الجديدة ، براءة جادة من المشركين أياً كانوا .. كم نحن بحاجة إلى التأمل في هذه المواقف ، كم يحتاج الدعاة المسلمون إلى تمثل هذه

(١) انظر : الإصابة لابن حجر العسقلاني – ٢/٢٨٨ ط دار الكتاب العربي ، بيروت .
(٢) المصدر السابق ٢/٢٤٤ .

القيم ، ثم غرسها بصدق في نفوس الشباب الناشيء ، على نهج كتاب الله وسنة رسوله ، وسلوك السلف الصالح .

إن الصبر والابتلاء ، كانا سمة الفترة المكية ، في بطحاء مكة ووديانها ، ما تزال شاهدة على أماكن تعذيب خباب وصهيب وبلال ، وآل ياسر ، رضي الله عنهم أجمعين .

وها هو شعب أبي طالب ، ما يزال رمز الحصار والمقاطعة رمز التجويع والاضطهاد ، من معسكر الشرك للمؤمنين الصادقين ، عبر الآلام والتضحيات ، بكاء الأطفال الجياع .

لولا التربية القرآنية ، والتضحية في سبيل الله ، لولا حب الله ورسوله ، ما كان هذا الصبر العجيب ، وما تكوّن ذلك الجيل الفريد .

هذا الجيل كان منهجه التلقي من الكتاب والسنة ، تلقياً يترجم إلى تنفيذ وعمل ، في نفوس صافية ، وعزائم صادقة .

أما منهج التلقي الذي يكون مبعثه الدراسة والمتاع الفكري ، فلن يتخرج عليه إلا أجيال لاهية عابثة متخاذلة .

بهذه الصورة المشرقة ، تكونت القاعدة الصلبة من المؤمنين ، واستطاعت أن تقاوم الجاهلية بكل ضغوطها وأوضارها وتفاهاتها .

ثلاثة عشر عاماً في مكة المكرمة ، ودروس العقيدة ترسخ هذا البنيان العظيم الشامخ ، على يدي خير البرية ، قائد هذه الدعوة محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

وعلى طريق هذه التربية ، يُفترض أن يسير دعاة الإسلام الصادقون ، دعاة التغيير الجاد في العصر الحاضر .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[1] :

وفي المدينة المنورة ، استقبل الأنصارُ إخوانهم المهاجرين وشاطروهم الديار والأموال ، ثم بذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله ، وقد أصبح حب الأنصار جزءاً من عقيدة الإسلام ، وبات بغضهم نفاقاً يزري بصاحبه . وفي الحديث الصحيح : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار »[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر : ٩ .

بهذه الأخوة قام المجتمع المسلم في المدينة المنورة ، وضرب مثلًا رائعاً في التكافل الاجتماعي ، وبناء الجماعة المسلمة ، لقد شاطر الأنصار إخوانهم المهاجرين المال والديار بكرم وسخاء ، كانت المؤاخاة رباطاً قوياً متيناً جمع المهاجرين والأنصار ، بما يترتب على ذلك من حقوق وصلت بل تساوت مع حقوق الأخوة في النسب .

إن التآخي تجاوز النظريات إلى التطبيق الودود والمحبة الصادقة ، إن المؤمن المغترب بدينه ، يشعر بفرحة عجيبة تنسيه آلام معاناته من الجاهلية التي تطارده ، وفراقه لدياره وأهله وعشيرته ، إذا شعر أنّ إخوته في العقيدة ، وقفوا إلى جانبه يمسحون عنه آلامه ، ويخففون عليه من جراحه .

---

(١) انظر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار : سيرة ابن هشام ٥٠١/١ وما بعدها والولاء والبراء ص ١٩٣ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب الإيمان ٦٢/١ ج ١٧ .

لقد نشأ المجتمع المدني قوياً ، يتحدى ضغوط الواقع الجاهلي ، حصيناً من نزغات الدنيا وجواذبها ، وروابط العصبية والأهل والعشيرة إذا وقفت أمام عقيدته الجديدة .

واليوم : كيف يستطيع المؤمنون أن يتخلصوا من ضغوط الجاهلية المعاصرة ؟! إذا لم يرتفعوا إلى هذه المعاني السامية من التاخي الصادق ، والتعاون بلا منّة ولا إحراج ؟!

إن التآخي يجب أن يخرج من عالم النظرية إلى عالم التطبيق .. وبذلك يستطيع المسلمون في أيامنا هذه أن يعيدوا للمسلمين ماضيهم ، أو أن يضعوا لبنات في الطريق من أجل العودة إلى ذلك الماضي المشرق .

« إن الإسلام كان قد صنع من العرب نماذج فريدة ، أنكر الفرد فيها نفسه ، وقطع صلته بأبيه وبابنه ، وهجر المال والمتاع ، وأصبح له طريق جديد ووجهة جديدة ، أصبح يحس لتوه بالافتراق عن مجتمعه الجاهلي ، أو أنه يسير في طريقه المحدد والمجتمع يهيم في غير طريق ... وتنقطع الأواصر بينه وبين ذاك المجتمع ، ولو كانت أواصر القربى ، ويتجه قلبه لتوه إلى كيان آخر يلتصق به ويحس أنه أصبح قطعة منه ذلك هو رسول الله والقلة المؤمنة معه »[1] .

د - شعر الدعوة الإسلامية :

ساهم شعراء الدعوة الإسلامية ، في الدفاع عن الدعوة الجديدة ، مستلهمين المعاني والتصورات من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومن القيم التي أرساها الدين الجديد .

---

(١) منهج التربية الإسلامية : ٣٦/٢ بتصرف يسير .

إن أغراض الشعر من فخر وهجاء ، ورثاء وحماسة ، تغير مفهومها من الإطار القبلي الضيق ، والقيم الجاهلية المحدودة ، إلى آفاق عالية ، وتصورات نيرة ..

لقد صهر الإسلام أتباعه ، فتغير مفهوم الشعر عندهم وأصبح وسيلة للتعبير عن هذه القيم الجديدة .. وللدفاع عنها ومهاجمة قوى الشرك وشعرائه .

والشعر الذي قيل في صـدر الإسلام كثير ، يكفي أن نراجع السيرة النبوية لابن هشام ، فبعد الحديث عن كل معركة تجد زاداً زاخراً من هذا الشعر ، وكذلك الأمر في تراجم الصحابة كالإصابة والاستيعاب فتسجد أن الشعر يسيل على كل لسان .

وطبيعي أننى لا أريد التأريخ لشعر الدعوة الإسلامية وإنما أود أن أقول : أن هذه الدعوة صهرت المؤمنين ، وربتهم تربية ظهرت على شعرهم ، الذي ذبوا فيه عن حياض الدعوة وقيمها ورجالها .

إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يفتخر بالسبق إلى الإسلام إذ يقول[1] :

سبقتكم إلى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حلمي

ويفتخر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بأنه أول من رمى بسهم في الإسلام[1] .

---

(١) انظر : شعر الدعوة الإسلامية فى عهد النبوة ، والخلفاء الراشدين ، مطبوعات الرئاسة العامة للمكتبات والمعاهد العلمية ٣١٩٧١ ، جمع وتحقيق : عبد الله الحامد .

(١) الإصابة لابن حجر : ٣٢/١ . ط : دار الكتاب العربي بيروت .

ألا هل أتى رسول الله أني حميت صحابتي بصدور نبلي
أذود بها أوائلهم ذياداً بكل حزونة وبكل سهل
فما يعتدُّ رامٍ في عدوٍ بسهم يا رسول الله قبلي

وخير ما يمثل هذا التغير في الشعر العربي شعراء الأنصار رضي الله عنهم ، حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك الأنصاري .

فبعد أن كان هؤلاء الشعراء يدافعون عن أحساب قبائلهم ومفاخرهم وأيامهم في موقعة سُمير وبُعاث وغيرهما (كما رأينا نماذج من ذلك خلال حديثنا عن أيام الأوس والخزرج) نجد أن حسان بن ثابت رضي الله عنه ، يفتخر بالمسلمين ، يعتز بالوحي ينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبكتيبة المؤمنين من المهاجرين والأنصار عند فتح مكة[1] :

عدمنا خيلنا إنْ لم تروها تثير النقع موعدها كداء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم يعز الله فيه مَنْ يشاء
وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

ثم يتحول هجاؤه رضي الله عنه إلى المشركين ، دفاعاً عن رسول الإسلام وصحابته الكرام ، فيقول مخاطباً أبا سفيان بن الحارث القرشي الهاشمي ، لأنه شاعر المشركين وقد اشترك في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) ديوان حسان بن ثابت : ص ٩٦/ط دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ .

ألا أبلغ أبا سفيان عني　　فأنت مجّوف نخبٌ هواء(١)

بأن سيوفنا تركتك عبداً　　وعبد الدار سادتها الإماء(٢)

هجوتَ محمداً فأجبت عنه　　وعند الله في ذاك الجزاء

هجوت مباركاً براً حنيفاً　　أمين الله شيمته الوفاء(٣)

فإن أبي ووالده وعرضي　　لعِرض محمد منكم وقاء

رضي الله عن حسان ، فبعد أن كان يذب عن أمجاد الخزرج في الجاهلية ، إذا به يتحول إلى الدفاع عن المسلمين ، ويفدي الرسول الكريم بالنفس والعرض والأهل .

وهكذا يصنع الإسلام في النفوس الصافية ، إذ تتغير المفاهيم وتنقلب الموازين ، إنها التربية الإيمانية ، تربية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وكفى .

أبو سفيان هذا – مهجو حسان – أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ثم ندم على ما فرط في جاهليته وقال(٤) :

لعمرك إني يوم أحمل راية　　لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله　　فهذا أواني حين أُهدى وأَهتدي

والإسلام يجب ما قبله ، ورحمة الله واسعة وقد وقف ابن سلّام عند ابن رواحة وتحدث عن حسن إسلامه ، وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مؤتة ، ومما قاله في هجاء قريش(٥) :

---

(١) مجوف نَخِبٌ هواء : أي جبان لا قلب له .

(٢) عبد الدار : بطن من قريش .

(٣) الحنيف : الذي يدين بالحق .

(٤) ابن سلّام : طبقات فحول الشعراء – تحقيق محمود محمد شاكر،طبعة المدني في القاهرة .

(٥) ابن سلّام : ص ١٨٨ طبعة دار المعارف .

نجالد الناس عن عُرض فنأسرهم ... فينا النبي وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنا ليس غالبنا ... حيّ من الناس إن عزوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إن الله فضلكم ... على البرية فضلًا ما له غيَرو

وفى الرثاء بكى شعراء الدعوة الإسلامية شهداء المجتمع الجديد ، ولنستمع إلى أبيات من قصيدة كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه وهو يرثي فيها شهداء مؤتة بقوله[1] :

نام العيون ودمع عينك يهمل ... سحاً وكف الطبابُ المخْضَلُ
في ليلة وردت علي همومها ... طورًا أخِنُّ وساعة أتململُ
واعتادني حزن فبت كأنني ... ببنات نعشُ السّماك موكّل
وجداً على النفر الذين تتابعوا ... يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

وبذلك يتلاحم المجتمع الإسلامي ، فخراً ورثاء ومؤاخاة وتكافلًا ، فقد أصبح المثل الأعلى للمسلم في عصر صدر الإسلام هو السبق إلى الإسلام ، والهجرة إلى دار الهجرة ، وملازمة المصطفى صلى الله عليه وسلم وصحبته ، ومن ثم التورع والتقوى والشجاعة والزياد عن حياض الإسلام .

وفي ختام هذا المبحث « التربية العقدية » :

يتبين لنا أن هذه التربية أمر لابد منه ، لابد من العودة العميقة والمعايشة الودودة مع تلك الأساليب ، إن هذه التجربة صنعت جيل المعجزات ، جيلًا تمكن من الارتفاع فوق جواذب الجاهلية ، وظلمات الانحراف منذ أجيال وأجيال .

---

(١) انظر : السيرة لابن هشام ٣٨٥/٢ وشعر الدعوة الإسلامية / الحامد الغريب : « الطباب : سير بين خرزتين في المزادة . والخضل : الرطب الخنين : حنين ببكاء . » .

« ومسلم اليوم : مهمته خطيرة ، لأنه لا يطلب منه أن يكون مجرد مسلم عادي ، إنما يطلب منه أن يكون نموذجاً يحتذى .. يلزمه تدريب من نوع خاص ، يتعود فيه على التخفف من جواذب الأرض ... والمطلوب في جيل البناء والتأسيس أن يكون على الدرجة العليا من الإيمان ... .

المطلوب نماذج فائقة من البشر ... تستطيع أن تتجرد لله وأن تحتمل المشقة في سبيل الله »[1] .

إن هذه العقيدة ، وتلك التربية ، هي التى خلصت العربي الأول من الشرك ، والعصبية ، والهوى والانحراف ثم جعلت من العرب أمة ذات شأن يذكر .

وهذا ما سوف نتحدث عنه في المباحث القادمة إن شاء الله تعالى .

---

(١) منهج التربية الإسلامية : محمد قطب/٢/٦٥، ٦٧/ بتصرف يسير .

المبحث الثاني
العصبية القبلية وموقف الإسلام منهـا

أ – قوة العصبية وسيطرتها في المجتمع الجاهلي .

ب – كيف قضى الإسلام على هذه العصبية .

جـ – عودة العصبيات من جديد :

١ – في حروب الردة .

٢ – في العصر الأموي .

٣ – الشعوبيــة .

٤ – القومية والوطنية .

العصبيـــة القبليـــة

كيف عالج الإسلام هذه العصبية ؟ وكيف عمل على تذويبها ؟ سؤال مهم يطرح نفسه ، لأن هذه القضية كانت من أخطر القضايا التي تسير أبناء القبائل ، حيث كان الفرد يبدو مسلوب الإرادة ، مشلول التفكير ، أمام عبوديته لطغيان قبيلته .

صحيح أن المرء ما كان يجد الأمن والاستقرار إلا في رحاب هذه القبيلة ، لأنها البنية الاجتماعية المعتبرة آنذاك ، في صحراء مترامية الأطراف ، ينعدم فيها النظام والعدل ، فلا سلطة تحفظ الأمن ، ولا دولة تضبط الأمور .

إلا أن هذا لا يعتبر مبرراً كافياً ، حتى يلغي الفرد عقله ويسير حسب أهواء القبيلة وضغوطها .

وفى الفصل السابق ، استعرضنا كثيراً من الشعر الذي يصور الحياة القبلية ، والتعصب إلى ميراث الآباء والأجداد .

وذلك ما جعل قبيلة قريش ، تقف متجبرة أمام انتشار دَعْوة الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم .

كان الصراع حاداً بين قيم الإسلام الجديدة ، ومعاني التوحيد الخالص ، وبين دفاع قبائل العرب عن موروثات الآباء والأجداد ، بأهواء وتقاليد بالية ، دون حجة ولا عقل مستنير ، مما يبين لنا مدى سيطرة العصبية في المجتمع الجاهلي .

أ - قوة العصبيـة وسيطرتها في المجتمع الجاهلي :

إن ضغوط العصبية على زعماء قريش ، وقبائل العرب منعتهم من اتباع الحق في فجر الدعوة السماوية ، رغم قناعة كثير منهم بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته إلا أن ضغط الواقع كان له تأثيره آنذاك ، وما يزال كلما ضعفت العقيدة ، وزاغت الأبصار عن الحق .

ذكر الزهري : أن أبا جهل وجماعة معه ، وفيهم الأخنس بن شريق ، وأبو سفيان ، استمعوا قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم في الليل ، فقال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : تنازعنا نحن بنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا (أو تحاذينا) على الركب وكنا كفرسي رهان . قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذا؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه »[1] .

استمع هؤلاء النفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال ، وهو لا يعلم أمرهم ، ثم يعاودون الاستماع ويتعاهدون على عدم العودة ... إلا أن القرآن كان يستهوي نفوسهم ، وهفت إلى شفافية آيات كتاب الله ، لكنّ العصبية (وجبروتها) تحمل أبا جهل ومَنْ معه على اتخاذ هذا الموقف المعاند .

ماذا لو حكّم هؤلاء الزعماء عقولهم ، وسليقتهم العربية فيما استمعوا إليه ؟ ماذا لو تحرروا من عبوديتهم لمفاخر الماضين وترهاتهم ؟! .

ويقتل أبو جهل في بدر ، ويصعد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فوق جثته وهو يحتضر ، وسأله : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال أبو

---

(١) انظر السيرة النبوية : ابن هشام : ١/٣١٥ .

جهل : وهل فوق رجل قتله قومه ؟ « أي ليس عليه عار » . لأن قومه قتلوه[1] عصبية حتى الموت ، لا تثريب على أبي جهل أن يقتله أناس من قريش إنه ينظرّ للعصبية ، وهو هالك .. .

وإسلام عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، دليل آخر على قوة العصبية في نفوس القوم .

قال ابن إسحق : مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا ، فآذاه ونال منه ، ورسول الله ساكت ، فقام رسول الله ودخل المسجد ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا تسمع ما يقول أبو جهل : فأخبرت حمزة بن عبد المطلب ، وقد مر بها ، فغضب ودخل المسجد ، وأبو جهل جالس في نادي قومه فقال له الحمزة أتشتم ابن أخي وأنا على دينه ؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة ، فثار رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ، فعلمت قريش أن رسول الله قد عز وامتنع .. فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه »[2] .

إن أعراف القبيلة ، وتأثير القرابة ، وعصبية الدم كل ذلك كان من أسباب إسلام حمزة رضي الله عنه .

وإن حماية أبي طالب لرسول الله ، ثم دعوته بني هاشم وبني المطلب لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعتبر من هذا القبيل ، وكذلك حصار بني هاشم مؤمنهم وكافرهم في الشعب « وأن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموهم للقتل » وقد لبثوا في شعب أبي طالب ثلاث سنين »[3] .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٦٣٥/١ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٢٩٢/١ .
(٣) مختصر السيرة النبوية : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٨-٦٩ .

الإسلام استفاد ولا شك من رابطة القبيلة في نشر الدعوة ، ولا مانع من استخدامها مظلة واقية ضد نيران مجتمع متعصب ، بشرط أن تبقى الهيمنة لتصورات الإسلام وأصوله .

وتبين لنا قصيدة أبي طالب اللامية ، مدى قوة رابطة العصبية رغم اختلاف المعتقد ، وكيف ساهم أبو طالب في حماية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، انظر إليه وهو يقول[1] :

١ – ونسلمه حتى نصرع حوله ونُذهل عن أبنائنا والحلائل
٢ – وأبيض يُستَسْقَى الغمام بوجهه ربيعُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ
٣ – فوالله لولا أن أجيء بسبةٍ[2] تجُر على أشياخنا في المحافل
٤ – لكننا اتبعناه على كل حالةٍ من الدهر جداً غير قول التهازل

كان من العار عند العرب ، ألا ينصر القريب قريبه ، ولو خالفه في المعتقد ، ومن هنا وقف أبو طالب من ابن أخيه عليه أفضل الصلاة والسلام هذا الموقف المشرّف .

« فقد كان لزاماً على العربي أن يقوم بنصرة الأخ وابن العم أخطأوا أم أصابوا ، عدلوا أم ظلموا ، بمعنى أن الرجل كان يلحقه العار إذا قعد عن نصرة أخيه أو ابن عمه ... ولذلك قالوا : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، وكان هذا من حكمة الجاهلية ، فالنصرة عندهم هي الإعانة على الغير ، أما في الإسلام فقد اعتبر من ضمن النصرة نصيحة الظالم لرده عن ظلمه ... »[3] .

أما الإسلام فقد حرم نصرة الظالم ففي الحديث الشريف :

---

(١) القصيدة في السيرة النبوية لابن هشام : ١/٢٧٢–٢٨٠ ، وفى طبقات فحول الشعراء : ١/٢٤٤ البيت الثاني .

(٢) وفى رواية أخرى وردت (بسنة) .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي : ١/٦٥ د. حسن إبراهيم حسن .

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . قيل يا رسول الله .. فيكف أنصره ظالماً ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه »[1] .

نفر الدين الحنيف من إعانة العشيرة على الباطل ، وصور ذلك الفعل القبيح تصويراً مؤثراً .

يقول صلى الله عليه وسلم : « مثلُ الذي يُعين عشيرته على غير الحق ، مثلُ البعير ردي في بئر فهو يُنزعُ بذَنَبه »[2] .

كان لهذا التنفير أثره في نفوس المؤمنين ، إذ تخلصوا من رواسب العصبية ، وانصهروا في المجتمع الجديد ، مجتمع المحبة والتآخي والمودة .

ب - كيف عمل الإسلام على تذويب العصبية :

كانت روح العصبية قوية مسيطرة في المجتمع الجاهلي ، وقد وقفت تصارع المؤمنين في مكة المكرمة ، وفي أنحاءالجزيرة العربية ، صراعاً مريراً لا هوادة فيه .

فكيف استطاع الإسلام أن يجتث هذه الروح ؟ وما الوسيلة الناجحة لاجتثاثها كلما تمكنت من نفوس الناس في أيامنا الحالية ؟!

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بغرس رابطة العقيدة، واستمر يعمق في هذه الوشيجة في نفوس المؤمنين من أتباع الدين الجديد ، ثلاثة عشر عاماً في مكة المكرمة ، وسنوات ما بعد الهجرة إلى المدينة المنورة .

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٠١/١ ، وفي سنن أبي داود ١٧/٧ ، مختصر المنذري وقد سكت عنه المنذري .

إن التربية العقدية ، والتى تُرجمت إلى سلوك عملي هي أساس كل تغيير مطلوب[1] .

« إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين ، ليست وشيجة الدم والنسب ، وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، ولا الجنس والعنصر ، ولا الحرفة والطبقة ، إنها وشيجة العقيدة » .

« أما الوشائج الأخرى ، فقد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ... وهذا ما بينه الله جلت عظمته لنبيه نوح عليه السلام ، فلماذا لا يكون ابنه من أهله « إنه عمل غير صالح » ، فوشيجة الإيمان قد انقطعت بين الأب وابنه « فلا تسألن ماليس لك به علم » ، إنه ليس من أهلك يا نوح ولو كان هو ابنك من صلبك »[2] .

وامرأة فرعون التى طلبت من ربها أن ينجيها من فرعون وعمله ، وأن ينجيها من القوم الظالمين : « إنها امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية ، وقفت وحدها وسط ضغط المجتمع وضغط القصر وضغط الملك وضغط الحاشية ، ورفعت رأسها للسماء ! إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر »[3] .

وفى الحديث الشريف : « من قاتل تحت راية عُميَّةٍ يغضب لعصَبة أو يدعو إلى عصبة ، أو ينصر عصبة ، فقُتِل فَقِتْلةٌ جاهليةٌ »[4] .

---

(١) انظر : مبحث التربية العقدية ص١٠٥ .

(٢،٣) في ظلال القرآن : سيد قطب ١٨٨٦/٤ ، ٣٦٢٢/٦ ط دار الشروق .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢٣٨/١٢ ، والعمية هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه .

وقال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ . المجادلة : ٢٢ .

قال أهل العلم في سبب نزول هذه الآية : إنها نزلت في أبي عبيدة حين قتل أباه يوم أحد ، وفي أبي بكر حين دعا ابنه للمبارزة يوم بدر ، وفي عمر حيث قتل خاله .. العاص بن هشام يوم بدر ، وفي علي وحمزة حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر »[١] .

هكذا زالت رابطة القرابة ، وعصبية القبيلة ، فقاتل القريب قريبه ، بل قتل الابن أباه ، في سبيل الله ، من أجل نصرة العقيدة .

لقد جمعت عقيدة التوحيد صهيباً الرومي وبلالًا الحبشي وسلمان الفارسي ، وأبا بكر العربي القرشي ، تحت راية واحدة ، راية الإسلام ، وتوارت عصبية القبيلة والجنس ، والقوم والأرض .

إن قائد هذه الأمة ، ورسولها الكريم ، رسّخ قواعد هذا البنيان الشامخ ، ووصم هذه اللوثة ، لوثة العصبية بأنها منتنة قال صلى الله عليه وسلم : « دعوها فإنها منتنة » . وفي أية مناسبة ؟ صيحة نادى بها أنصاري يالللأنصار ، وردّ مهاجريّ: يا للمهاجرين ولما سمع رسول الله ذلك قال : « ما بال دعوى جاهلية » ؟ قالوا : يا رسول الله كسَعَ رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال عندها : « دعوها فإنها منتنة »[٢] .

حقاً إنها منتنة ، طالما فرقت بين الأحبة ، وكادت أن تمزق الصفوف ، و كم عانى العرب في جاهليتهم من ويلاتها وشرورها ونتنها .

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص٢٣٦ ، وتفسير ابن كثير .
(٢) صحيح البخاري : ٦٤٨/٨ (ح ٤٩٠٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »[١] .

بهذا انتهى أمر هذا النتن ، وماتت نعرة الجنس ، واختفت لوثة القوم ، ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد وطن المسلم هو الأرض ، وإنما وطنه هو دار الإسلام ، تلك الدار التي تسيطر عليها عقيدته ، وتحكم فيها شريعة الله وحدها[٢] .

لقد انتهى نتن العصبية حقاً ، في نفوس الصفوة المؤمنة ، انتهى — بتقزز المؤمنين أتباع التربية المحمدية من ذلك الميراث البغيض ، والنماذج كثيرة موحية .

روى ابن هشام : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لسعيد بن العاص وقد مرّ به ، إني أراك كأن في نفسك شيئاً ، أراك تظن أني قتلت أباك ! إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإني مررت به ، وهو يبحث بحث الثور بروقه (أي بقرنه) فحدتُ عنه .. وقصد له ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله »[٣] .

تعالٍ عجيب هذا الذي حدث فعمر يقتل خاله المشرك ، وانتماء أعجب (ذاك الموقف من عمر رضي الله عنه) إلى مجتمع الإيمان والتوحيد ، وموقف علي رضي الله عنه الذي قتل فيه ابن عمه .. لقد ذابت العصبيات في مجتمع الطهر والتجرد .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة : ١٤٧٦/٣ (ح ١٨٤٨) .
(٢) انظر : معالم في الطريق : ص ١٤٣ ، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين الندوي ص ١٤٢ .
(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ٦٣٦/١ .

وفي غزوة بدر قاتل القريبُ القريب ، وبارز أبناء العشيرة بعضهم ، عندما تمايز معسكر الإيمان عن معسكر الشرك .

نادى في تلك الغزوة منادي قريش ، يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا – ولما خرج حمزة وعلي وعبيدة رضي الله عنهم قالوا : (قريش) . نعم أكفاء كرام ... وقتل في المبارزة عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وكلهم من سادة قريش[1]

لقد صفت النفوس ، فهجرت رواسب العصبية في المجتمع المكي عند المؤمنين أصحاب رسول الله ، وفي المدينة حلت روابط الأخوة بين المهاجرين والأنصار ، ونشوء مجتمع الفضيلة والتضحيات التي هجرت تلك الرواسب البغيضة .

وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضع أسس التجمع العقدي الصحيح بقوله في حجة الوداع :

« كل دم في الجاهلية موضوع ، وأول دم أضعه : دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لم تضلوا كتاب الله .. وأنتم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت »[2] .

واليوم : نرى أن الواقع المشهود ، يشير إلى عودة العصبية ، في القطر أو المدينة ، في الجماعة .. أو الحزب والمؤسسة .. مما يضيّع القيم وسط ضباب التعصب ، ويفوت الحقوق على أصحابها ، بتأويلات فاسدة ، ليس لها سند شرعي .. .

---

(١) انظر تفصيلا لتلك المبارزة : السيرة النبوية لابن هشام : ٦٢٥/١ .

(٢) مختصر السيرة النبوية : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حجة الوداع ص ١٧٥ . ومشكاة المصابيح : ٧٨٥/٢ .

إن الشعر الإسلامي ساهم في ترسيخ البنيان الضخم ، وصار يتمثل القيم الجديدة ، بعد أن كان سلاحاً يثير الأحقاد والضغائن ، فالعباس بن مرداس مثلًا يقاتل بنى عمه ، مخالفاً هواه مطيعاً ربه ، متبعاً تعاليم دينه ، حيث يقول[1] :

ويوم حنين حين سارت هوازنٌ إلينا وضاقت بالنفوس الأضالُع
أمام رسول الله يخفق فوقنا لواءٌ كخذروف السحابة لامعُ

إلى أن يقول :

نذود أخانا عن أخينا ولو نرى مطالًا لكنا الأقربين نتابعُ
ولكنَّ دينَ الله دين محمد رضينا به ، فيه الهدى والشرائعُ[2]

أثر حركة الفتح في تذويب العصبية القبلية خلال القرن الأول

سار الإسلام عملياً في تذويب العصبية القبلية في تعاليمه ، ومن خلال تربية الصفوة من الجيل الأول ، وقد برز ذلك واضحاً في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وفي إهدار دماء الجاهلية في خطبة الوداع ، وصفيت الأحقاد ، أحقاد الجاهلية .

وظهر أثر هذه التربية قوياً في حركة الفتوح ، فقد اتخذ شكلًا عملياً جاداً .. إذ أن الخلفاء والقادة كانوا يرمون إلى صهر ما كان يحس به الناس من فروق ، وهدر ما كانوا يعتمدون عليه من عصبيات ، ثم التأليف بينهم

---

(١) شعر الدعوة الإسلامية : القصيدة (٥٠١) عبد الله الحامد ، والسيرة النبوية لابن هشام : ٢/٤٦٤ .

(٢) المناسبة أن بني سليم جاهدوا يوم حنين ، ومعهم شاعرهم عباس مع المسلمين ، يقاتلون هوازن وهوازن تجتمع وإياهم في النسب .

تأليفاً تقوم فيه العقيدة مقام الدم ، والمساواة مقام التفاخر والتقوى مكان النسب ووحدة الكلمة والاتفاق مكان التشتت والافتراق .

ومن هنا كانت حركة الفتوح سبيلًا إلى التآخي بين أفراد المجتمع الجديد ، لا في العقيدة فحسب بل في مواجهة الحياة الجديدة كذلك .

لقد انطلقت جيوش التوحيد من الجزيرة العربية ، وقد أضحت أمة واحدة ، وكأنما أنسيت كل خلافاتها ، وغفلت عن كل ما كان من عصبياتها ، والتقت في ظلال من الإخاء ، اجتمعت قلوبها على عقيدة واحدة ، وخرجت تدعو غيرها إلى هذه العقيدة ، إلى سماحة الإسلام ، ومساواته وهديه[1] .

لقد كان فضل الإسلام على العرب عظيماً ، إذ وحّد بين هذه القبائل المتناثرة المتباغضة ، ليصوغ منها خير أمة أخرجت للناس .

لقد وحّد بين القبائل حتى في أقسى الظروف وأشد الفتن ، ففي فتنة الردة نفسها ، وخلال اختلاط جيوش الخلافة ، بجيوش أهل الردة ، وبعد أن قضى المسلمون على خصومهم ، اختلطت جيوش الخلافة بقبائل العرب ، بعد أن استقرت وتابت من ردتها .

تزوج خالد بن الوليد رضي الله عنه وعدد من القادة والجند ، من تلك القبائل ، وحمل كثير من السبي إلى المدينة وتزوج بعض أهلها من هذا السبي ، وصفيت الأحقاد وعاش الناس في دين الله إخواناً .

ووحد هذا الدين بين هذه القبائل ، إذ خرجت الكتائب تحدوها غايات كبرى ، لنشر العقيدة ، والسعي وراء الشهادة ولم يخرج العرب

---

(١) انظر : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول : د. شكري فيصل / ص ٣٠-٣٢ / . عن تاريخ الطبري ٤/١ سنة ٢١٢ .

المسلمون إلى الفتوح في نطاق القبيلة ، وما اعتمدوا على طابع القبيلة ، وإنما كانوا يخرجون مؤمنين يحاربون وينشرون الدعوة ، وحين كانت كثرة من جيش تنتهى إلى قبيلة واحدة فإنّ ذلك كان يؤدى بما فطر الناس عليه إلى انحياز أفراد هذه القبيلة بعضهم إلى بعض .

وبدأت روح القبيلة تتضاءل كذلك شيئاً فشيئاً ، خلال السكنى في المدن المفتوحة ، وبعد تمصير المدن أمثال الكوفة والبصرة .

وليس أدل على مدى الاختلاط في المدن المفتوحة من أن نقرأ في كتب التاريخ القديمة ، أسماء القبائل والجماعات التى نزلت الكوفة مثلًا ، فنجد قبائل من الشمال وقبائل من الجنوب قبائل من ربيعة وقبائل من مضر ، من الحجاز ومن نجد ، فلم يكن هناك إذن تفرد أو تميز ، وإنما كانت هناك عملية دمج تمضي في طريقها رويداً رويداً ، وقد تكون هذه العملية نكصت على عقبيها بعد ذلك ، بسبب سوء السياسة أو نتيجة لبواعث الفتنة[1] .

إن التجمع في المدن في أعقاب الفتوح ، كان له أثره في السير نحو الوحدة ، والمزج بين القبائل والجماعات المهاجرة ، فأصبحت روح الجماعة هي التي تسيطر فتبدو مضيئة نيرة ، ثم كان بناء الكوفة والبصرة إيذاناً بهذه النقلة من حياة القبيلة إلى حياة المدينة .

وكان تمصير المدن يعتمد على تآلف القبائل المتقاربة فى أحياء سبعة في كل من الكوفة والبصرة .

سميت بالأسباع ، واستمرت على ذلك أيام عمر وعثمان وعلى وعامة إمارة معاوية رضي الله عنهم ، فلما كان زياد وكانت ولايته عليها نقض هذا

---

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٣٢-٣٧ بتصرف .

البناء السباعي كأنما استكثر أطرافه ، وضايقته جوانبه ووجوهه ، وآثر بناء أقرب إلى التوحيد فجعلها في أربعة أقسام[1] .

لقد اختلطت القبائل وعاشت في حياة جديدة ، وكان ذلك كله سيراً نحو تذويب العصبية وبصورة عملية واقعية .

ولكن هل استمر امتزاج هذه القبائل الكبيرة في هذه الأمصار ؟ أم أنها عادت إلى عصبيات من نوع أكبر ضمن قبائل اليمن من جهة ومضر أو قيس ثم ربيعة من جهة أخرى ؟ يبدو أن الفتن بعد خلافة يزيد بن معاوية ، وأيام الوليد بن يزيد ، والظروف السياسية التي رافقت تلك الفتن ، وسياسة بعض الخلفاء زمن بني أمية أو ولاتهم ، ساعدت على ظهور العصبيات الكبرى في حروب مؤسفة حيناً ، وهجاء قبلي حيناً آخر ، وهذا ما سوف نتحدث عنه خلال موضوع العصبية في العصر الأموي .

•

---

(١) انظر : الطبري ٢٢٢٤/٤/١ ، ٢٤٩٥/٥/١ ، وشكري فيصل ص ٩٧-١٠٥ المجتمعات الإسلامية .

رابطة القبيلة : ومدى الاستفادة منها في ظـــل الإســـلام

يمكن الاستفادة من رابطة القبيلة في نشر الدعوة ، وقد استخدمها المسلمون مظلة واقية ضد نيران المجتمع المتعصب في فجر الدعوة .

إن الإفادة من الرابطة القبلية ، وصلة القرابة لمصلحة الإسلام شيء ، والخضوع إلى هذه الرابطة منحرفة ظالمة شيء آخر .

ولو تدبرنا القرآن لوجدنا أن بعض الأنبياء قد امتنعوا بأقوامهم أو قبائلهم من أذى الكفرة . قال تعالى حاكياً عن شعيب عليه السلام وقومه : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ هود : ٩١ .

فهذه الآية تنبئنا أن الكفار لم يستطيعوا الوصول إلى شعيب عليه السلام بالأذى ، خوفاً من قبيلته .

ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم ولم يناصرهم بنو عبد شمس ، عرف النبي صلى الله عليه وسم لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية النسب ، لا صلة لها بالدين أعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم وقال : « إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام » ومنع بني عبد شمس وبني نوفل مع أن الجميع أولاد عبد المناف[1] .

---

(١) أضواء البيان ٣/٤١ .

هناك فرق بين الموالاة والمداهنة ، ويبقى الأَصل هو عدم موالاة الكفار وزجر أهل الفسوق والبدع ، وكل هذا يحتاجه صاحب الدعوة[1] في دعوته .

والحقيقة أن المسلمين استفادوا من الطاقات الطيبة كلها ، بما ينسجم مع تعاليم دينهم ، إذا كانت كتائب المجاهدين تضم تكتلات قبلية تثار فيها الحماسة الصادقة ، والنخوة العربية ، خوفاً من العار ، وحباً في الشهادة ، واستجابة لنداء العقيدة .

« فقبائل العرب من المسلمين ، كانت تتحرك كوحدات حربية في الميدان ... إن ما أذابه الإسلام وقاومه هو العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب ، ولكنه لم يحارب القبيلة في حد ذاتها ، كوحدة لها وجود عميق في البيئة العربية .

لقد ظلت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية ، والوحدة الحربية المعترف بها في الفتوح الأولى واستفاد الكيان الإسلامي من هذا الوجود إلى أقصى حد .. »[2] .

إن التعاون بين أبناء قبيلة واحدة ، إذا انسجمت مع أمثالها بن قبائل أخرى ، على هدف سامٍ ، وجهاد خالص ، أمر فطري ينسجم مع الفطرة السوية ، بشرط ألا ينجرف المسلم وراء هوى أو عاطفة تجاه قبيلته ، « وفي معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب اختلطت صفوف المسلمين ، فصاح بهم خالد بن الوليد : « أيها الناس : تمايزوا حتى نعرف من أين نؤْتي » . فتميزت كل قبيلة في صفوفها ، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن شماس »[3] .

---

(١) انظر : خواطر في الدعوة / مجلة البيان العدد (٢٢) الأستاذ محمد العبدة .
(٢) انظر كتاب الطريق إلى المدائن : أحمد عادل كمال ص ٢٣ .
(٣) كتاب الطريق إلى المدائن : أحمد عادل كمال ص ٢٣ .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ . سورة الحجرات :١٣ .

ولو نظرنا إلى منازل القبائل العربية، لوجدناها مطابقة لتعبئة خالد بن الوليد رضي الله عنه ، عند زحفه من النباج إلى الحيرة .

ونلاحظ في كتب السيرة والفتوحات ، أن الخليفتين الراشدين الصديق والفاروق كانا يبعثان القبائل ويستعملان على كل قبيلة قائداً منها .

والجدير بالذكر أن المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ، كان لهم وضع خاص ، فلم تكن لهم دائماً في الفتوح وحدات خاصة بهم من قبائلهم ، إنما كنا نجدهم في القيادات غالباً ... كخالد بن الوليد ، والنعمان بن مقرن وإخوته[1] .

فالعقيدة السليمة إذا تمكنت من نفوس أصحابها ، تذيب العصبية ، وتستفيد من رابطة القرابة ، وتستعلي على المصلحة الشخصية ، والقبلية .. وبها يكون المسلم ضد هواه يكون مع إخوته بالله ، تكون صلته بربه قوية ، وعلاقته مع إخوته المؤمنين وطيدة .

ومما يلاحظ أنه كلما ضعف رابط العقيدة برزت العصبية من جديد ، وظهر الهوى وسيطرت النزوات .

وسنرى في الأبحاث القادمة كيف ظهرت العصبيات من جديد في المجتمعات الإسلامية .

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٠٤ .

جـ - عودة العصبيات من جديد :

تحدثنا في الأبحاث السابقة عن أثر هذا الدين في تذويب العصبيات ، وكيف أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سَمَوْا بأنفسهم فوق تقاليد الأباء وأعراف الأجداد ...

ومن الملاحظ أن عودة العصبية مقترنٌ غالباً بضعف العقيدة ، ومن أن بذور الإيمان ، وتربية القرآن لم تزدهرا في تلك القلوب بعد .

وقد ظهرت العصبية واضحة خلال التاريخ الإسلامي في مظاهر متعددة أبرزها :

١ - حروب الردة .
٢ - العصر الأموي .
٣ - أحقاد الشعوبية .
٤ - القومية والوطنية في العصر الحديث .

وطبيعي أنني لا أتحدث عن تاريخ مفصل للظواهر الآنفة الذكر ، وإنما يهمني أن أتابع خط ظهور العصبية في تلك المراحل، ومدى قوتها ، وجلاء أسبابها ، وأنّ هذا التعصب كان غالباً على حساب صفاء الإسلام، أو من أجل إعلان الحرب ضده سراً أو علانية .

أولًا : حروب الردة :

لا أريد التأريخ لحروب الردة ، فذلك موضعه في كتب التاريخ ، وإنما يعنيني أن أرقب عن كثب نزعة العصبية وكيف ظهرت ، وحيثما تكونت .

والحديث عن فتنة الردة ، ليس بالأمر السهل ، إذ اختلطت فيها المفاهيم ، فتلونت العصبية لضعف أثر الدين ، بميل نفوس الأعراب إلى حياة

الفوضى والغزو ، وحنينهم إلى ماض قريب ألفوه قروناً عديدة ، وورثوه عن الآباء والأجداد .

إن فترة الحضانة لهؤلاء الذين ارتدوا ، كانت قصيرة ، فلم يتغلغل الإيمان في قلوبهم ، ولم يخالط صفاء الإسلام أفئدتهم ..

لم يعايشوا فترة التلقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة ، وما خالطوا أصحاب رسول الله مخالطة الفهم والوعي والتجرد .

وهكذا يكثر التمرد عند أول فرصة سانحة ، عند كل الذين لا تكتمل صورة التربية العقدية لديهم ، وتقصُر فترة المعايشة لديهم مع المربين الدعاة المخلصين .

ولقد كانت نزعات المرتدين ليست واحدة ، وكانت شعاراتهم متباينة ، يجمعها شيء واحد هو الالتفاف حول متنبئين كذابين ، هم أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون على الله والناس .

وكان معظم الذين اتبعوهم من الأعراب الذين مازالوا مشدودين إلى عادات القبيلة ، وتراث الأجداد ، وتحكيم الأهواء والعادات ، إنها عُبَيَّةُ الجاهلية ، وعصبية القبيلة لأحد أبنائها بل ونَتَن الوثنية الذي عاد من بعض الوجوه .. .

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عظم الخطب واشتد الحال ونجم النفاق في المدينة ، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة ، وامتنع آخرون عن أداء الزكاة إلى الصديق ، ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينة ، وكانت (جواثا) من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما في صحيح البخاري عن ابن عباس ، وكانت ثقيف بالطائف قد ثبتوا على الإسلام .. » .

« وقد روي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ومن حديث القاسم عن عائشة رضي الله عنها قالت :

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب قاطبة وأشربت النفاق ، والله لقد نزل بي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، وصار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كأنهم معزى مطيرة في حش في ليلة مطيرة بأرض مَسْبعة ... »[1] .

« وقال محمد بن إسحاق : ارتدت العرب عند وفاة رسول الله ما خلا أهل المسجدين مكة والمدينة ، وارتدت أسد وغطفان وعليهم طلَيْحة الأسدي ، وارتدت كندة ومن يليها وعليهم الأشعث بن قيس الكندي.. وارتدت ربيعة .. وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة الكذاب ... وارتدت سُليم مع الفجاءة وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة .. »[2] .

اختلاف الشعارات والنزعات بين المرتدين :

« جعلت وفود العرب تقدم المدينة : يقرون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة ، ومنهم من امتنع عن دفعها للصديق ، ومنهم من احتج بقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ .

قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا »[3] .

وعندما عقد أبو بكر رضي الله عنه لواء الجيش لخالد بن الوليد أوصاه وبين له وضع القبائل إذ يقول له : « وسر في أصحابك على تعبية جيدة ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ج ٣٠٤/٦ .
(٢) المرجع السابق : ٣١٢/٦ .
(٣) البداية والنهاية : ٣١١/٦ .

فإذا لقيت أسَداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك ، مُتربصٌ دائرة السوء ينظر لمن تكون الدّبَرة (أي النصرة والغلبة) فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكنّ الخوف عندي من أهل اليمامة فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسْرهم »[1] .

وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم .. ثم هم بعد ذلك يزكون ، فامتنع الصديق من ذلك و أباه .. .

وقد روى الجماعة سوى ابن ماجة عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر علام تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا بحقها ؟ فقال أبو بكر : والله لو منعوني عناقاً وفي رواية : عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعها ، إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

قال عمر : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق »[2] .

وبعد عودة جيش أسامة بن زيد ، عقد أبو بكر رضي الله عنه الألوية ، فعقد أحد عشر لواءً .. عقد لخالد بن الوليد وأمره بالتوجه إلى طليحة ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة إن أقام له ، ولعكرمة بن أبي جهل ، وأمره بمسيلمة .. إلخ »[3] .

---

(١) الخلافة الراشدة والبطولة الخالدة في : حروب الردة . للشهيد المحدث المؤرخ : أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ٥٦٥- ٦٣٤ هـ تحقيق ونشر د أحمد غنيم ص ٦٧ .

(٢،٣) البداية والنهاية : ٦/٣١١-٣١٥ .

وكان الصديق قد عرض على كبار الصحابة قيادة الجيش فأَبَوْا عليه ذلك ، لأنهم كانوا يطمحون للشهادة .

« دعا أبو بكر زيد بن الخطاب لذلك فقال : يا خليفة رسول الله ، قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أرزقها ، فأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه ، وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه ، فدعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة فقال مثل ما قال زيد ، فدعا سالماً مولى أبي حذيفة ليستعمله فأبى عليه ، فدعا أبو بكر خالد ابن الوليد فأمّره على الناس »[1] .

واستشهد هؤلاء الصحابة الذين اعتذروا عن القيادة رحمهم الله جميعاً ، وبمثل هذه الروح تنتصر الجيوش ، وبهذا السمو والتجرد تعيش الدعوات .

ألا فليتبصر العبرة مَنْ أرادوا التغيير في جاهليات اليوم .

هذا أمر الذين امتنعوا عن دفع الزكاة ، وهنالك مَن تعصبوا لزعماء قبائلهم ، وآخرون ألفوا حياة الفوضى ، وسنرى نماذج هؤلاء في فقرات قادمة .

إن العصبية ثارتْ من جديد ، والروح القبلية لم تنته ولم تستأصل جذورها تماماً ، لأنه ليس من اليسير القضاء على نزعة رسخت في نفوس العرب منذ عصور ، وجرى من نفوسهم مجرى الدماء من العروق ، حتى استأثرت بمشاعرهم .

---

(١) حروب الردة للكلاعي ٥٦-٥٧ .

ونجد أن الحطيئة يصور في شعره هذه النزعة الجاهلية وهو يدعو قومه إلى الردة إذ يقول[1] :

أطعنا رسول الله إذْ كان بيننـا ... فيا عجبًا ما بالُ دين أبي بكر

أيورثها بكراً إذا مات بعـده ... فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

لقد بدا واضحاً أن عمل المرتدين كان زعزعة للدين الجديد ، إلا أنه كان في الواقع صقلًا لكل مقومات الجماعة الإسلامية في نظمها وفكرتها ووحدتها ، فوضعت النظم موضع التطبيق ، ووضعت الفكرة موضع التنفيذ ، ووضعت الوحدة موضع الغرض الأسمي في الحياة الجديدة[2] .

العصبية راسخة الجذور في الجزيرة العربية :

والمتتبع لحروب الردة ، يجد أن سواد الأعراب لم يدخل الإيمان قلوبهم ، ولقد وصفهم القرآن بذلك : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ الحجرات : ١٤ .

« هؤلاء الأعراب وقف معظمهم من الدين الإسلامي بالذهنية المغلقة المتعصبة التي لا تدرك معنى الدين ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ التوبة : ٩٧ .

« كانوا يعدون الرسول رجلًا أوتي السلطان على العرب فيطيعونه على أنه رئيس مقتدر.. » و« كان العرب المسلمون ينظرون إلى الأعراب المتبدين نظرة حذر وارتياب ، وكانوا لا يرتضون لأعرابي تحضر أن يتبدى .. وكان

---

(١) ديوان الحطيئة : ص ٣٢٩ تحقيق نعمان أمين طه – القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) انظر : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول – الدكتور شكري فيصل دار العلم للملايين / بيروت ، الطبعة الثالثة ص ٤٠ .

للقبيلة الواحدة حاضر وبادية والتمازج حاصل بين سكنة الحواضر وسكنة البوادي ... وكان الرسول الكريم يفرق بين الأعراب الموغلين في الصحراء، والأعراب المقيمين في الضواحي والمستجيبين لدعوة الإسلام ... »[1].

كان الأعراب بعيدين عن التربية المباشرة، تربية العقيدة والإيمان، كانت فترة الإعداد غير كافية لاقتلاع رواسب الجاهلية من نفوسهم.

إن كثيراً منهم أسلموا بإسلام زعمائهم ..

إن جذور العصبية عريقة، والتعلق بعادات **الغزو والنهب وإلفهم لحياة الفوضى، وكرههم للطاعة** وحياة الانضباط كل ذلك **مع ضعف العقيدة**، سبب ردة عنيفة في جزيرة العرب ..

وسوف أستعرض بعض **المواقف** التي تجلّي لنا هذا الأمر.

عندما واجه خالد بن الوليد رضي الله عنه بجيوش المسلمين طليحة الأسدي أُسر حِبال بن أبي حبال، ولما أراد المسلمون أن يبعثوا به إلى أبي بكر الصديق قال: « اضربوا عنقي ولا تُروني محمديكم هذا » فضربوا عنقه[2].

وعندما نزل عمرو بن العاص وهو عائد من عُمان على سيد بن عامر (قرة بن هبيرة القشيري)، وذلك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال قرة لعمرو: « إن لك عندي نصيحة وأنا أحب أن تسمعها. إن صاحبك قد توفي. قال عمرو: أوصاحبنا هو؟ لا أم لك؟ يعني دونك. قال له قرة: وإنكم يا معشر قريش كنتم في حرمكم تأمنون فيه

---

(١) الشعر الجاهلي د يحيى الجبودي ص ٣٢-٣٦ وتاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي ٤/٢٩٤.

(٢) حروب الردة: الكلاعي ص ٧٤.

ويأمنكم الناس ثم خرج منكم رجل .. فلما بلغنا ذلك لم نكرهه وقلنا رجل من **مضر** يريد يسوق الناس وقد توفي والناس إليكم سراع ، وإنهم غير معطيكم شيئاً فالحقوا بحرمكم تأمنوا فيه »[1] .

وعندما اقترب عمرو من مشارف المدينة لقيه عيينة بن حصن خارجاً من المدينة قال له : ما وراءك يا عيينة قال له : يا عمرو استوينا نحن وأنتم فقال له عمرو : كذبت يا ابن الأخابث من مضر . ثم لحق عيينة بطليحة الأسدي[2] .

يُلاحظ هنا منطق الجاهلية بوضوح ، والرجوع إلى عقلية مشايخ القبائل . وهناك مواقف عجيبة صدرت عن بعض المرتدين ، ليس لها تفسير إلا العودة إلى رجس العصبية وحمأتها في النفوس .

« من ذلك» خبر الرجال بن عُنْفوة، وكان به من الخشوع ولزوم قراءة القرآن والخير شيء عجيب .. وكان قد وفد على رسول الله مع قومه ، وأرسله الصدّيق أيام خلافته لأهل اليمامة يدعوهم إلى الله ، فارتد مع مسيلمة ، وشهد له بالنبوة .. وكان من أكبر ما أضل أهل اليمامة – بسبب عبادته – حتى اتبعوا مسيلمة .. سُمع الرجال وهو يقول : «كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا »[3] .

كان الرجل في ضلال عجيب ، وعصبية قاتلة – أحبهما إليه كبشهما – أوردته المهالك .

ومسيلمة نفسه يقف مخذولاً أمام كتائب الإيمان ليقول لقومه في حديقة الموت : « اليوم يوم الغيرة .. إن هزمتم تستنكح النساء سبيات .. فقاتلوا على أحسابكم وامنعوا نساءكم »[4] .

(١،٢) المرجع السابق الكلاعي ص ٨٥–٨٦ .
(٣) انظر البداية والنهاية : ٣٢٣/٦ ، وحروب الردة / ١٠٤ .
(٤) انظر البداية والنهاية : ٣٢٤/٦ .

واستثارهم مسيلمة بالدفاع عن الحسب ومجد العشيرة ، وبذلك قال محكم بن طفيل ، أكبر مؤيدي مسيلمة خذله الله : « ما كان عندكم من حسب فأخرجوه »[1] .

قال قائل لمسيلمة : يا أبا ثمامة أين ما كنت وعدتنا[*] ، قال الكذاب : أما الدين فلا دين ، ولكن قاتلوا عن أحسابكم ، فاستيقن القوم أنهم على غير شيء »[2] .

وتبلغ قمة العصبية الجاهلية أوجها عندما نقرأ الخبر التالي :

« جاء رجل إلى اليمامة وقال : أين مسيلمة ؟ ولما دلوه على الكذاب . قال له : مَنْ يأتيك ؟ قال رجس . قال أفي نور أم في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة ، فقال الأعرابي : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدًا صادق ، ولكنّ **كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر** ،

واتبعه هذا الأعرابى الجلف لعنة الله حتى قتل معه يوم عقْربا ، ولا رحمه الله »[3] .

وبذلك نرى أن من أهم أسباب التفاف الأعراب حول المتنبئين هي العصبية الجائرة ، إذ سببت فتنة أريقت فيها الدماء وأزهقت الأرواح .

وإضافة إلى ما سبق ، فإن حياة الغزو ، حياة الحروب الدامية والأيام القريبة ، قد استهوت بعض النفوس خلال فتنة الردة ومن ذلك ما رواه المؤرخون :

(١،٢) حروب الردة للكلاعي ص ٤٣، ١٤٥ .

« وذلك بعد مقتل محكم بن طفيل » .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٣٢٧/٦ ، ٣١٣ ، ٣١٩/وحروب الردة ، للكلاعي الصفحات : (٥٣-٥٤، ٣٩-٤٠) .

« من قدوم عيينة بن حصن والأقرع بن حابس على الصديق يطلبان منه جعلًا ليخذلا مَنْ وراءهما من القبائل ، فرفض الصديق ذلك وبعد عودتهما شنَّ خارجة بن حصن (أخو عيينة) غارة على المدينة المنورة ، فخرج إليهم الصديق بمَنْ معه من المسلمين ، وهزمهم في ذي القصة »[1] .

وهذا الفجاءة من بني سليم ، كان قد قدم على الصديق وزعم أنه أسلم ، وسأله أن يجهز معه جيشاً يقاتل به أهل الردة ، فجهز معه جيشاً ، فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله ، فلما سمع الصديق بعث وراءه جيشاً فرده وقد جمعت يداه إلى قفاه وقتل[2] .

مَنْ شَحّت نفوسهم بدفع الزكاة :

وهؤلاء امتنعوا عن دفع المال ، وتأدية الزكاة لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الأشعث بن قيس لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : « والله ما كفرت بعد إسلامي ، ولكنني شححت على مالي » . وذلك عندما جيء به وبقومه من أسرى كندة بعد هزيمتهم .. وقال وفد كندة أيضاً نفس القول : « والله ما رجعنا عن الإسلام ولكنا شحَحْنا على أموالنا »[3] .

وكان الذين حبسوا صدقات قومهم وفرقوها بينهم ، مالك بن نويرة ، وقيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس التميمي ، وكذلك فعل حذيفة بن بدر الفزاري ، ومثله بنو سُليم .

---

(١) انظر المصدر السابق هامش (٣) من الصفحة السابقة .
(٢) حروب الردة : ص ٢٣٨ (الكلاعي) .
(٣) انظر حروب الردة : الكلاعي /الصفحات : ٤٤ ، ٥٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٨ .

ومن ثم حاولت طيء أن تقلد جيرانها من بني أسد ، إلا أن عدي بن حاتم رفض ذلك ، وأقنع قومه ، وقدم بالصدقات على أبي بكر الصديق رضي الله عنه[1] .

إن العرب الذين كانوا يأنفون الانصياع إلى سلطة واحدة ، صعب عليهم أن يخضعوا لرجل من قريش يؤدون إليه أموالهم[2] ..

إغارة ونهب وفوضى :

ويمثل هذا الجانب سجاح ومَنْ معها ، إذ أقبلت بقبيلتها « تغلب » من الجزيرة وقد ادعت النبوة ، وهي من نصارى العرب ، ولما مرت ببلاد بني تميم دعتهم إلى أمرها ، فاستجاب لها عامتهم ، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي ، وعطارد بن حاجب ... ثم اتفق أتباعها على قتال الناس ، فقالت لهم سجاح فيما تسجعه من كلام : « أعدوا الرِّكاب ، واستعدوا **للنهاب** ، ثم أغيروا على الرَّباب ، فليس دونهم حجاب » . ثم قصدت اليمامة لتأخذها من مسيلمة .

واتفق الكذّابان ، وتزوجها مسيلمة ، وأقامت عنده ثلاثة أيام ، ثم رجعت إلى قومها .. وقد نادى مؤذنها إن مسيلمة قد وضع عنكم صلاتين ، مما أتاكم به محمد ، يعني صلاة الفجر وصلاة العشاء .... ثم انثنت راجعة إلى بلادها الجزيرة وأقامت في قومها بني تغلب »[3] .

(١، ٢) انظر المصدر السابق هامش (٣) من الصفحة السابقة .

(٣) البداية والنهاية : ٦/٣٢٠-٣٢١ .

ومن طريف ما يُروى قول أحد أتباعها -عطارد بن حاجب - بعد أن رجع إلى الإسلام[1] .

أضحت بنيتنا أنثى نطيف بها ... وأضحت أنبياء الناس ذكرانا
فلعنة الله رب الناس كلهـم ... على سجاح ومَنْ بالكفر أغوانا

حفظة القرآن ، وأصحاب الإيمان :

هؤلاء الأتقياء الأبرار ، هم الذين حسموا الموقف في هذه الفتنة ، وارتفعوا فوق التقاليد والأهواء ، فقد حاربوا قومهم ، وقبائلهم مع كتائب الإيمان ..

ولقد استحر القتل في الصفوف من حفظة القرآن في اليمامة ، « وجعل منادي المسلمين ، ينادي : يا أهل القرآن فيجيبون المنادي فرادى ومثنى ، فاستحر بهم القتل فرحم الله تلك الوجوه »[2] كما روي ذلك عن عمر رضي الله عنه وهو يذكر تلك الأيام .

« وصبر الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم ... وكان جملة من قتلوا في حديقة الموت .. وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل وقيل أحد وعشرون ألفاً (من المرتدين) ومن المسلمين استشهد ستمائة وقيل خمسمائة فالله أعلم وفيهم من سادات الصحابة - أمثال ، ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي ، ومنهم زيد بن الخطاب أخو عمر لأبيه ومنهم أبو دجانة ومنهم عباد بن بشر الأنصاري ، وأبو حذيفة بن عتبة ومولاه سالم .. »[3] رحمهم الله أجمعين .

---

(١) الإصابة لابن حجر : ٤٧٧/٢ .
(٢) انظر حروب الردة للكلاعي : ص ١٧٧ .
(٣) انظر البداية والنهاية : ٣٢٥/٦ وما بعدها .

كانت المعارك ضارية حتى أن المسلمين تراجعوا عدة مرات أمام بني حنيفة إذ جاء الخلل إلى الصفوف من الأعراب عندها صاح أحد أصحاب رسول الله (ثابت بن قيس) رضي الله عنه : أخلصنا يا خالد .. فقال : ذلك إليك ، فناد في أصحابك ، فأخذ الراية ونادى ياللأنصار .. فتسللت إليه رجلًا رجلًا ... أربعمائة رجل لا يخالطهم أحد .. ونادى خالد ياللمهاجرين فأحدقوا به ، ونادى عدي ، ومكنف بن زيد الخيل الطائي لطيء فثابت إليهما طيء وكانوا أهل بلاء حسن ، وعزلت الأعراب ناحية .... ويكمل الرواية : رافع بن خديج فيقول : « وإنما كنا نؤتى من قبل الأعراب .. وأجهضهم أهل السوابق والبصائر فَهُمْ في نحورهم .. »[1] .

إن العقائد تقاس بالابتلاء والشدائد ، وعامة الناس ، لا يجدون نفعاً في هذه المواطن وما أجدر الدعاة أن يستفيدوا من مثل هذه الدروس .. أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل السوابق ، على قلة عددهم هم الذين قلبوا ميزان المعركة ... وكثرة الأعراب من المسلمين ، سرعان ما كانوا يتراجعون عندما تعضهم السيوف .

لقد وقف عدي من قومه موقفاً صلباً مؤمنا ، وحارب إلى جانب خالد بن الوليد ، ولقد قاتل المسلمون من بني سُليم المشركين من قومهم ، وانهزم الأعراب من المرتدين (من بني عبس وذبيان) (ومَنْ معهم من مدد طليحة لهم بابنه حِبال) الذين أغاروا على المدينة ، وقتل حبال ، وكان أول الفتح وذل بهذه الموقعة المشركون ، وعز المسلمون ، عندها وثب بنو ذبيان وعبس على مَنْ فيهم من المسلمين فقتلوهم وفعل مَنْ وراءهم كفعلهم فحلف أبو بكر ليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة ... وجعل خالد

---

(١) انظر حروب الردة : ١٣٣-١٣٨ ، والبداية والنهاية : ٣٢٤/٦ .

رضي الله عنه بعد أن هزم طليحة وأسداً يتردد شهراً يأخذ بثأر من قتلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا .. »[1] .

وكان ابن عمرو اليشكري من أشراف اليمامة ، وكان مسلماً يكتم إسلامه ، وكان صديقاً للرّجال ، فقال شعراً فشافي اليمامة منه هذه الأبيات[2] :

يا سعادَ الفؤاد بنت أُثال	طال ليلي بفتنة الرَّجال
فتن القوم بالشهادة[3] والله	عزيزٌ ذو قوة ومحال
إن ديني دين النبي وفي القوم	رجال على الهدى أمثالي[4]
أهلك القوم محكمُ بن طفيل	ورجال ليسوا لنا برجال[5]
قلت للنفس إذ تعاظمها الصبرُ	وساءت مقالةُ الأقوال
إنْ تكن ميتتي على فطرة الله	حنيفاً فإني لا أبالي

فبلغ ذلك مسيلمة ومحكماً وأشراف أهل اليمامة فطلبوه ففاتهم ، ولحق بخالد بن الوليد ، فأخبره بحال أهل اليمامة ودلّه على عوراتهم .

إنه الإيمان يستعلي في نفس ابن عمرو اليشكري ، ويضحي بقومه في سبيل دينه .

---

(١) البداية والنهاية ٦:٣١٣، ٣١٩ .

(٢) حروب الردة : الكلاعي ص ١٠٥-١٠٦ .

(٣) كان قد شهد (الرجال) لمسيلمة بالنبوة .. ففتن الناس .

(٤) لم يصرح باسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما يعرض بأنْ لا نبي سواه وأن مسيلمة مفتر على الله .

(٥) محكم بن طفيل من أكبر أعوان مسيلمة .

دروس وعبـــر :

هكذا كانت حروب الردة ، فتنة عمياء ، وعصبيات هوجاء إلا أنها لا تخلو من عبر وعظات .

١ – العصبية نزعة خطيرة وخبيثة ، من بقايا نتن الجاهلية ، فهي تتلون وتخدع أصحابها ، فلا يرون الحق ، بل ويدافعون عن الباطل ، وقد يظنون أنهم يحسنون صنعاً .

٢ – إن التعلق بالمال ، والشح بتأدية حق الله ، إذا اقترنا بضعف الإيمان ، يؤديان بصاحبهما إلى المهالك ، وهذا ما أودى ببعض المرتدين إلى الردة والانحراف ، حيث شحت نفوسهم عن دفع الزكاة .

٣ –إن قوة الإيمان ، وفهم العقيدة ، يصنعان العجائب .. وهذا ما ظهر جلياً في موقف الصديق وصموده ، أمام ردة خطيرة في جزيرة العرب ، فقرر بحزم أن يحارب هؤلاء المرتدين وألا يتراجع عن إكمال بعثة جيش أسامة بن زيد إلى تخوم البلقاء والشام . انظر إلى عزيمة الصديق رضي الله عنه وهو يقول : «والله لاأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين ، لأجهزنّ جيش أسامة .. » .

كما أن مواقف حفظة القرآن ، وأصحاب تربية دار الأرقم ، وأهل الإيواء والنصرة في المدينة ، كانت عظيمة غيرت مجرى التاريخ .

٤ – لا تجوز المساومة في دين الله ، ولا تصح مهادنة المشركين باسم المصلحة حيناً ، وضعف الإمكانيات حيناً آخر .

وها هي قبائل العرب ارتدت ، وكان الصديق وأصحابه في ضيق وكرب بسبب انتقاض العرب ، لكن ذلك كله ما زاد خليفة رسول الله وأصحابه إلا صموداً وثباتاً .

إن مواقف الصحابة هذه تجعلنا نرفض فى هذا الزمن ، كل التواء أو خداع ، وكل جرأة على الفتوى باسم الدين .

٥ – إن العودة إلى التربية الصافية ، إيمانية خالصة ضرورة ملحة ، وواجب شرعي ، ينقذ المسلمين مما هم فيه اليوم من تسيب وتصدع وضياع .

٦ – القلة المؤمنة هي رصيد الأمة عند الشدائد ، وعماد كل نهضة جادة ، وصحوة يقظة ، ما بقيت هذه النخبة متمسكة بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، كما فهمها سلف هذه الأمة مع اليقظة والحذر وتقدير العواقب ، وتخطيط ذكي لمواجهة الأعداء في الخارج والداخل .

٧ – إن صورة الردة تتمثل بإيجاز في : « أن العرب افترقت في ردتها : فطائفة رجعت إلى عبادة الأصنام ، وقالوا : لو كان نبياً لما مات . وفرقة قالت : نؤمن بالله ولا نصلي ، وطائفة أقروا بالإسلام وصلوا ولكن منعوا الزكاة ، وطائفة شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولكن صدقوا مسيلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أشركه معه في النبوة .. ولم يشك أحد من الصحابة في كفر مَنْ ذكرنا ، ووجوب قتالهم إلا مانع الزكاة .. ثم زالت الشبهة عن الصحابة رضي الله عنهم ، وعرفوا وجوب قتالهم ، فقاتلوهم .. »[1] .

(١) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٢٩–٣٠ .

وها نحن اليوم نرى من ينكر الزكاة ، وأركان الإسلام ، ويتفلت من تحكيم الشرع ، ثم يزعم أنه مسلم ، ويجد من يفتي له بإسلامه ، مادام يتلفظ بالشهادتين ولو لم يأت بأي عمل من أعمال الإسلام .

٨ - يحدثنا الطبري في رواية تنتهي إلى عامر الشعبي قال : « كان أبو بكر رضي الله عنه ، لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردة حتى مات .

وكان عمر رضي الله عنه قد استعان بهم ، فكان لا يؤمر منهم أحداً إلا على النفر ، ومادون ذلك وكان لايعدل أن يؤمر الصحابة إذا وجد من يجزىء عنه في حربه ، فإن لم يجد ففي التابعين بإحسان ، وكان لا يُطمع من انبعث في الردة في الرئاسة »[1] .

بل كتب الصديق رضي الله عنه إلى عماله : « لا تستعينوا بمرتد في جهاد العدو »[1] .

وهكذا تكون الحيطة والحذر ، بهذا اللون من النبذ والحرمان عند الخليفة الأول رضي الله عنه ، حتى إذا كان زمن عمر رضي الله عنه ، وقد قوي أمر المسلمين وامتدت قوتهم ، رضي للمرتدين خلال الفتوح أن يشاركوا في الجهاد ، وألا يترأس أحدهم على مائة .

إن التمحيص مهم ، والخوف من اختراق صفوف الجهاد ضروري ، فلا يرضى المسلمون من ساءت أخلاقه ، أو رقّ دينه أن يترأس في عمليات الجهاد في أيامنا هذه بأي سبب من الأسباب ، وألا ينخدع دعاة المجاهدين وهم يقاتلون أعداء الله ، بالتحالف مع أعداء الله (من لون آخر) وتحت أي شعار براق مخادع .

---

(١) الطبري : ٢٤٥٧/٥/١-٢٤٥٨ / عن المجتمعات الإسلامية / شكري فيصل .

وها هي طبقة المرتدين – رغم توبتهم – تظل عهد عمر حشوة الناس على حد تعبير الشعبي : « وكان رؤساء أهل الردة في تلك الحروب حشوة الناس »[1] .

(١) المصدر السابق .

ثانياً : العصبية في العصر الأموي

ظهرت العصبية القبلية في هذا العصر قوية ، وعلى شكل تكتلات كبيرة ، اتحدت فيها قبائل اليمن القحطانية ضد قبائل مضر العدنانية ، واشتد الصراع بين الكتلتين وكان له آثار سياسية واجتماعية وأدبية .

لقد اتصلت الصراعات من شرقي الدولة إلى غربيها في شتى البلاد التى أظلها الحكم الأموي . لقد تغير الوضع عما كان عليه ومن الخلافة الراشدة « وإن زمن بني أمية كان قريب العهد بالخلافة الراشدة عهد الذروة العليا ، والقمم الشاهقة الصافية في كل شيء ، ومن كان يعيش في جو الذروة ، ويستنشق أريجه العذب ، يحس في صدره ضيقاً وحرجاً من الهبوط ولو كان طفيفاً ... إن الأمر في النهاية كان في داخل الدائرة، دائرة الإسلام مع شيء من الشذوذ عنها في هذا الموضع أو ذاك .. »[1] كان تغاضي بعض خلفاء بني أمية عن ثورة العصبية أمراً مؤسفاً حقاً ، وكان تبني بعضهم لهذه الكتلة حيناً ولتلك الكتلة حيناً آخر أمراً خطيراً فتك بجسم الأمة آنذاك .

وأقتبس من المؤرخ ابن كثير–رحمه الله–ما يوضح لنا هذا الأمر بإيجاز يقول رحمه الله[2] :

---

(١) واقعنا المعاصر : محمد قطب – مؤسسة المدينة للصحافة ص ١١٧ .

(٢) انظر تفصيلًا لذلك : البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء العاشر أحداث سنة (١٢٦–١٢٧ هـ) طبعة بيروت ١٩٧٨ م .

« بعد وفاة يزيد بن معاوية ، ظهرت روح العصبية من جديد ، بين قبائل مُضر واليمن .. إلا أنها سرعان ما اختفت خلال عهد عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) ، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى ، وسكنت في عهده الفتن ، ولما توفي عمر رحمه الله ، خلفه يزيد بن عبْد الملك ، واستقبل فتنة قوية بين القبائل القيسية واليمانية .. وكانت هذه الفتنة سبباً في القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبي صفرة ، فقد قتل بعضهم في الحرب وحُمل بعضهم في الأغلال إلى يزيد بن عبد الملك فأمر بقتلهم جميعاً ، وهم من زعماء العنصر اليمني .

وصار الخلفاء ينضمون للقيسية حيناً واليمنية حيناً آخر لأجل التوازن .

ولما خلف هشام رأى أن القيسية قد علت كلمتها ، فانحاز إلى اليمنية ، وولى منها العمال بدل القيسية .. إذ ولى خالد بن عبد الله القسري على العراق ، وأخاه أسداً على خراسان وتعصب خالد وأخوه لليمنية ، وصاروا ينتقمون من المضريين غير أن هشاماً تحول ثانية إلى مضر ، فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق ، ونصر بن سيار خراسان ، ثم فوجئت اليمنية بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري على يد يوسف بن عمر ، فعادت القلاقل سيرتها الأولى ..

وجاءت خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذي انحاز بدوره إلى مضر لأن أمه كانت منهم ، مما جعل اليمنيين يحاولون الثورة والتخلص منه وقتله ، إضافة إلى ما كان عليه من فسق و فجور ... وتولى مكانه ابن عمه يزيد بن الوليد وكان على شيء من النسك والصلاح ، إلا أنه انضم إلى اليمنية ، حيث أن هذه القبائل هي التي أوصلته إلى الخلافة .

وهكذا كانت حال العصبية في الشام ، كانت تشبه مراكز القوى ، يستخدمها الخلفاء لإحكام قبضتهم السياسية ، وقد ساعد على كثرة الثورات أن معظم أهل الشام كانوا من العنصر اليمني ، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ينقل عاصمة الخلافة من دمشق إلى الجزيرة حيث تقيم القبائل القيسية ، والتى كانت عماد دولته »[1] .

فالصراع بين القيسية واليمنية كان سياساً في بدايته إذ كانت قبيلة كلب (اليمانية) في الشام تؤيد حكم بني أمية وبايعت مروان بن الحكم ، بينما أيدت القبائل القيسية في الشام أيضاً ابن الزبير 'وبايعته وحصلت حوادث بعد ذلك أبعدت الخلاف عن محوره الأصلي فجعلته خلافاً قبليا ذا نزعة قبلية .

فبعد مبايعة مروان بن الحكم في الجابية ، سار أنصاره من كلب وقبائل اليمن إلى مرج راهط وقاتلوا الضحاك بن قيس وجماعته من قيس ... وكانت مجزرة عظيمة قتل فيها عدد كبير وانتهت المعركة بفوز مروان وحزبه ، أما القيسيون فقد قتل معظمهم ، وفر عدد يسير من رجالهم .

وقد دام الصراع والثأر زمناً طويلًا ، لأن الثأر يولد الثأر ، حتى استطاع عبد الملك بن مروان القضاء على الفتنة أخيراً ، لأنه وقف محايداً بين الطرفين ، ثم أسرع إلى توجيه الأعراب إلى القتال في بلاد الروم[2] .

هذه العصبية هي التي ساعدت على تقويض دولة بني أمية ، وقد انتقلت إلى الأندلس وبلاد ما وراء النهر فكانت نكسة مؤلمة ألمت بالمسلمين في تلك الديار النائية .

(١) البداية والنهاية : الجزء العاشر / أحداث ١٢٦-١٢٧ .

(٢) انظر الدولة الأموية : د. يوسف العش ، ط دار الفكر ، الثانية ١٤٠٦ هـ ص ١٨٤-١٩١ .

إن سواد هذه القبائل كان من الأعراب من الذين لم يربوا التربية المطلوبة على تعاليم هذا الدين ، وكان من بينهم الثوار الذين كانوا قد اشتركوا في فتنة عثمان رضي الله عنه ..

بل كان من بينهم بعض أسماء المتهمين في دم عثمان ، مثل سودان بن حمران السكوني ، وقتيرة بن فلان السكوني ، وحكيم بن جبلة العبدي[1] يقول عثمان رضي الله عنه عن هؤلاء الأعراب : « أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمه ، وأرض الهجرة ، وثابتْ إليهم الأعراب » .

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله ، وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين .. مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا تِرة ولا عذر » .

ونزاع القبائل هم الغرباء الذين يجاورون قبائل ليسوا منها أي المشردون » .

ويقول علي رضي الله عنه بعد مقتل عثمان : « يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم فأبتْ السبيئة الطاعة ، وأطاعهم الأعراب »[2] .

ويصف هؤلاء الأعراب ابن العماد الحنبلي بأنهم من أوباش القبائل ، وهمج ورعاع من غوغاء القبائل وسفلة الأطراف كما يصفهم النووي[3] .

هؤلاء الأعراب يستثيرهم المال والطمع ويبلغ الحقد منهم مبلغاً عظيماً ، ويدرك ذلك عبد الله بن سبأ فيوجههم لإثارة الفتنة ، وكان

---

(١) انظر الطبري ج ٣٤٨/٤، ٣٣٤/٣ ، والبداية والنهاية : ٣٧٣/٦ ، وعبد الله بن سبأ ، العودة .

(٢) انظر تاريخ الطبري : ج ٣٨٨/٣ ، ٤٧٩ ، ٤٥٩ .

(٣) انظر شذرات الذهب : ٤٠/١ ، وشرح صحيح مسلم ج ١٥ ٤٨، ١٤٩ .

هؤلاء الأعراب من سبب الفتن القبلية زمن بني أمية ، وخاصة خلال الفتن التي ثارت بعد موت يزيد بن معاوية ، ومقتل الوليد بن يزيد ، وخلال خلافة مروان بن محمد[1] .

هؤلاء الأعراب لم يتفهموا روح الإسلام العميقة ، بل أخذوا منه بعض ظواهر تعاليمه وشريعته وانقسموا منذ أيام عثمان وعلى رضي الله عنهما إلى قسمين :

الخوارج الذين تمسكوا بتلك الظواهر وتشددوا فيها وقسم آخر كانوا مسلمين بالاسم بحيث كانت طبيعة الجاهلية لا تزال مستقرة في نفوسهم ، والقسمان لا يكفان عن القتال والغارات والغزو والنهب مهما اختلف الدافع ، سواء أكان باسم المذهب أم كان للثأر والعصبية .

إن الأعراب كانوا موزعين على أربع مناطق تجمعوا فيها ، فأعراب العراق تجمعوا في البصرة وما حولها ، وتجمع أعراب المشرق في خراسان ، وأعراب المغرب في جهة برقة ، وأعراب الشام في الجزيرة وتدمر .

أما من تجمعوا في العراق فقد كانوا خوارج ، أما أعراب خراسان فقد كانوا موجهين للفتوح ومنصرفين إليها ... وكذلك أعراب المغرب ... أما أعراب الشام فقد توقفت الفتوح عندهم حيناً من الزمن بسبب الفتن التي حدثت بين المسلمين وقد شاركوا في هذه الفتن ... وأعادتهم إلى سابق عصبيتهم الجاهلية كموقعة مرج راهط بين القيسية واليمانية[2] .

هذه العصبية التي حذرنا الإسلام منها « دعوها فإنها منتنة » ، هي من أسباب البلاء في العصر الأموي .. وستبقى خطراً داهماً ، وانحرافاً مقيتاً

---

(١) انظر الدولة الأموية : د. يوسف العش ص ٧٩ ، وانظر عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام : سليمان العودة .

(٢) انظر : الدولة الأموية للدكتور العش من ص٢٣٧-٢٤٠ .

كلما انحرف المسلمون إليها ، وكلما ابتعدوا عن صفاء هذا الدين ووضوح عقيدته .

أثر العصبية القبلية في الشعر الأموي[1] :

قد أقحم شعراء القبائل أنفسهم في حومة النزاع السياسي الذي استمر طوال العصر الأموي بين مختلف الأحزاب والفرق ، وأعلنوا موقف عشائرهم من شتى الأحداث السياسية .. وكان هذا النزاع السياسي وثيق الارتباط بالنزاع القبلي.. كان الشعراء يؤججون له نار العصبية ، ويثيرون الفتن الدامية بين القبائل بأشعارهم ..

كان كثير منهم أبواق فتنة ودعاة شر ، دأبهم أن يقرعوا طبول الحرب ويحرشوا بين القبائل[2] ..

ولا غرو أن نسمع الحسن البصري يتهم الشعراء والخطباء بأنه لم تكن فتنة إلا كانوا أكثر أهلها »[3] .

انظر إلى قول زفر بن الحارث وهو يؤكد لنا موقف هؤلاء الشعراء ، وأنهم ملقحو فتن بقوله :

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات الصدور كما هيا

كان الناس يتحلقون حول شعراء الهجاء والمناقضات في الأسواق والمحافل يستمعون إليهم ، ينشرون المعايب ، ويتبعون المخازي وينهشون الأعراض ، ويهجون خصومهم وقبائلهم أقبح هجا ء فكانت الأحقاد تعيش

---

(١) انظر : كتاب العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي د. إحسان النص ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ١٩٧٣ م .

(٢) المصدر السابق : ص٣٧٤ ، ٣٨٨ .

(٣) الطبري : ٣٤٠/٥ ، القاهرة مطبعة الاستقامة ١٩٣٩ م .

في الصدور ويكون أتفه الأسباب حينئذ داعياً لوقوع الفتنة بين القبائل المتعادية .

وكان الشعراء يحرضون قومهم على الثأر من أعدائهم ، وحث الموتورين على الطلب بدماء القتلى ، وكانوا ينافحون عن قبائلهم ويفاخرون بأنسابهم ، ويسجلون بشعرهم جميع الأحداث القبلية التي شهدوها والتي اتصلت بهم أخبارها[1] .

وسوف أستعرض شعر النقائض بإيجاز ، موضحاً أثر هذا الشعر في إثارة العصبيات بين القبائل في هذا العصر .

شعر النقائض :

لقد هيأ اسْتِعَار العصبيات في البصرة وخراسان ، وغيرهما لاشتعال الهجاء – كما هيأ لنمو فنّ النقائض نمواً واسعاً .. فشاعر كل قبيلة ينظم قصيدة من القصائد يفخر بقبيلته وأمجادها ، ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى، ، فينبرى له شاعر من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورويها ..

لقد وقف شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ، ومفاخرها ومثالبها .. .

وأهم هؤلاء الشعراء : جرير والفرزدق وكلاهما من قبيلة تميم ، الأول من عشيرة كليب اليربوعية ، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً فى عشيرتيهما من جهة ، وفي قيس

---

(١) انظر العصبية القبلية لإحسان النص ، ص ٣٨٠ ، والعصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ، شعراء النقائض ص ٢٤١ وما بعدها .

وتميم من جهة ثانية ، حيث أن عشيرة جرير كانت قد بايعت ابن الزبير فاتفق هوى عشيرته مع هوى قيس .

واشترك كثير من الشعراء في هذه المعارك الشعرية لتحيزهم للفرزدق أو لجرير(١) .

لقد اشتد أوار النقائض بهجائها اللاذع في نطاق العصبيات على كل صعيد .

على صعيد العصبيات الكبرى بين قيس وقحطان ، وعلى صعيد القبائل الكبرى بين فرعي مضر وربيعة ، وفي نطاق العصبيات الصغرى كما حصل بين جرير والفرزدق .

شعر النقائض في نطاق العصبيات الكبرى(٢) :

وذلك بين قبائل قيس واليمن ، حيث أن وقعة مرج راهط كانت الشرارة الأولى ، التي أشعلت نار العداوة المباشرة بين مضرية الشام التي كانت تمثلها قبيلة قيس ، وبين القبائل اليمنية فيها وكثرتها من كلب .

وعلى أثر هزيمة قيس في تلك المعركة اضطر زفر بن الحارث سيد قيس أن يلجأ الى الجزيرة ، وضمت إليه القيسية ، وصار يقول الشعر في التعليق على هذه الموقعة ، يتوعد كلباً وسائر اليمانية بلقاء قريب ، تثأر فيه قيس لهزيمتها يوم المرج ومنها قوله(٣) :

لعمزي لقد أبقت وقيعةُ راهط ... لمروان صدعاً بيننا متنائيـا
أتذهب كلب لم تنلهـا رماحنا ... ويُترك قتلى راهط هي ما هيـا

(١) انظر العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف ص ٢٤١ وما بعدها .
(٢) انظر : العصبية القبلية : د. إحسان النص ص ٤٣٣-٤٤٤ .
(٣) انظر : الطبرى : ٤١٨/٤ ط القاهرة مطبعة الاستقامة ١٩٣٩ م والأغاني : ١١١/١٧ (ساسي) .

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا
فلا صلح حتى تَنْحَطَّ الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيبَنّ غارتي تنوخاً وحيّيْ طيءٍ من شفائيا

فلما بلغت هذه القصيدة أسماع كلب اليمانية ، بادر شعراؤها إلى نقضها ، ومن هؤلاء جواس بن القعطل الكلبي ، الذي أجاب زفر بنقيضته يظهر فيها شماتته بما أصاب قيساً يوم المرج ويهجو زفر وقومه ثم يفخر بقبيلته كلب .

ومنها هذه الأبيات[1] :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط على زفر داءً من الداء باقياً
تُبكي على قتلى سُليم وعامر وذبيان معذوراً وتُبكي البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى سيوف جناب والطوال المذاكيا
عليها كأسد الغاب فتيانُ نجدة إذا شرعوا نحو الطعان العواليا

هذا الشعر يذكرنا بشعر الجاهلية ، فخر وهجاء ، وحماس للقبيلة وأمجادها ، وتشفٍ بالخصوم وشماته .

وانتقلت العدوى إلى العراق بين القيسية واليمانية كذلك بعد وفاة يزيد بن معاوية ، ومقتل زعيم الأزد اليمانية على يد بني تميم من المضرية .

وقد شارك في هذه المعركة عدد ضخم من شعراء نزار واليمن وكذلك ربيعة ، وممن شارك في هذا الأمر الفرزدق وجرير وغيرهما[2] .

---

(١) الطبري : ٤١٨/٤ ، والأغاني : ١١١/١٧ وما بعدها .
« بنو جناب : بطن من كلب ، وفي الأغاني أن الأبيات لابن مخلاة » .
(٢) انظر ما قاله شعراء الفريقين ورجازهم في تاريخ الطبري : ٣٨٧/٤ وما بعدها ، ونقائض جرير والفرزدق ١١٢/١ وما بعدها .

وبلغت هذه المعركة بين شعراء النزارية واليمانية أشدها إبان حكم الوليد الثاني وبعد مقتله ، فقد أثار الوليد بن يزيد سخط اليمانية بسبب تعصبه لقيس ونزار وقتله خالداً القسري زعيم اليمانية ، ولما دعاهم يزيد بن الوليد إلى الثورة بابن عمه الخليفة لبوا دعوته سراعاً ، وانتهى الأمر بقتلهم الوليد .

ومما ينسب إلى الوليد هذا ، قصيدة يهجو فيها اليمن ويحقر من شأنهم ويفخر بالنزارية إذ يقول :

وهذا خالدٌ فينا قتيلًا ... ألا منعوه إنْ كانوا رجالًا
ولو كانت بنو قحطان عرباً ... لما ذهبت صنائعه ضلالا
ولكن المذلة ضعضعتهم ... فلم يجدوا لذلتهم مقالًا[1]

وأجابه شعراء اليمانية بقصائد منها قصيدة لعمران بن هلباء الكلبي إذ يقول منها[2] :

جعلنا للقبائل من نزار ... غداة المرج أياماً طوالا
سنبكي خالداً بمهندات ... ولا تذهب صنائعه ضلالا
ستلقى إن بقيت مسوماتٍ ... عوابس لا يُزايلن الحلالا

لقد أوردت نماذج فقط مما قيل من الشعر في هذا العصر ، حول العصبية بين قيس واليمن ، ولعل وقعة المرج تذكرنا بأيام العرب في العصر الجاهلي ، وما كانت تجره تلك الأيام من أحقاد وثارات ، وتجدد للمعارك والحروب .

---

(١) الأخبار الطوال : ٣٤٨/١ ، أحمد بن داوود الدينوري /ليدن سنة ١٨٨٨ م .
(٢) الطبري : ٥٤٢/٥ ، والحلال : ج حلة أي الجماعة من البيوت .

المناقضات بين مضر وربيعة[1] .

ولم يسلم القريب من هجاء القريب ، ولم تنفع صلة القرابة بين مضر وربيعة، إذ كلا الفرعين ينتسبان إلى نزار وعدنان. كانت قد انحازت ربيعة إلى الأزد في العراق وخراسان ، وتحالفت معها ضد أختها مضر ، بسبب تعارض المصالح القبلية زمن بني أمية .

وقد أدى ذلك إلى التهاجي بين شعراء قيس من جهة ، وشعراء ربيعة (تغلب خاصة) من جهة ثانية .

ومن نماذج هذه النقائض ما جرى بين جرير والأخطل من هجاء ، وقد استمرت المناقضات بينهما زهاء عشرين عاماً ولم تتوقف إلا بوفاة الأخطل عام ٩٢ هـ .

كان جرير يفخر بتميم ومضر عامة ويرمي تغلب وشاعرها بكل نقيصة :

قومي تميم هم القوم الذين هم ... ينفون تغلب عن بحبوحة الدار

وكان الأخطل يرد عليه هاجياً شاتماً :

أزعمت أن بني كليب سادة ... قبحاً لذلك معشراً مذكورا
يا شر من وطيء التراب قبيلة ... حياً وألأم ميت مقبورا

ولا أريد الإطالة ، فشعر الشاعرين ميسور في نقائضهما لمن أراد المزيد[2] .

---

(١) العصبية القبلية : د . إحسان النص ص ٤٤٩-٤٦٥ .

(٢) انظر : المناقضات بين مضر وربيعة : كتاب العصبية القبلية لإحسان النص ص ٤٤٩-٤٦٥ ، ونقائض جرير والأخطل ص ١٠٤ شرح أبي تمام / تحقيق الأب أنطون صالحاني / بيروت ١٩٢٢ م .

النقائض في نطاق العصبيات الصغرى[1] :

وأشهرها ما جرى بين شاعري تميم جرير والفرزدق - كما عرفنا -، ومن تعرض لهما من شعراء مضر أمثال غسان السليطي، والبعيث المجاشعي، والراعي النميري .

وقد استمرت هذه النقائض زهاء خمسة وأربعين عاماً ولم تتوقف معركة الهجاء بينهما إلا بموت الفرزدق عام ١١٤ هـ .

وعندما تعرض الراعي النميري لجرير قال جرير بيته المشهور :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وانصرف الراعي متجهاً إلى منازل قبيلته نمير في نجد وهو يردد : « فضحنا والله جرير » وهم يقولون : هذا شؤمك .

ومما هجا الفرزدق جريرا وقبيلته كليب قوله :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبني وكانت كليب مدرجاً للشتائم

وما يغدو عزيز نبي كليب ليطلب حاجة إلا بجار

وكليب هي عشيرة جرير، ورغم أنها تنتسب إلى قبيلة تميم التى ينسب إليها الفرزدق وعشيرته من بني دارم، فقد وُجه إليها هذا الهجاء المر .

ومما افتخر به الفرزدق بقومه وأحسابهم قوله :

لنا العزة القعساء والقدر الذي عليه إذا عد الحصى يتخلف

ومنا الذي لا ينطق الناس عنده ولكنْ هو المستأذَنُ المتَصرِّف

---

(١) انظر : العصبية القبلية : إحسان النص ص ٤٦٦، ٤٨٠، والعصر الإسلامي : شوقي ضيف (شعراء النقائض) .

تراهم قعوداً حوله وعيونهم مكسّرة أبصارها ما تَصَرَّفُ
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإنْ نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وعندما يرد جرير على الفرزدق لا يقل عنه شتماً وسباً وكان يتهمه بالفسق والفجور ، انظر إلى قوله :

لقد ولـدت أم الفرزدق فاجراً وجاءت بوزواز قصـير القوائم
أتيْتَ حدود الله مذ أنت يافعٌ وشبْتَ فما ينهاك شيب اللهازم[1]

ومن الطبيعي أن قبيلة تميم ما كانت لترضى بهذا الهجاء لأنه أذاع مخازيها في الناس ، حتى لقد ذهب أبو عبيدة إلى أن الله لم يخلق أشأم من هذين الشاعرين على قومهما لإخراجهما مثالب بني تميم وعيوبهم[2] .

لقد عادت العصبية بحدتها وجبروتها بين الجميع ، بين القبائل المتباعدة ، والمتقاربة ، وعاد الفخر كأشد ما يكون ولعل أبيات الفرزدق الآنفـة الذكر تذكرنا بمفاخر أهل الجاهلية ، ومعلقة عمرو بن كلثوم .

لقد شغلت هذه المناقضات الناس في أسواقهم ومُنْتدياتهم ، ولعلها كانت سبيلًا لإذاعة شهرة الشاعرين جرير والفرزدق ، حيث طارت شهرتهما في الآفاق ، فكانت أدنى إلى المنافسة الأدبية منها إلى الخصومة القبلية .

إلا أنها نبشت الماضي البعيد لهذه القبائل وذكرت أهلها بالأمجاد والحروب والأحقاد والثارات فكان أبو عبيدة يعود في شرحه للنقائض إلى أيام العرب وأنسابهم[3] .

---

(١) اللهازم : أصول اللحية .

(٢،٣) انظر النقائض وشرحها لأبي عبيدة : طبعة ليدن جـ ٤٩/٢ – تحقيق بيفان ١٩٠٥ م .

وأخيراً : هل كان الشعر في زمن بني أمية ، يسير على هذه الوتيرة القبلية عند جميع الشعراء ؟

طبعاً لا . حيث كان شعراء الفرق الدينية يصورون عقائدهم وتصورات الفرق التي ينتمون إليها ، وكان شعراء المذاهب السياسية لا يتقيدون بعصبياتهم القبلية أيضاً .

فقد أوجدت العقيدة الدينية رابطة روحية تسمو في أكثر الأحيان على رابطة العصبية القبلية ، وتقطع وشائجها ، بل كثيراً ما نجد أن القتال ينشب بين فرقتين دينيتين تنتميان إلى قبيلة واحدة ، وقد تكررت هذه الظاهرة إبان الوقائع التي دارت بين الخوارج وخصومهم من أهل العراق .

وقد أضعف الهوى السياسي كذلك شأن العصبية القبلية فكان هوى الشاعر مع حزبه الجديد وفكرته الدينية أمثال[1] : الكميت بن زيد ، وشعراء الزبيرية ، والخوارج ، والحزب الأموي .

وكان هنالك شعراء ارتفعوا فوق العصبيات ، وحلقوا في آفاق الإسلام الرحبة مثل : نهار بن توسعة التميمي البكري ، الذي كان يؤثر الانتماء إلى الإسلام وهديه على الانتماء إلى بكر أو تميم[2] : استمع إليه وهو يقول :

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه	إذا هتفوا ببكر أو تميم
دعيٌّ القوم ينصر مدعيه	فيلحقه بذي النسب الصميم
وما كرمٌ ولو شرفت جدودٌ	ولكنّ التقيَّ هو الكريمُ

هذه هي الصورة الوضيئة والحقيقته لأثر اسلام في نفوس أتباعه .

---

(١) انظر : العصبية القبلية : إحسان النص ص ٣٥٦ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ج ٥٣٧/١ ، طبعة دار المعارف .

ورغم كل العصبيات « فقد بقي لمجموع الأمة ، صدق إيمانها وجدية الأخذ من الكتاب والسنة ، وصدق الجهاد في سبيل الله وبقي لها تحقق معنى الأمة ... وفي العموم بقيت روح الإسلام هي السارية في الأمة والسائدة فيها ... » .

« ففي هذا العصر اتسعت الفتوحات الإسلامية ، حتى دق المسلمون أبواب القسطنطينية ، وامتد الإسلام إلى الهند شرقًا وإلى الشمال الأفريقي غرباً .. وغلب الخير على الشر في ذلك المجتمع .. » .

« لقد انتشر الإسلام في سنوات قليلة في رقعة واسعة من الأرض ... ولم يتح للجموع الغفيرة من التربية الإسلامية ما أتيح للجيل الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه ، ومن ثم لم يكن يُتوقع أن تسير الحياة على ذات المستوى الرفيع الذي سارت عليه في العهد الأول ... في مجال السياسة بصفة خاصة »[١] .

ويذكر ابن تيمية رحمه الله أن السنة كانت قبل دولة بني العباس أظهر منها وأقوى في دولة بني العباس ، لأن دولتهم دخل فيها كثير من أهل البدع[٢] .

وهذا طبيعي ومصداقٌ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه : « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[٣] .

---

(١) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ص ١١٩ ، ١٢٤ .
(٢) منهاج السنة : لابن تيمية ٤/١٣٠ .
(٣) متفق عليه . (انظر شرح السنة ١٤/٦٦) .

ثالثاً : الشعوبية :

مظهر العصبية عند الأعاجم

١ - تعريفها : جاء في اللسان : « الشعوبي هو الذي يصغر من شأن العرب ولا يرى لهم فضلًا على غيرهم » .

ويرى الجاحظ : أن الشعوبية هم أعداء العرب ، ويرى بعض الكتاب المحدثين ، أن الشعوبية : « هم قوم متعصبون على العرب ، يفضلون عليهم العجم ، ظهرت دعوتهم بعد دخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة الإسلامية ، فنشأت العدوات بين العرب أصحاب الدولة وبين العجم ... ونحن نطلق لفظ الشعوبية على كل مَنْ ناهضوا العرب في القديم والحديث ، وقاموا يُنقصون من قدر حضارتهم وتاريخهم ... ولهؤلاء الشعوبيين طرق غريبة في الحط من العرب ... »[1] .

ويحدد بعضهم مفهوم الشعوبية : بأنها حركة فكرية اجتماعية ، قامت بها جماعات غير عربية ، بهدف ضرب الكيان العربي من خلال ثقافته وإرثه الحضاري ، وذلك بالتقليل من شأن اللغة العربية ، ومهاجمة التراث العربي الإسلامي .. والاستهزاء بالقيم والمثل العربية ، مقابل الاعتزاز بالإرث الحضاري الأعجمي ، وإحياء الثقافات الأعجمية[2] .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية : د. محمد كرد علي - مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦م ، الجزء الأول ص ٣٥-٣٦ .

(٢) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين : د . فاروق عمر ط ٢ ١٩٨٥ م .

والواقع : إن غياب روح الإسلام ، وابتعاد هذه الشعوب عن الإخلاص إلى الإسلام وحملته ، حمل كثيراً من أبنائها على التعصب لتاريخها ، وانتقاص حق العرب حملة الإسلام ، هؤلاء الذين كانوا مضطهدين عند أكاسرة الفرس ، فظهر التعصب واضحا في صفوف من احتفظوا بأديانهم القديمة كالمانوية والمزدكية والمجوسية وهي ما أطلق عليه اسم الزندقة .

لقد تلبست الزندقة بالشعوبية ، وأمدت كل منهما الأخرى ... فكان بعض الزنادقة يؤمنون بالمجوسية إيماناً حقيقياً ، ومنهم من كان ينظرإليها على أنها تراث قومي خلفه لهم الأجداد[١] .

٢ - موقف الفرس من الإسلام :

ويحسن أن نتعرض بإيجاز لموقف الفرس من الإسلام لأنهم لم يكونوا على موقف واحد ، وإنما يمكن أن نميز فيهم عدة فئات متميزة :

١ - فهناك أناس دخلوا في دين الله وحسن إسلامهم وذادوا عن الإسلام بسيوفهم وعلمهم ومالهم ، وكان على رأسهم الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وغيره من أعلام السلف الذين قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : « كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزلت عليه سورة الجمعة - واخرين منهم لما يلحقوا بهم - قال : قلت : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً ، وفينا سلمان الفارسي . وضع رسول الله صلى الله

(١) انظر كتاب : الزندقة والشعوبية - سميرة مختار الليثي - القاهرة ١٩٦٨ م - رسالة ماجستير .

عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء »[1] .

ولذلك فإن حديثنا عن الفرس المجوس ، عن الفرس الحاقدين ، أما الفرس المسلمون الذين قصدهم الرسول بهذا الحديث فهم إخواننا وسلفنا وأعلامنا ، ونبرأ إلى الله من لوثة كل قومية عربية كانت أو فارسية[2] .

كما أننا لا نتحدث عمن حسن إسلامهم من الفرس فمنهم الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه الله ، ومنهم العلماء الذين خدموا علوم الإسلام ولغة القرآن ، إننا نتحدث فقط عن الشعوبيين منهم ، أصحاب الأهواء القومية المجوسية .

ب - الفئة الثانية : تلك التي اعتنقت الإسلام في حرية تامة ، نتيجة اقتناع كامل ، ولكنها لم تنجح في أن تتخلى عن عقليتها الفارسية ، وخيالها الفارسي ؛ وتراثها الماضي ... وهذا كله يشكل تربة صالحة تنمو فيها مبادىء الزندقة والحقد على الإسلام وأهله .

جـ - فئة ثالثة : هم المجوس الذين لم يعتنقوا الإسلام بل فضلوا الاحتفاظ بعقائدهم المجوسية ، وقد عاملهم المسلمون على أنهم أهل ذمة .

ء - فئة رابعة من المجوس الذين تظاهروا باعتناق الإسلام ، ولكنهم احتفظوا سراً بعقائدهم المجوسية الأصلية ، وأصبح هؤلاء في مقدمة مَنْ ساهموا في حركات الزندقة في العصر العباس الأول[3] .

---

(١) رواه البخاري ، انظر فتح الباري جـ ١٠ ، ص٢٦٧ .
(٢) انظر : كتاب وجاء دور المجوس : د . عبد الله محمد الغريب ص ١٤-١٥ .
(٣) انظر الزندقة والشعوبية : سميرة الليثي ص ٨٧-٨٨ .

لقد كان للفرس حضارة عريقة يعتزون بها ، ومن أجل ذلك كانت مقاومتهم شرسة خلال الفتح الإسلامي ، وكثر فيهم السبي ، ونقض العهود مرة بعد أخرى .

يقول ابن حزم : « إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر في أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة .. »[1] .

. والحقيقة : أن الإسلام لا يفرق بين عربي وأعجمي « لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ... إلا بالتقوى »[2] ولا يقبل بالعصبية أيا كان نوعها أو مصدرها ، من العرب أو الفرس أو غيرهم ، فهي عصبية حاربها الإسلام على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من دعا إلى عصبية »[3] « دعوها فإنها منتنة »[4] .

٣ - نشأة الشعوبية في العصر الأموي :

كانت سياسة بني أمية تعتمد على العنصر العربي ، ولذلك يقول الجاحظ في هذه الدولة : إنها عربية أعرابية مما جعل العنصر الفارسي وبقية الأجناس ، يطالبون بحق المساواة بين الشعوب :

---

(١) ابن حزم : الملل والنحل - ١١٥/٢ (ط القاهرة ١٣١٧ هـ) .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤١١/٥ .
(٣) صحيح مسلم : كتاب الإمارة ج ١٤٧٦/٣ .
(٤) صحيح البخاري : ٦٤٨/٨ / ح ٤٩٠٥ .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات : ١٣ .

إن سياسة الحجاج في العراق وخراسان ، كانت تعتمد على تنفير الموالي من بني أمية ، مما جعلهم يناصبونها العداء حتى آخر عهدها .

ويقول الدكتور يوسف العش[١] :

إن الحجاج ذلل العراق لبني أمية وأصلح حاله من حيث موارده ، إلا أنه كان يخالف منظار الإسلام العام ومصلحة العرب ، فلو كان في العراق غيره في عهد عبد الملك كزياد مثلًا لتغيرت الأمور ، فقد كان بإمكان والى العراق أن يعامل الموالي معاملة جيدة ، وأن يقربهم من العرب كما فعل عمر ابن عبد العزيز رحمه الله في المدينة ، فيصبحوا عرباً ، ودليلنا على ذلك أن قضية الموالي لم تثر في الشام وأن الموالي في الشام قد استعربوا وأصبحوا عرباً .

والحق أن الأمويين قصدوا في عهد زياد بن أمية تعريب الموالي ، فقد استخدمهم زياد في ديوان الخراج ، واتخذ منهم بطانة له .. وكان بالإمكان تأليف قلوبهم ، لكن الحجاج طبع على أذرعهم ، وميزهم كل التمييز عن العرب ، بما طبعه على أذرعهم ، وبالجزية التي فرضها عليهم ..

وكان بينهم عدد من العلماء والصناع الفنانين فألحقهم جميعاً بالأرض .. وخاصة بعد ثورة ابن الأشعث – لأنهم اشتركوا فيها ... كل ذلك ليسد حاجة السواد إلى الفلاحين والمزارعين ، ورأى أن الجزية تناقصت بسبب إقبال عدد كبير من الموالي على الإسلام ... فأول دخولهم في الإسلام بأنهم يريدون الهرب من الجزية ، وألزم الداخلين مجدداً في الإسلام بدفع الجزية .

---

(١) الدولة الأموية : د . يوسف العش ص ٢٢٣-٢٢٦ .

« ثم يقول[1] : ولما خرج الموالي من البصرة عائدين إلى أراضيهم اجتمعوا خارج البصرة فخرج إليهم القراء متحجبين لئلا يعرفهُم رجال الحجاج وصاروا يبكون مع الموالي ويندبون سوء حظهم .

ولما جاء عمر بن عبد العزيز أخلى للموالي الحرية بأن يهاجروا أنى شاءا ومتى أرادوا .

سياسة عمر هي سياسة الإسلام في الخراج أو وضع الجزية عمن أسلم » .

لقد انضم الموالى – والفرس خاصة – إلىٰ كل ثائر على بني أمية ، انضموا إلى ثورة الحسين بن علي رضي الله عنهما عندما ثار على بني أمية .. وانضموا إلى ثورة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، ثم انضموا إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وكانت غالبية جيشه من أبناء الفرس وكانوا يسمون بالحمراء[2] .

ثم انضم هؤلاء إلى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، ويزيد بن المهلب الذي ثار على يزيد بن عبد الملك ...

وأخيراً انضموا إلى الثورة العباسية ، وساهموا في إسقاط الدولة الأموية .

لقد كانت سياسة بني أمية هذه ، إضافة إلى حمى العصبية القبلية بين المضرية واليمانية ، وأسباب أخرى ، سبباً في انتهاء الحكم الأموي .

وقد يكون لبني أمية عذرهم آنذاك ، عندما وجدوا أحقاد الشعوبية مستحكمة ، وأن أمير المؤمنين قد قتل على يد الفارسي المجوسي أبي لؤلؤة..

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٦٩-٢٧٣ .

(٢) انظر ابن الأثير في تاريخه : الجزء الرابع .

فعمر رضي الله عنه كان عهده قريباً من زمن بني أمية ، وشبح الحقد المجوسي كان ماثلًا لدى المسلمين .

ولكن هل يشفع هذا كله ، حفاظاً على الإسلام ودفاعاً عن كيان المسلمين ، لتجاوز أسس الإسلام في المساواة والعدالة ؟ - إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى - لعل ذلك اجتهاد يؤجرون عليه ولو كان فيه الخطأ .

لقد بدا لبني أمية أن غلاة الشيعة كالسبئية والهاشيمة « أتباع أبي هاشم ولد ابن الحنفية » اتخذوا التشيع ستاراً يخفون فيه أحقادهم على الإسلام ، وينفذون من ورائه إلى تحقيق أهدافهم الباطنية .

لقد كان الفرس يرون فى أولاد «شاهبانو» من إحدى بنات يزدجرد الثالث التى تزوجها الحسين بن على وارثين لملوكهم الأقدمين من الأكاسرة ، وورثة لتقاليدهم القومية .

وكان جهم بن صفوان ، صاحب فرقة الجهمية ، رجلًا فارسياً ، اعتنق الإسلام ونشر بدعته في الكوفة .

لقد تسلل هؤلاء الشعوبيون مع الأسف ، إلى معاقل الأمة وحاولوا الإفساد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا[1] .

بينما ظهر من الموالي في هذا العصر - عصر بني أمية - معظم فقهاء الأمصار أمثال : الحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، ومكحول إمام أهل الشام في زمنه ، ونافع مولى ابن عمر ، وعطاء ابن أبي رباح .

---

(١) انظر : الزندقة والشعوبية ص ٤٦-٤٩ .

هؤلاء هم سادة التابعين ، فالإسلام يحمله ، ويتفانى في خدمته أبناؤه جميعاً أياً كانت أصولهم وجنسياتهم .

نصر بن سيار والي الأمويين في خراسان :

كان هذا الوالى قد أدرك خطورة الأمر في خراسان فحاول أن يرضي الموالي الفرس فأعلن سنة (١٢١ هـ) سياسة مالية وإدارية جديدة نظم فيها شؤون الخراج وأعفى كل من اعتنق الإسلام من الجزية[١] .

إلا أن شدة العصبية بين قبائل العرب الكبرى وانقسام العرب فيها إلى كتلتين رئيسيتين يقود أحدهما نصر بن سيار ويقود الثانية جديع بن علي الأزدي الكرماني ، قد ساعد على تفويت الفرصة على بني أمية هنالك .. لقد مَلَّ العرب هذا الصراع غير المثمر[٢] .. وصارت نفوسهم تتطلع إلى غير ما هم فيه ، وإلى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة العباسية يدعو اليماني من الشيعة اليماني ، والربعي الربعي ، والمضري المضري ، حتى كثر من استجاب لهم وكفوا بذلك عن القتال والعصبية .

وقد كان أكثر أنصار الدعوة العباسية من عرب اليمانية ، ثم من ربيعة وبقية العرب ، ثم من الموالى[٣] .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ٦/٥٤ ، والحوليات التاريخية : الطبري ، وابن كثير ، وابن الأثير .

(٢) انظر : مقالًا بعنوان : تقويم جديد للدعوة العباسية ، د . فاروق عمر – مجلة العرب السنة الرابعة – ذو الحجة ١٣٨٩ هـ .

(٣) انظر الزندقة والشعوبية ص ٤٦-٤٩ .

وقد أبدى نصر بن سيار أمله إذ رأى البيت الأموي منقسماً على نفسه ، وحذرهم في هذه الأبيات من خطر يهددهم ويهدد العرب والإسلام إذ يقول[1] :

أرى بين الرماد وميض جمر	ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودَيْن تُذكى	وإن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام
ففرّي عن رحالك ثم قولي	على الإسلام والعرب السلام

كان نصر شاعراً مجيداً ، وقد أنشد قصيدة أخرى تصور هذه الفتنة ، ويدعو فيها العرب إلى وحدة الصف ، وقد وصف العدو بأنه لا دين له ، وأن الشعوبيين جاءوا بأديان لم يسمع بها أحد عن الرسول عليه الصلاة والسلام نذكر منها هذه الأبيات[2] :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها	أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم	كأن أهل الحجى عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أخلكم	ممن تأشب ولا دينٌ لا حسبُ
ليسوا إلى عرب منا فتعرفهم	ولا صميم الموالي إن هُمُ نُسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به	عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم	فإن دينهم أن تقتل العرب

هذا الشعر يصور ولا شك مأساة العرب والمسلمين في خراسان ، وبقية بلاد الخلافة ، حيث فرقتهم العصبيات القبلية من جهة ، والخلافات السياسية وانقسام البيت الأموي من جهة أخرى ، وتحرك الموالي مؤيدين للثورة العباسية من جهة ثالثة .

(١،٢) الدينوري : الأخبار الطوال (ص ٣١٢-٣٤٣) والأغاني ٥٦/٧ .

« ويبدو لنا أن نصرً بن سيار قد حاول أن يشوه سمعة الشيعة العباسية واصفاً إياهم بالكفر والمروق ، كما أنه تعرض لنسبهم وأصالتهم .. ولم يقف الدعاة العباسيون مكتوفي الأيدي تجاه هذه الدعاية الّتي أقلقتهم لأنهم خشوا أن يتأثر بها الأتقياء والعامة من الناس ولذلك قاموا بدعاية مضادة حيث نودي إلى الاجتماع ، وبايع المجتمعون سليمان الخزاعي شيخ النقباء العباسية : « على كتاب الله وسنة رسوله وإظهار العدل وإنكار الجور ، ورفع الظلم عن الضعفاء » كما أجاب أحد الدعاة العباسيين نصراً بن سيار شعراً بقوله :

لسنا نحابي على الرحمن من أحد فيما نطالب من مولى ومن عرب

ويبدو أن هذه النعوت التى أطلقها كل من المعسكرين على الآخر كانت لأسباب دعائية(١) .

وعلى العموم فإن ابن تيمية يذكر أن السنة كانت قبل دولة بني العباس ، أظهر منها وأقوى في دولة بني العباس ، لأن دولتهم دخل فيها كثير من أهل البدع(٢) .

٤ - الشعوبية في العصر العباسي :

قامت الثورة العباسية في خراسان ، وكان عصبها الرئيسي القبائل العربية الخراسانية وخاصة اليمانية والربعية ، كما أنها جذبت إليها الموالي الفرس ،.. وكان أهل خراسان وحدة عسكرية واحدة واستمروا يرتبطون برابطة الأقليم بغض النظر عن قبائلهم يتمسكون بالولاء للدولة .

---

(١) انظر : الدكتور فاروق عمر : تقويم جديد للدعوة العباسية مقال في مجلة العرب .
(٢) منهاج السنة : ١٣٠/٤ .

ولقد عملت هذه الثورة على إيقاظ الآمال في نفوس عامة الناس ، وبعثت فيهم آمال التطلع نحو مستقبل أفضل فانفسح المجال لانطلاق الكثير من الآراء الإيرانية التي تبلورت أكثر كلما تقادم الزمن بالدولة العباسية[1] .

إن الثورة العباسية كأي ثورة جذرية أيقظت في نفوس الجماهير عربية وغير عربية ، الكثير من آمال التطلع نحو أوضاع أفضل ، وبعثت روح التحسس المرهف واليقظة الواعية التى كان من مظاهرها انفساح المجال لانطلاق الكثير من المشاعر الإيرانية القليلة المتأصلة عندهم قبل الإسلام وبعده ، فكان بعضها مباشراً مسلحاً ، وبعضها الآخر غير مباشر وغير مسلح ومن هذا الصنف الأخير كانت الحركة الشعوبية ... ومع بقاء التفوق والسيادة للعرب ، وثقافتهم العربية الإسلامية ، انفجرت حركة مضادة للعرب وثقافتهم وتلك هي الشعوبية[2] .

إن نجاح الثورة العباسية جعل العديد من القطاعات والشرائح الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي تتوقع أن يحقق العباسيون آمالهم وبسرعة ، ولكن النظام العباسي لا يستطيع أن يرضي كل القطاعات الاجتماعية ، فحدثت الشقة وتوسع الخلاف بين النظام الجديد وبين الأجنحة المتطرفة للثورة العباسية ، ومن هؤلاء الخرّمية الذين قاموا بحركات عديدة ضد الخلافة العباسية ابتداء من تحركهم في خراسان في عهد الخليفة السفاح وانتهاء بحركة بابك الخرمي التي قضى عليها الخليفة المعتصم[3] .

لقد كان الخليفة عربياً عباسياً ، وعصبيته لا يمكن أن تكون إلا عربية ، مع أن الحكم يستند إلى قوميات مختلفة ... والدين هو الذي وحد

(١،٢) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين : فاروق عمر ص ١٠٧،١١٢ وص ٢٢٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٢٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ - ٢٧٥ .

هذه الأقوام ، فهي تعيش في كنفه ، ولا غلبة لأحدها على الآخر في هذا العصر .. .

هذه الأقوام ثقافتها عربية على الإجمال، ولغتها عربية وتحكم من عاصمة عربية ذات ثقافة عربية ، ومع ذلك فإن هذا الحكم لا يعتمد على عصبية قومية (عربية أو فارسية أو إقليمية) ، إنما يعتمد على الدين ، وإلى جانب الدين حكم الفرد الذي يُسَيِّر كل شيء بسلطانه .

حتى الجيش كان المنصور قد قسمه إلى فرق أربع ، المضرية والربعية واليمنية والخراسانية منها ثلاث عربية ، وفرقة يتخللها فرس[١] .

وكان اصطلاح أهل خراسان - كما عرفنا - يعني أولًا مكان خراسان من قبائل العرب المستقرة والمقاتلة مثلما كان يعني اصطلاح أهل الشام أو اصطلاح أهل البصرة وأهل الكوفة من العرب سكان هذه المدن والأقاليم ، إضافة إلى مواليهم من السكان غير العرب الذين دخلوا في الإسلام[٢] .

وبعد قيام الدولة العباسية حفظ خلفاء بني العباس لأهل خراسان هذا الجميل ، نجد ذلك في وصية المنصور لولده المهدي « أوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك .. أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم .. »[٣] .

حاول العباسيون إقامة دولتهم على أساس التوازن بين العرب وغيرهم من الموالي وخاصة الفرس ، بل أشركوا الفرس في كثير من مظاهر السلطان

---

(١) كتاب تاريخ عصر الخلافة العباسية ، ط دار فكر ١٩٨٢ م الدكتور يوسف العش .

(٢) فاروق عمر : ص ١٢٣ ، التاريخ الإسلامي .

(٣) تاريخ الطبري : ٣١٩/٩ ، المطبعة التجارية بالقاهرة ١٩٤٩ م .

والجيش والإدارة ، واتخذوا منهم الوزراء ، وقد حفظ المهدي وصية والده في إقامة التوازن، مع ميله إلى العدول والتسامح والمساواة، إلا أن قيام حركات الزندقة في زمنه جعلته وجعلت من بعده من الخلفاء العباسيين يعيدون النظر في سياستهم مع الشعوبيين من الفرس ... وسار الرشيد على منهج والده في سياسة حفظ التوازن ، إلا أن اطلاعه على حقيقة البرامكة – فيما يبدو – جعله يبطش بهم بقوة[1] .

موقف الخلفاء العباسيين من وزرائهم :

إن موقف الوزراء فيه عجب غريب ، وكان أمرهم محيراً ، لقد وثق خلفاء العباسيين بهؤلاء القوم ، واستوزروا عدداً منهم ، فكان الطبيعي أن يخلص هؤلاء الوزراء لخلفائهم وللمسلمين ، إلا أن النتائج كانت غريبة ومأساوية ، إذ بطش خلفاء العصر العباسي الأول بوزرائهم وقتل معظمهم – وقديماً قيل : من مأمنه يؤتى الحذر . ولو كانت دعوى الإنصاف ، (وتحقيق التسوية) صادقة ، لسكت الشعوبيون في هذا العهد .

وقد يزول استغرابنا إذا عرفنا خلفية هؤلاء الوزراء وارتباطهم بتراثهم الفارسي ، أو تعلقهم برواسب الزندقة ديانة المجوس .

قد تكون هنالك أسباب أخرى ، كأن يشعر الخليفة بتجاوز الوزير سلطاته إلى حد غير معقول ، إلا أن النتائج مع معظم الوزراء ، كانت تدل على خلفيات عميقة ، تخرج خلفاء بني العباس عن اتزانهم .

فأبو سلمة الخلال يقتله السفاح عندما حدثته نفسه بأن يبايع علوياً ، وحاول أن يعمي أمر السفاح وأقاربه على قواد شيعته عندما نزلوا عنده ،

(١) انظر : الزندقة والشعوبية : (ص ٦٨-٧٠ ، ١٧١، ١٧٢) .

وكان يقال له : وزير آل محمد[1] . وكان قد أرسل الرسائل إلى بعض زعماء العلويين[2] .

وأبو مسلم الخراساني[3] :

قتله أبو جعفر المنصور ، رغم بلائه في إقامة الدولة العباسية .

كان أبو مسلم سفاكاً للدماء ، يفوق الحجاج في ذلك ، وهو أول من سنّ للدولة لبس السواد ... وكان بلاءً عظيماً على أهل خراسان ، فقد أبادهم بالسيف ... ومن أجل ذلك يقول الذهبي رحمه الله :

« فرحنا بمصير الأمر إليهم – بني العباس – ولكن والله ، ساءنا ما جرى ، لما جرى من سيول الدماء ، والسبي والنهب ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .. فالدولة الظالمة مع الأمن وحقن الدماء ، ولا دولة عادلة تنتهك دونها المحارم ، وأنى لها العدل ؟ بل أتت دولة أعجمية خراسانية ، ما أشبه الليلة بالبارحة »[4] .

وكان أبو جعفر المنصور يقول للسفاح يا أمير المؤمنين ، أطعني واقتل أبا مسلم ، فوالله إن في رأسه لغَدْرة . فقال : يا أخي قد عرفت بلاءه وما كان منه ، وأبو جعفر يراجعه ...

وكان أبو مسلم قد قتل شيخ النقباء ، سليمان بن كثير الخزاعي وخلقاً كثيراً ، وعندما مثل أمام المنصور قال له : « يا أمير المؤمنين استبقني

---

(1) سير أعلام النبلاء : الذهبي ٦٠/٦ مؤسسة الرسالة ط : ثانية .

(2) الفخري : ص ١٣٧ –١٣٩ ، عن تاريخ الإسلام السياسي ١٩٨٢ م جـ٢/٩٣ .

(3) انظر سير أعلام النبلاء : أبو مسلم الخراساني : ج ٦ ص ٤٨،٧٣ والكامل في التاريخ : حوادث سنة ٣٧ –ـ ص ٣٥ ، طبعة دار الفكر بيروت ١٩٧٨ م .

(4) سير أعلام النبلاء : الجزء السادس ص ٥٨ .

لعدوك ، فقال المنصور . لا أبقاني الله إذاً ، وأيُّ عدو لي أعدى منك ؟! » .

أما البرامكة[1] :

فقد كان أمرهم أعجب ، إذ استوزرهم الرشيد ، وسلمهم أمر الخلافة ، ثم قتل جعفر بن يحيى وسجن والده وإخوته حتى ماتوا بالسجن وصادر ممتلكاتهم وأموالهم .

قيل : إن أخت الرشيد قالت له : ما رأيتُ لك سروراً منذ قتلت جعفراً ، فلم قتلته ؟ قال : لو علمتُ أن قميصي يعلم السبب لمزّقته .

فقد كان ألمه شديداً ، والجرح غائراً ، حتى أن الرشيد أمر مناديه أن ينادي : « ألا لا أمان لمن آوى برمكياً وصلب الرشيد أنس بن أبي شيخ على الزندقة ، وكان مختصاً بالبرامكة[2] وذلك بعد أن قتل جعفر وصلب ... وقد وصف أبو العتاهية هذه المأساة في شعره[3] :

قولا لمن يرتجي الحياة أَمَا	في جعفر عبرة ويحياه
كانا وزيري خليفة الله ها	رون هما ما هما وزيراه
شتت بعد الجميع شملهُم	فأصبحوا في البلاد قد تاهوا
كذاك من يسخطِ الإله بما	يُرضي به العبدَ يجزِهُ الله
سبحان من دانت الملوك له	نشهد أن لا إله إلا هو
طوبى لمن تاب قبل عثرته	فتاب قبل الممات طوباهُ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٥٩/٩ -٧١ ، وابن خلكان ٣٣٦/١ .

(٢) تاريخ الطبري : ٢٩٥/٧ ، ٢٩٦ ، والسير ص ٦٧ .

(٣) تاريخ الطبري : ٣٠١/٨، ٣٠٢ ، والسير ج ٩ ، ص٧٠ للذهبي .

ويبدو أن أصابع الاتهام بالزندقة ، كانت تحوم حول البرامكة ، ولعل ذلك ما أذهل الرشيد ، رغم حُبّه للبرامكة .

يقول عنهم البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق[1] : « ... وكان البرامكة قد زينوا للرشيد ، أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً ، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار » .

وقد ذكر الإمام الشاطبي في الاعتصام[2] : نقلًا عن ابن العربي قال : « أول من اتخذ البخور في المسجد بنو برمك .. وكانوا باطنية يعتقدون آراء الفلاسفة فأحيوا المجوسية واتخذوا البخور في المساجد.... وإنما تُطيّب بالخلوق .. فزادوا التجمير ويعمرونها بالنار منقولة » .

وجاء في هامش الاعتصام : « والظاهر أن البرامكة من رؤساء جمعيات المجوس السرية ، التى تحاول هدم الإسلام وسلطة العرب ، وإعادة الملك للمجوس ، وإنما فتك بهم الرشيد لأنه وقف على دخائلهم »[3] .

ويذكر الجهشياري[4] : أن جعفر البرمكي قرب إليه بني سهل ، وكانوا وقتئذ مجوساً لم يعتنقوا الإسلام بعد ، وقد اعتنق الفضل بن سهل الإسلام زمن الرشيد ، ثم صار وزير المأمون وهو الذي زين له تحويل الخلافة إلى العلويين ، فولى علياً الرضا عهده ، وما لبث المأمون أن تخلص من الرجلين .

---

(١) الفرق بين الفرق : البغدادي ص ٢٧٠ ، ط القاهرة ١٩٤٨ م .

(٢) الاعتصام : للشاطبي جـ٢/١٠٤ ، مكتبة الرياض الحديثة .

(٣) هامش الاعتصام : جـ٢/١٠٤ أيضاً .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٣٢، مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٣٨ م .

وتتلخص سياسة البرامكة الداخلية في هذا العهد أنها ميل إلى العنصر الفارسي ، ورفق بآل علي ، وإشفاق على خراسان .. واستبداد البرامكة بالدولة وأموالها ، إذ استمروا على هذه السياسة من سنة : ١٧٠ – إلى سنة ١٨٧ هـ ، كانوا هم أصحاب الأمر في الدولة الإسلامية ... كل ذلك والرشيد يراقب الأمور وهو ساكت ولعله راض ... ولكن حساد البرامكة كثيرون فلابد أن يذكروا للرشيد ما استتر من أعمالهم .

ويبحث المؤرخون عن أسباب نكبة البرامكة .. وأسبابها تكمن في سياستهم نفسها فهي حرية أن تؤدي إلى النكبة ، وإلا ظل الرشيد مغلوباً على أمره ... ولا يعني ذلك أن الرشيد أنكر جميلهم ، وإنما كان الحادث إنقاذاً للموقف المتدهور[١] .

وكانت سياستهم القومية ، سياسة لها معناها عند من يختبر الأمور ، فقد عين البرامكة أقاربهم وأصحابهم ، وأبناء جلدتهم من العنصر الفارسي ، وكانوا يحيطون أنفسهم بالفرس ، ومن الفرس من كانوا من العشوبيين كسهل بن هارون ، وكان كاتبهم ، ثم أدخلوه في بيت الحكمة في خدمة الرشيد ، وكان يكتب ينقد العرب وهو في خدمة الرشيد .. ولعل الرشيد شعر بأن البرامكة يقومون بأمر في خراسان فاستبعد واليها موسى بن يحيى واكتشف أن له شيعة فيها ، يراسلهم من بغداد نفسها فعزره الرشيد وأوقفه ولم يطلقه إلا بتوسط والدته[٢] .

« ويظهر أن البرامكة رغم إخلاصهم في خدمة الدولة ، من ناحية إدارية إلا أنهم لم يخلصوا لها من ناحية عقائدية »[٣] وهذا شأن المجوس قديماً وحديثاً .

---

(١) الخلافة العباسية : د. يوسف العش ص٦٨ .

(٢) الخلافة العباسية : سياسة البرامكة القومية ص ٦٧-٦٨ .

(٣) الزندقة والزنادقة : عاطف شكري عوض ص ١٦٦ .

٥ - وسائل الشعوبيين في تحقيق أغراضهم :

اتخذ الشعوبيون وسائل متعددة لتحقيق أهدافهم في العصر العباسي ، وخططوا للوصول إلى ما يريدون ، في كل مجال : استخدموا العنف والقوة ، وشوهوا الثقافة والأدب ، وأشاعوا الفوضى الخلقية ، وتسللوا إلى التشكيك في قضايا العقيدة والحديث والفقه .. وسوف أستعرض هذه الوسائل بإيجاز .

أ - الناحية السياسة والثورة المسلحة :

بعد أن قتل المنصور أبا مسلم الخراساني ، قامت ثورات متعددة مسلحة وخطيرة ثأراً للزعيم المقتول ، وكشفت هذه الثورات عن نواياها بلا وجل ولا تردد ، وأهم هذه الثوارات :

ثورة سنباذ المجوسي[1] : وكان قد أعلن ثورته عام ١٣٧ هـ ، وهو أحد أتباع أبي مسلم ، وكان يؤمن أنّ أبا مسلم لم يقتل ، وإنما حول الزعيم الراحل نفسه إلى حمامة بيضاء وهرب من بطش المنصور ، وكان قد بلغ أتباع سنباذ مائة ألف ثائر .

وأدرك الخليفة العباسي خطورة هذه الحركة فأرسل جيشاً يتألف من عشرة آلاف جندي ، قتل سنباذَ نفسه . ونحواً من ستين ألفاً من أتباعه .

ثم قامت حركة الراوندية : في خلافة المنصور أيضاً ، وكانوا قد ألّهوا المنصور أولًا ، ثم حاولوا قتله لما كشف نواياهم وقضى عليهم بنفسه[2] .

---

(١) انظر : الطبري ١٤٠/٦-١٤١ ، والكامل في التاريخ ٣٥٧/٤ .
(٢) الكامل لابن الأثير : ٣٦٥/٤ ، وتاريخ الإسلام السياسي ١٠٤/٢ .

وفي خلافة المهدي ، ظهرت **حركة المقنع الخراساني**[1] : إذ ادعى الألوهية ، وكان على مذهب مزدك ، يشيع الإباحية والفوضى الاجتماعية ، وكان قد أسقط عن جماعته الفرائض ، وقتل من العرب المجاورين له عدداً كبيراً .

ومن الثورات الشعوبية الحاقدة ، والتي شغلت الدولة العباسية قرابة عشرين سنة ، **ثورة بابك الخرمي**[2] : وذلك طوال عهدي المأمون والمعتصم ، وقد حاول بابك إحياء مذهب مزدك الإباحي كذلك ، وحملت الخرّمية راية الثورة المسلحة ، وانتشرت دعوتها في بلاد فارس وكان بابك قد حاول التحالف مع الدولة البيزنطية ، وشارك أتباعه الروم في الهجوم الذي قام به الروم سنة ٢٢٣ هـ ، واحتلوا مدينة زبطرة وأشعلوا فيها النيران ، ومما حدا بالمعتصم أن ينتقم من الروم ، ويجهز جيشاً يقوده بنفسه ، ويحتل مدينة عمورية ويشعل فيها النيران ، وذلك ما خلدته قصيدة أبي تمام البائية :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلًا معسولة الحلب

ب – فى مجال الثقافة والأدب :

حقد الشعوبيون على لغة القرآن التي اكتسحت لغتهم ، وعلى ثقافة العرب (وأدبهم) تلك التي تحمل طابع الإسلام ، « ولذلك بدأ المثقفون الأعاجم محاولات جديدة للحفاظ على لغتهم من الضياع ، واستخدموا من أجل ذلك عدة وسائل منها :

---

(١) الطبري : ٣٧٦/٦ ، والكامل لابن الأثير : ٥٢/٥ .
(٢) الكامل في التاريخ : ٢٣٧/٥-٢٤٤ ، والزندقة والشعوبية ص ١١٥-١٣٣ .

١ – ترجمة التراث الفارسي الأدبي إلى العربية .

٢ – كتابة مؤلفات جديدة تظهر أهمية العجم ، وتمجد دورهم الحضارى... ويقول جب عن هذه المرحلة : (دراسات في حضارة الإسلام ص١٦) .

« وتأصل النزاع بين التراثين العربي والفارسي حتى مَسّ الجذور ، فلم يكن جوهر النزاع مسألة سطحية تتناول الأساليب والأشكال الأدبية ، إنما كان جوهره يتناول الوجهة الثقافية للمجتمع الإسلامي الجديد برمتها » .

٣ – التأكيد على التاريخ والثقافة الفارسية ، وإظهارها بمظهر المتفوق »[1] .

وقد عبر الشعوبيون عن أحاسيسهم القومية والدينية عن طريق القصص والشعر ، المترجم إلى العربية ، والمؤلف بالعربية أيضاً مما أدى « إلى ظهور حركة أدبية مزدكيـه قوية منذ القرن الثاني .. أدت إلى إيقاظ الروح القديمة عند معتنقي الإسلام وذراريهم »[2] .

وممن ساهم في هذا المجال ابن المقفع ، يقول عنه ابن النديم في الفهرست وكان معاصراً له : « كان ابن المقفع يعتني بكتب المانوية ، ونقل إلى العربية منها كتباً ، خص بالذكر منها كتابة ديانة مزدك » .

وقال الخليفة المهدي : « وما وجدت كتاب زندقة ، إلا وأصله ابن المقفع »[3] .

ومن هؤلاء الزنادقة المجان : الشاعر بشار بن برد، وكانت له نزعة مانوية واضحة ، وكان في البصرة مثالًا للتهتك والفجور ، وقد نفي عن

(١) التاريخ الإسلامي : د. فاروق عمر ص٢٢٩–٢٣٠ .
(٢) الزندقة والزنادقة : ص١٠٣، ١٨٤ عاطف شكري .
(٣) وفيات الأعيان : ١٢٥/٢ (طبعة وستنفلد) .

البصرة بسبب فجوره ثم عاد . وكان المهدي قد نهاه عن الغزل الماجن فقال :

قد عشت بين الريحان والراح　　المزهر في ظل مجلس حسن

ثم يقول : مشيراً إلى أنه قدملأ البلاد :

شعراً تصلى له العواتق والثيب　　صلاة الغواة للوثن

ثم نهاني المهدي فانصرفت　　نفس صنعَ الموفق اللقِن

ولم يكتف بشار بدعوته الإباحية هذه ، وإنما عمل على إحياء الديانة الفارسية القديمة ، انظر إلى تفضيله عبادة النار على عقيدة المسلمين ، قال أخزاه الله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم　　فتبينوا يا معشر الأشرار[1]

النار عنصره وآدم طينة　　والطين لا يسمو سمو النار

والأرض مظلمة والنار مشرقة　　والنار معبودة مذ كانت النار

وكأن بشاراً يفخر بأصله الفارسي ، ومجد قومه العريق[2] :

سأخبر فاخر الأعراب عني　　وعنه حين تأذن بالفخار

تفاخر يا ابن راعية وراع　　بني الأحرار؟ حسبك من خسار

وكنت إذا ظمئت إلى قراح　　شركت الكلب في ولغ الإطار

تريغ بخطبة كسر الموالي　　وينسيك المكارم صيدُ فار

مقامك بيننا دنَسٌ علينا　　فليتك غائب في حر نار

ثم حاول الشعوبيون أن يزيفوا الشعر والأدب ، لأنه مجال فخر العرب ، وفيه ذكر أمجادهم وتراثهم ، ويعبر عن قيمهم ومثلهم وأخلاقهم ،

---

(١) الأغاني : ٢٤/٣، وانظر الزندقة والشعوبية ١٩٥-٢٠٢ .
(٢) الأغاني : ٣٣/٣ ، الزندقة والزنادقة ١٧٧-١٧٨ .

وحالوا إفساد الشعر والعبث به ، حتى يهدموا ركناً أساسياً من بناء الشخصية العربية .

حاول بعض علماء الشعوبية أن يضعوا القصائد كذباً على لسان بعض المشاهير من شعراء العرب ، وتولى كبر هذا التزوير أمثال : حماد الراوية الكوفي الذي قال عنه صاحب المفضليات : « سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً »[1] وخلف الأحمر الذي وضع أشعاراً كثيرة لشعراء عديدين أمثال شعراء عبد القيس وغيرهم ، وما كان في رواة الشعر أحد أشعر منه ، كان معلم أهل البصرة وراويها حتى أجمعوا أنه أفرس الناس ببيت شعر .

ومن هؤلاء أبو عبيدة معمر بن المثنى كان أصله من يهود فارسى ، أسلم جده ، ومال أبوه إلى مذهب الخوارج ، وورث عنه ولده هذا الميل ، وحاول أن يضع الكتب في مثالب العرب على طريقة الشعوبيين ... وكان يدخل شعر الشاعر في شعر الآخر ، وينسبه إلى غير قائله ليفسد تراث الاثنين معاً .. وقد وقف الأصمعي ، والمفضل الضبي وأمثالهم لهؤلاء الشعوبيين بالمرصاد ، فاكتشفوا زيفهم ، وامتنعوا عن الرواية المنحولة ، ودلوا الناس عليها ، فافتضح أمرهم . فمثلًا : لم يرو الأصمعي في كتابه الأصمعيات ، حيث بلغت اثنين وتسعين نصاً شعرياً لواحد وسبعين شاعراً ، لم يرو لخلف الأحمر إلا في موضع واحد حيث روى عنه أبيات «عبد الله بن جنح النكري» النسبة فانظر كم يكون حجم النسبة بين نص شعري واحد وواحد وتسعين نصاً[2] .

---

(١) معجم الأدباء ١٧١/٧ وأمالي المرتضي : ٩١/١ .

(٢) انظر تفصيلًا لذلك : كتاب الأصمعي واتجاهه الخلقي في الرواية الأدبية – دكتور جلال صابر حجازي / مؤسسة الوفاء للطباعة ١٤٠٥ هـ ./ الباب الثاني ص٣١٨-٤٠٦ ، حيث بين موقف الأصمعي من رواية هؤلاء المبطلين المنتحلين .

لقد حاول الشعوبيون أن يزيفوا الشعر والأدب ، فخلطوا الصحيح منه بالسقيم (أمثال حماد الرواية) ، وكان منهم أبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي ترجم كثيراً من أدب الفرس القديم .

وقد صور الجاحظ خطر الشعوبيين عندما قال :

« فإنما عامة من ارتاب بالإسلام ، إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبيين ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف » « إنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه .. »[1] .

وقد أدرك أنصار العرب والإسلام من المثقفين أمثال الجاحظ وابن قتيبة هذا الخطر وكتبوا سلسلة من الكتب والرسائل ، فنشأ أدب عربي إسلامي يرد على الشعوبية ، ويبين مدى سعة وثراء موارد التراث العربي ، وهاجم الكتاب الشعوبيين وأظهر تعصبهم وضيق أفقهم ، وعدم جدوى الموقف الساخر السلبي الذي يقفه هؤلاء الكتاب من القيم العربية .

وكان أدب الجاحظ موضع إقبال شديد من الجمهور ، ومن المشايعين للكتاب الشعوبيين أنفسهم، وصمد الشعوبيون في موقفهم عقداً أو عقدين ، ولكنهم اضطروا في النهاية إلى الاعتراف بأن العلوم العربية والإسلامية قد انتصرت »[2] .

وكان علماء اللغة قد أبانوا إفساد الرواة الشعوبيين وحذروا الناس منهم .

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١٤/٣ .

(٢) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين : فاروق عمر (ص٢٣٤ وص٢٣٥ .

جـ - الناحية الاجتماعية :

هدد الشعوبيون والزنادقة حياة المجتمع العربي الإسلامي عندما نادوا بالحرية الاجتماعية ، ونددوا بالمثل الخلقية ، والقيم الإسلامية ، والعادات العربية ، وكانوا قد نزعوا إلى المجون ، وتستروا وراء ما سمّوه ظرفاً وحضارة .

وهاجموا مفهوم الشجاعة عند العرب ، وسخروا من مفهوم الكرم عندهم ، وبالغوا في التشنيع على هذه الخصلة الحميدة ، حتى أن سهل بن هارون ألف رسالة يمدح فيها البخل ويذم الكرم ويعتبره إسرافاً .

نشر الشعوبيون والزنادقة المجون والتحلل الخلقي ، وقد كون بعضهم « الحمادون الثلاثة : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد الزبرقان » عصبة المجان ، حيث كانوا يجتمعون في الدور والبساتين ، والحانات يشربون الخمور ، ويسخرون من الأخلاق والأعراف والديانات ، في مدن البصرة والكوفة وبغداد .

وقد عرفنا شيئاً من شعر بشار ، الشعوبي الماجن في الفقرة السابقة ، وهو نموذج يتكرر عند هؤلاء المجان من الشعوبيين ، ومن أشهرهم « أبو نواس » ، حيث روج للخمرة والرذيلة وهو القائل :

فإن قالوا : حرام ، قل حرام ولكن اللذاذة في الحرام

والقائل : ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر

ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر[1]

ومعظم شعره كان صرخة حادة لإشاعة الخمرة والرذيلة ، وترويج الميسر والمجون .

---

(١) انظر كتاب الزندقة والشعوبية : ص ١٨٥ -١٩٢ ، وص٢٠٣-٢٠٤ .

وكانت هذه الموجة اللاهية العابثة من أسباب نمو حركة الزهد في العصر العباسي .

وظهرت في هذا العصر : كتب المثالب والمناقب . إذ بدأ بعض كتاب الشعوبية ينبشون ماضي العرب ، ويؤلفون الكتب في مثالبهم مثل : (انتصاف العجم من العرب)، « وفضل العجم على العرب وافتخارها » ، لسعيد بن حميد البختكان وقد زعم هذا المؤلف أنه من أولاد ملوك الفرس .

وقد وضع أبو عبيدة معمر بن المثنى ، بعض الكتب تحدث فيها عن : لصوص العرب ، وأدعياء العرب ، وفضائل الفرس ، ولعل الشعوبيين استغلوها لنحلتهم[1] .

وقد فصل الجاحظ في كتابه : البيان والتبيين الحديث عن خطر الشعوبية الاجتماعية ، وفند مزاعمهم[2] .

فقد ذكر مثلًا أن الشعوبيين عابوا على خطباء العرب أخذهم للمخصرة عند الخطابة ... واتهموا العرب بأنهم كانوا رعاة إبل وضأن .. وجفا كلامهم بسبب طول اعتيادهم لمخاطبة الإبل وغلظة مخارج أصواتهم ..

وعابوا على العرب ركوبهم الخيل في الحرب أعراء ...

وعابوا عليهم بأنهم كانوا أميين لا يكتبون ، وليس لديهم من علم الآخرين شيء .. ومطبوعين لا يتكلفون ... وهم يزعمون : أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ... بالكتب »[3] .

---

(١) انظر الفهرست لابن النديم : ص١٢٣، ١٩٤ – طبعة الرحمانية القاهرة .

(٢) انظر كتاب البيان والتبيين : كتاب العصا ، الجزء الثالث ص٣٥–٧٥ طبعة دار إحياء التراث العربي .

(٣) المصدر السابق : الصفحات (٣٥–٤٣ ، ٤٩–٥٠) .

ولقد فند الجاحظ اتهامات الشعوبيين ، ورد عليهم رداً شافياً ، ثم ألف كتابه : البخلاء ، يسخر فيه من شح أهل خراسان ، وعاصمتها (مرو) بشكل قصصي جذاب لاذع .

إن العجيب أن هؤلاء الشعوبيين ما تركوا مكرمة إلا وقد حولوها إلى منقصة ، ناهيك عن ذكر نقائص الجاهلية العربية ، كل ذلك لينقضّوا على بنية المجتمع العربي الإسلامي ، ويقوضوه ... وكأن الإسلام لم يؤثر في نفوس هؤلاء ، فهو يزدري مقومات الجاهلية أياً كانت فارسية أو عربية .

إلا أنه الحقد الذي كان يغلي في نفوس الزنادقة من أهل فارس ، انظر إلى وصف الجاحظ لحقدهم وقد كان معاصراً لنحلتهم : « ... فتفهم عني فهمك الله ، ما أنا قائل في هذا ، ثم اعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصباً ، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة ، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة »[1] .

د – الناحية الدينية :

وهذه هي مقصدهم ، إذ شكك الشعوبيون الناس في عقائدهم ، وحاولوا أن ينفذوا باسم العقل والمنطق ، لتحوير النصوص الشرعية ، والابتعاد بها عن مفاهيمها الأصيلة ، والغريبة عن الإسلام .

حاولوا الإساءة إلى الفقه الإسلامي ، وفسروا أحكام الشرع بطريقة تثير البلبلة والقلق ، وإثارة الجدل والمراء .

---

(١) البيان والتبيين : ٣/٥١ .

وامتد عبثهم إلى الحديث النبوي الشريف ، فوضعوا الأحاديث في فضل الفرس مثلًا ، وأسندوها إلى الثقات من الصحابة والتابعين مثل : « لا تسبوا فارسياً ، فما سبه أحد إلا انتُقم منه عاجلًا أو آجلًا » .

ومن ذلك ما وضعوه حول الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وحول الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، وهم يزعمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن سائر الأنبياء يفتخرون بي وأنا أفتخر بأبي حنيفة ، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني »[1] .

نعم نحب والله كل مسلم تقي ، ونبغض كل جاهلي يتعصب للهوى والقومية ، سواء كان قومه من الفرس أم من العرب ، ونحن أشد بغضاً لكل مارق يضع الأحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن اشتهر بكثرة وضع الأحاديث عبد الكريم بن أبي العوجاء يقول عنه البغدادي : إنه كان مانوياً يؤمن بالتناسخ ، ويميل إلى مذهب الرافضة ، ويقول بالقدر »[2] .

وقد أقر عندما قتله المنصور بأنه وضع أربعة آلاف حديث مكذوب مصنوع[3] . إلا أن علماء الحديث كانوا له ولأمثاله بالمرصاد .

وللرد بالمثل لجأ بعض العرب إلى وضع الأحاديث في تفضيل العرب مثل : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي »[4] .

---

(١) الزندقة والشعوبية : سميرة الليثي : ص ٨٤، وص ١٨١ .
(٢) الفرق بين الفرق : ص ٣٤٩ .
(٣) الزندقة والزنادقة : ص ٢٠٠ .
(٤) الزندقة والشعوبية : ص ١٨٢ .

٦ - ديوان الزنادقة :

وقد شُكل بعد أن ظهر أمر الزنادقة ، ونزعات الشعوبيين الحاقدة ، وبعد كثرة ثوراتهم الدامية ، فبدأ الخلفاء يقفون على مفاسدهم ، ومن أشهر مَنْ تتبع الزنادقة والشعوبيين الخليفة المهدي العباسي ، إذ أسس ديواناً لمتابعتهم ومحاكمتهم . « فقد كان المهدي جواداً عاقلًا ، حسن الاعتقاد تتبع الزنادقة وأفنى منهم خلقاً كثيراً[١] .

وكان المهدي أول من نظم إدارة خاصة من أجل متابعة الزنادقة وقتلهم بعد محاكمتهم ، كما ألف هيئة علمية لمناظرتهم ، وكان يستتيب من اتهم بالزندقة فإنْ تاب وإلا قتل[٢] .

وليس أدلّ على اهتمام المهدي بأمر الزنادقة ، من وصية ابنه موسى الهادي الذي اعتلى العرش من بعده ، وفي ذلك يقول : الطبري رحمه الله[٣] :

« إن المهدي قال لموسى يوماً وقد قدُم إليه زنديق فاستتابه ، فأبى أن يتوب فضرب عنقه ، وأمر بصلبه : يا بني إذا صار لك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، وكاجتناب الفواحش ، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ... إلى أن قال : فارفع فيها الخشب وجرد السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له . فقال موسى بعد أن مضى من خلافته

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ص ٧ .

(٢) الزندقة والزنادقة : ص ١٦١ .

(٣) تاريخ الطبري : ١٩٠/٨ ط : دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م .

عشرة أشهر .. أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف .. » . وقد قتل منهم خلقاً كثيراً .

وقبل أن أنتهي من حديثي عن الشعوبية ، لابد لي من الإشادة بعلماء أجلاء من غير العرب[1] ، خدموا علوم الدين في الحديث والتفسير والفقه ، وأفنوا أعمارهم في خدمة الإسلام ، وغني عن البيان أن نذكّر بالبخاري رحمه الله ، وابن ماجة القزويني ، والترمذي وأبي داود السجستاني صاحب السنن ، رحمهم الله جميعاً .

ومن علماء اللغة والنحو ، الذين خدموا لغة القرآن وتقربوا إلى الله بذلك : الكسائي مولى بني أسد ، كان نحوياً لغوياً وأحد أئمة القراء ، وسيبويه مولى بني الحارث بن كعب ، صنف في النحو كتاباً لا يلحق شأوه ، وأبو علي الفارسي النحوي الشهير ، وأبو سعيد السيرافي ، وابن خالويه اللغوي وأصله من همذان ، رحمهم الله جميعاً ، لقد تعالوا على العصبية ورواسبها ، وكانوا جنوداً عاملين في حقل هذا الدين الذي لا يفرق بين أتباعه إلا بالتقوى .

وفي الختام[2] :

– هل انتهى تآمر الشعوبيين مع نهاية العصر العباسي ؟ وهل ترك هؤلاء وسيلة من الوسائل لإحياء دياناتهم القديمة ، من مانوية أو مزدكية ! .

طبعاً لم ينته مسلسل الإجرام والتآمر خلال التاريخ الإسلامي الطويل وحتى أيامنا هذه .

---

(١) انظر تراجم هؤلاء الأعلام : في البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله ، الجزأين العاشر والحادي عشر .

(٢) اعتمدت في هذه الفقرة على مقتطفات من كتاب وجاء دور المجوس : د . عبد الله محمد الغريب ١٩٨١ م .

لقد تستروا وراء كل واجهة خداعة للوصول إلى أهدافهم .

- تستروا منذ القديم وراء الدعوة لآل البيت لأنها ورقة رابحة لدى المسلمين ، وفيها إحياء لتراث الفرس وعقيدة المجوس لأنهم رأوا أن الدم الذي يجري في عروق علي بن الحسين وأبنائه دم إيراني من قبل أمه (شهربانو) ابنة يزدجرد ملك إيران .
- وكانت الفرق الغالية ، كالسبئية والكيسانية ، تتقرب إلى الله بسب أعلام الصحابة وأمهات المؤمنين .
- واستغلوا في العصر العباسي ، ثقة بعض خلفاء بني العباس بهم ، فعاثوا في البلاد فساداً ، ومن هؤلاء أبو مسلم الخراساني ، والبرامكة ، والفضل ابن سهل وزير المأمون ... مما جعل الخلفاء يبطشون بوزرائهم إنقاذاً للموقف والخلافة .
- واستمر الشعوبيون في الكيد والتخطيط حتى استطاعوا أن يؤسسوا دولًا لهم على أنقاض خلافة المسلمين من أهل السنة .
- ومن هؤلاء : **القرامطة** (عام ٢٧٨ -٤٦٦ هـ) في الإحساء والبحرين واليمن وعمان وبلاد الشام حيناً من الزمن . وقد روع القرامطة آلاف المسلمين وسبوا النساء وقتلوا الأطفال ، وأشاعوا الفاحشة بين أتباعهم . وكان معظم زعمائهم من الفرس ، ويطلق عليهم اسم : « الباطنيون أو الحشاشون أو الفدائيون »[١] .
- ثم استولى البويهيون – وهم من أسرة فارسية – على العراق حتى صار الخليفة العباسي ألعوبة في أيديهم ، وفي زمنهم تجرأ السفهاء على شتم الصحابة رضوان الله عليهم .

---

(١) انظر رسالة القرامطة لابن الجوزي : تحقيق الأستاذ محمد الصباغ وكتاب : وجاء دور المجوس ، د. عبد الله محمد الغريب ص ٦٩ ، والبداية والنهاية : ٦١/١١ ، ٢٣٦/١٢ وما بعدها ط ١٩٨٧ م .

- وأسس العبيديون دولتهم في مصر والمغرب منذ عام (٢٩٦-٥٦٨ هـ) وينتسبون إلى عبد الله بن ميمون القداح وهو داعية باطني من أصل مجوسي ، ومن دعوته هذه صيغت دعوة القرامطة .

وبعد أن قضى السلطان صلاح الدين على دولتهم نشأت فرقة (الدروز) في بلاد الشام واستمرت في اعتناق عقيدة العبيديين .

- ويقول السيوطي عنها في تاريخ الخلفاء : إنها دولة عبيدية خبيثة وليست فاطمية ، وقال الذهبي عن خلفائهم : كانوا أربعة عشر متخلفاً لا مستخلفاً .

فهل من المصادفات أن يرجع البويهيون والقرامطة والعبيديون إلى أصول فارسية ؟ وهل من المصادفات أن تتشابه عقائدهم ، وأن تكون هي نفسها عقائد مزدك وماني وزردشت ؟ وهل من المصادفات أن يلج هؤلاء جميعاً من باب التشيع ؟. وأن يكون المسلمون السنة العدو اللدود لهؤلاء الضالين ، وأن يتعاونوا مع كل عدو للإسلام والمسلمين [1]؟! .

- ونصير الدين الطوسي ، وابن العلقمي ، وابن أبي الحديد ، يشاركون هولاكو في مجزرته في بغداد عام ٦٥٥ هـ ، ويترحم الخميني على نصير الدين الطوسي إذ يقول : « ويشعر الناس بالخسارة أيضاً بفقدان الخواجة نصير الدين الطوسي وأمثاله ممن قدموا خدمات جليلة للإسلام »[2] .

وماذا قدم للإسلام ؟ شفى نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفى إخوانه من الملاحدة ، واستشفى هو فقتل الخليفة

---

(١) انظر كتاب : وجاء دور المجوس للدكتور الغريب ففيه حقائق ووثائق مهمة عن هذا الموضوع (وخاصة خلال الفصل الثاني) : موقف الفرس من الإسلام ص ٣٥-٨٩ .

(٢) كتاب الحكومة الإسلامية (أو ولاية الفقيه) ، الخميني ص ١٢٨ .

والقضاة والفقهاء والمحدثين ... لقد كان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[١] .

- والصفويون أسسوا دولتهم في فارس والعراق ، وكانوا من الفرس ؟ حاربوا الدولة العثمانية ، واستعانوا بالإنجليز عليهم .
- وإنّ الفرق الباطنية التي أُسّست في ديار المسلمين ، كان مؤسسوها من المجوس ، كالبهائية والدروز والنصيرية[٢] .

وما يزال أسلوب الباطنيين هو هو ، بالأمس واليوم ، يثير الفتن والمذابح في ديار المسلمين ، وانظر إلى ما يفعله الشعوبيون والباطنيون الجدد في لبنان[٣] .

ولعل من يتابع الأخبار هذه الأيام ، في الإذاعة والصحف يظهر له بعض الحقائق المذهلة ، مما نقوله ، فلا يكاد يربط هؤلاء السفاحين بأمتهم وأوطانهم رابطٌ ولا خلق أو دين .

---

(١) انظر إغاثة اللهفان : جـ ٢ ٢٦٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢٠١-٢٠٥ ط ١٩٧٨م .

(٢) انظر الحركات الباطنية في الإسلام : د. محمد الخطيب .

(٣) انظر كتاب : دور الشعوبيين والباطنيين في محنة لبنان لمؤلفه : محمد عبد الغني النواوي ، ط باكستان : إسلام آباد .

رابعاً : القومية والوطنيـة :

من مظاهر العصبية في العصر الحديث

تمهيـــد :

اشتدت نيران العصبية في العصر الحديث ، وتطور مفهومها ، واتسع مجالها ، ليشمل أهل الوطن الواحد ، ولتحل نحلة العصبية الجديدة محل رابطة الدين وهديه .

وإذا كانت الشعوبية عند الفرس ، تمثل العصبية الحاقدة آنذاك ، فإن القومية تمثل هذا اللون من الحقد على العرب والمسلمين ، تحت رايات براقة خادعة في هذا العصر،إنها لوثة دخيلة وافدة ، لم تنبت في أرض العرب والمسلمين ولكنها صُدّرت إليهم من مصانع الفكر اليهودي والصليبي .

كان الغرض من مصدّريها واضحـاً عند عقلاء المسلمين ، وذلك هو تفتيت وحدتهم ، وتمزيق أقطارهم ، ونقل ولائهم نحو أعدائهم ، وهذا ما حصل بعد الحرب العالمية الأولى .

كانت وحدة المسلمين تتمثل آنذاك فى الرابطة العثمانية وكانت هذه الدولة تخيف أوربا ، حتى وهي في النزع الأخير « وكان الحقد شديداً على العثمانيين لأنهم توغلوا في أوروبا الصليبية ، وفتحوا للإسلام ما فتحوا من أراض وقلوب فدخل الناس في الإسلام بعشرات الملايين » .

« إنهم حموا العالم الإسلامي من غارات الصليبيين خمسة قرون متوالية .. ومنعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام ، ولم يتمكن شذاذ الآفاق من التجمع لإقامة دولتهم إلا بعد أن زالت دولة الخلافة من الوجود »[١] .

---

(١) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ص ١٥٢، ٣٠٠ .

أعن خطب الخلافة تسألينا ؟ أجيبي يا فرَوقُ فتىً حزينا
هوى العرش الذي استعصمتِ منه بركن الدهر واستعليت حينــا
فأين البأس يقتحم المنايـا ؟ ويلتهم الكتائب والحصونا ؟
مضى الخلفاء عنك فأين حلوا وكيف بقيت وحدك ؟ خبرينا

وهكذا كان حزن المسلمين شديداً ، وقد ذهلوا أمام هذا الفكر الوافد الذي فرق شملهم ، وجعل أمرهم بدداً ، فما الوطنية إذن ؟ وما القومية في عرف أصحاب هاتين النحلتين ؟ .

١ - تعريف الوطنية والقومية[1] :

الوطنيـة : « معناها أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن والتعصب له ، أياً كانت أصولهم التي ينتمون إليها ، وأجناسهم التي انحدروا منها ، أي أن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس » .

« والقومية معناها أن أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ينبغي أن يكون ولاؤهم واحداً ، وإن تعددت أرضهم ، وتفرقت أوطانهم ، وإن كان معناها أيضاً السعي في النهاية إلى توحيد الوطن بحيث تجتمع القومية الواحدة في وطن شامل ، فيكون الولاء للقومية مصحوباً بالولاء للأرض ، ولكن الولاء للقومية يظل هو الأصل ولو لم يتحقق وحدة الأرض ، ولعل هذا التعريف من أقرب التعريفات إلى مفهوم القومية ، لأن منظّري الفكر القومي لم يتفقوا على مضمون محدد ، واختلفت أهواؤهم ما بين النظرية الألمانية ، أو الفرنسية أو غيرهما فالقومية إذن ولاء كامل ، لأبناء الوطن الواحد أو الجنس الواحد .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة : الأستاذ محمد قطب ص ٥٥٤ .

وينبغي أن نلفت النظر إلى أن حديثنا عن القومية يُقصد به القومية بمفهومها العلماني ، وإلا فالعرب قادة الإسلام ، وحملة دعوته ، وسوف أخص العلاقة بين العرب والإسلام في المبحث القادم إن شاء الله .

وأمة العقيدة : لا تعرف الولاء المادي أو العرقي ، أو الوثني لأن القوميات والأجناس واللغات انصهرت في بوتقة واحدة وصارت أمة واحدة على مستوى واحد ، في الأمة الإسلامية . ففي مجتمع المدينة ، كان بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، في القمة من ذلك المجتمع مع السادة من قريش ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : سلمان منا أهل البيت وكان عمر رضي الله عنه يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » . إشارة إلى بلال رضي الله عنه ، فكأنه وهو في الذؤابة من قريش يقول عن بلال : سيدنا بلال ، وهي قمة لم تصل إليها البشرية في تاريخها كله إلا في أمة العقيدة »[1] .

إن النزعة القومية نزعة جديدة غريبة ، حيث تحصر دائرة الولاء في دائرة الجنس أو التراب ، فيلتقي فيها مثلًا اليهودي العربي ، والنصراني العربي والمشرك العربي ... مع المسلم العربي لأن رابطة القومية العربية تجمعهم فضلًا عن أن الوطنية والقومية ضيقتا دائرة الولاء .

إن العالم الإسلامي ، كان أمة واحدة ، تظلله راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ... ولقد كان المسلم يخرج من طنجة حتى ينتهي به المقام في بغداد ، لا يحمل معه جنسية قومية أو هوية وطنية ، وإنما يحمل شعاراً إسلامياً هو كلمة التوحيد، فكلما حلّ أرضا ، وجد فيها له إخوة في الإيمان ، وإن كانت الألسنة مختلفة ، والألوان متباينة ، لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية »[2] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٥٤-٥٥٥ .

(٢) الولاء والبراء : د. محمد سعيد القحطاني ص ٤١٣ ط ١ .

ولذلك تضافرت جهود اليهود والصليبيين ، من أجل إسقاط الخلافة ، عن طريق الحركات القومية في الإمبراطورية العثمانية ، فقد ظهرت هذه الحركات في وقت واحد ، فحين كان الاتحاديون يتحدثون عن العصبية التركية التى تطورت فيما بعد إلى عصبية طورانية ، كانت في مصر جماعات وأحزاب تتحدث عن العصبية المصرية التى تطورت من بعد إلى عصبية فرعونية ونشأت في الشام خاصة وفي العراق جماعات تدعو إلى العصبية العربية ، ولم تلبث بعد الحرب العالمية الأولى أن تطورت إلى شعوب متعددة، ينزع كل منها إلى عرق جنسي قديم ، كالآشورية والفينيقية ... الخ[1] .

وبسقوط السلطان عبد الحميد انتهت السياسة الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية ، وبرزت العصبية القومية .. واتجهت سياسة الاتحاديين إلى تغذية العصبية الطورانية ، بإحياء تاريخ أجدادهم السابق على الإسلام .. بعد أن ظل الترك العثمانيون حتى منتصف القرن التاسع عشر ، لا يكادون يعرفون شيئاً عن ما ضيهم وتاريخهم وأصلهم ونسبهم .. إذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية ، وتاريخ أبطال الإسلام ، تلذهم أكثر من تاريخ أجدادهم الوثنيين وفتوحاتهم .

واندفع الاتحاديون في سياسة التتريك التى تهدف إلى طبع الدولة كلها بطابع تركي وسلخ العرب من لغتهم ومن طابعهم الحضاري فهاجت هذه السياسة الطائشة حمية العرب ولا سيما ما يتصل فيها بلغتهم[2] .

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : د. محمد محمد حسين ٦٩/٢ ، مؤسسة الرسالة ، ط سادسة عام ١٤٠٣ هـ .

(٢) انظر : حاضر العالم الإسلامي : ٨٨/٢ - ٩٦، ٣٧ - ١٤٨ / ط مصر ١٣٤٣ هـ تعليق شكيب أرسلان . والاتجاهات الوطنية : ١٠١/٢-١٠٢ د . محمد محمد حسين .

فشرعوا في تأليف الجمعيات السرية في الشام وفي العراق للدفاع عن حقوق العرب ولإعدادهم للتخلص من الترك عندما تسنح الفرصة المناسبة[1] .

وكان حزن الناس شديداً على إلغاء الخلافة ، إذ ارتفع صوت الباكين يعلنون موتها المفاجيء ، في صخب المحتفلين بعرسها وكفنوها في ثوب الزفاف ، بين جزع الجازعين وذهول الذاهلين وعبرات الضاحكين من أتباع مصطفى كمال وزمرته ، وهذا ما يصوره الشاعر أحمد شوقي في قصيدته[2] : التى يقول فيها :

عادت أغاني العرس رجعَ نُواح ... ونُعيت بين معالم الأفراحِ
كفنتِ في ليل الزفاف بثوبه ... ودفنتِ عند تبلج الأصباح
ضجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهةٌ ومصر حزينةٌ ... تبكي عليك بمدامع سحِاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحامن الأرض الخلافة ماحِ ؟

وهو يهاجم مصطفى كمال وأعوانه إذ يقول :

بكت الصلاة وتلك فتنةُ عابث ... بالشرع عربيدا لقضاء وَقاح
أأقول من أحيا الجماعة ملحدٌ ؟ ... وأقول من رد الحقوق إباحي

ولم يكن محرم أقل من شوقي حزناً وصدق عاطفة في القصيدة التي كتبها بهذه المناسبة والتي يقول فيها[3] :

---

(١) راجع في هذه الجمعيات : الثورة العربية الكبرى : ٦/١ وما بعدها – أمين سعيد / مصر مطبعة عيسى الحلبي .

(٢) ديوان شوقي : ١١٤/١ ، والاتجاهات الوطنية ٣٧/٢ .

(٣) الاتجاهات الوطنية : /٤٠ ، عن الديوان : مخطوط – « وفروق : هي استانبول دار الخلافة أيام العثمانيين » .

لقد أصبح هذا الانسجام بين المسلمين أمنية لنا هذه الأيام لما يلاقي المسلم من الصعوبات في أسفاره بين قطر عربي (مسلم) وآخر ، بل لعله يجد من التسهيلات في دول أوربا ما لا يجده في بلاد العرب أو حتى في مسقط رأسه ، وكل ذلك من نتائج الفكر القومي ، أو الوطني والإقليمي انظر إلى المودودي رحمه الله إذ يقول[1] :

« نتمنى أن يعود علينا عهد كعهد ابن بطوطة الذي سافر فيه من شاطىء المحيط الأطلسى ، إلى شاطىء البحر الهادىء ، ولم يعتبر في قطر مر به أجنبياً ، بل واتته الفرصة حيثما حل لأن يصبح قاضياً أو وزيراً أو سفيراً ، ولم يُراقب فى حركاته وسكناته ، ولم يسأله أحد عن هويته أو جنسيته أو مهنته أو وطنه .

إن الفكر القومي فكر منحرف خطير ، شمل المناهج الدراسية منذ مطلع هذا القرن ، ووسائل الإعلام ، بإصرارٍ من مفكري هذه النحلة ، أودى بالمسلمين إلى الانحراف والتمزق والتبعية .

٢ – الفكر القومي : جاهلية جديدة .

لو تأملنا قليلًا في نتاج الفكر القومي ، في هذا القرن لوجدناه ردة حقيقية، في ميزان الإسلام ، تريد التفلت من رحابة الإسلام ، إلى ضيق القوميات الوثنية ، تلك التى كان المسلمون يترفعون عن الخوض في سفاسفها .

فساطع الحصري(*) : مثلًا يعتبر فيلسوف القومية العربية في مطلع هذا القرن الميلادي ، ويستمد نظريته القومية من النظرية الألمانية ، التي تقول باللغة والتاريخ ، وكان من أكبر أساتذته « ماكس مولر ، وماكس

---

(١) الإسلام والمدينة الحديثة : أبو الأعلى المودودي ص ٤٤ ط ١ جدة ١٤٠٧ هـ .

(*) انظر تفصيلًا لذلك : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ، الشيخ صالح العبود ، الفصل الأول ص ٢١ – ٧٨ .

نوردو » ، وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة إلى إحياء القومية اليهودية[1] .

ومعلوم أن الحصري ربي في تركيا ، وتلقى في شبابه التربية لدى جيل تركيا الفتاة ، تلك التربية التى كانت تستند إلى الأفكار الوضيعة الفرنسية والقومية الأوربية ، والأحقاد اليهودية[2] .

وشغل الحصري مراكز هامة في وزارة التربية العثمانية ، والتحق بالحكومة العربية في دمشق وصار وزيراً للتربية في حكومة الملك فيصل ثم عين وزيراً للتربية في العراق .

وكان الحصري معروفاً عند معاصريه بولائه للمبشرين ، وذلك ما حاول أن ينفيه في مذكراته : « يقولون : إن ساطع الحصري ليس عراقياً ، فلا يمكن أن يحب العراق ويعمل لخير العراقيين .. إنه صديق لمبشري الجامعة الأمريكية في بيروت ، إنه يعمل لمصالح هؤلاء المبشرين .

ويعود الحصري ليقول : « إني عربي صميم ، أدين بدين العروبة بكل جوانحي » وكان استفتاحه القومي : باسم الله وباسم العروبة أفتتح » .

ويدعو الحصري لكتابة التاريخ العربي على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية .. ويرى أن الرابطة القومية أقوى وأعم من الرابطة الإسلامية « ولا شك أن روح العروبة الحقة ستقتحم كل العراقيل وستنتصر في آخر الأمر انتصارًا حاسماً في كل الميادين » ويرى أن الوحدة الإسلامية باتت حلماً وخيالًا[4] .

---

(١) أخطاء المنهج الغربي الوافد أنور الجندي ص ٢٠٦ / دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤ م .

(٢) ألبرت حوراني : الفكر العربي : ص ٣٧١ وما بعدها .

(٣) ساطع الحصري : مذكراتي في العراق : ٦١١/١، ٦١٢

(٤) أبحاث مختارة : ساطع الحصري (صفحات ٢ظ، ٢٨، ١٩٥-١٩٦) .

فالحصري ينطلق قبل كل شيء ، ببعث أمجاد الأمة العربية قبل الإسلام ويدعو إلى دراسة الحيثيين والأشوريين والبابليين والفراعنة ثم يُسهب المؤرخ القومي في شرح أمجاد هذه الأمم من خلال الأمم البائدة التي أهلكها الله بكفرها .. وعلى هذا الميزان يكون الدين طارئاً على الأمة العربية ... إن الاعتزاز بتارخ العرب قبل الإسلام ، بكفرها ووثنيتها وجاهليتها ... هو شجب لخط القرآن الذي يدعو إلى الفخر بحملة لواء عقيدة الإيمان ، ولعن الأمة الكافرة المعادية لمنهج الله .

وهي نكسة إلى الجاهلية الجهلاء الأولى ، وقد نفذ الحصري مفاهيمه هذه خلال عمله وزيراً للمعارف في سوريا ، ثم في العراق عندما كان مستشاراً لنفس الوزارة وعن طريق الجامعة العربية وعمله فيها[1] .

بل إن الحصري ما كان يتحرج من الإشادة بشاعر نصراني دعا إلى الكفر في سبيل الوحدة العربية ، ينقل قوله في مؤلفاته القومية الكثيرة ، ذلك هو قول الشاعر القروي :

سلام على كفر يوحـد بيننا وأهـلًا وسهلًا بعدها بجهنـم

لقد صار الكفر مطلباً قومياً عند المرتدين ، وأهل الصليب ؟ وهكذا نلاحظ أن هذا الفكر ، يعلن الحرب سافرة على الإسلام والمسلمين ، ويبعثها جاهلية منتنة ، وتنتشر عندما ينام المسلمون ويخطط الأعداء والمشبوهون .

ثم يسير على غرار الحصري عدد كبير من كتاب القومية العربية ولا يتسع المجال للتفصيل ، وإنما أشير إلى كتاب واحد هو « القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة معهد

---

(١) الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام : منير محمد نجيب مكتبة المنار ، الأردن (الزرقاء) ط ٢ عام ١٤٠٣ هـ .

الدراسات العربية العالية (١٩٥٨ م) ، والتابع لجامعة الدول العربية في القاهرة الأمير مصطفى الشهابي « إذ يرى كاتبه مصطفى الشهابي » أن اليهودية والوثنية تولد في أصحابها نزعة خاصة تنضم إلى النزعة القومية ، فيزداد فيها ترابطهم وتساندهم ، ويكون الدين عندهم ديناً قومياً .

أما الإسلام « أو النصرانية » ، فإنه يولد فيمن يدينون به نزعة تساند قوية ، ولكنها تتجاوز النزعة القومية إلى نزعة دينية شاملة لأقوام شتى ، ويرى أن من الأجرام الفظيعة أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية ، وأن يتجاوزوها إلى الإيمان الأعمى بعقيدة العالمية أو الأممية في هذا الزمن .

ويرى الكاتب أن القومية العربية لا ترتكز على الدين ، وإن كان معظم هؤلاء السكان مسلمين[1] .

فاليهودية والوثنية تخدمان الفكر القومي كما يراها الشهابي أمام الإسلام فيعتبره من المعوقات الشديدة ، بل من الجرم الفظيع أمام الانطلاقة القومية .

أية جاهلية أشد من هذه الجاهلية ؟ ومتى كان الإسلام لا يمثل أحد مرتكزات القومية ؟ إن جاهلية العرب قبل الإسلام كان فيها من النخوة والتعلق بالتراث الأخلاقي والوفاء ما لا نجده في هذا العقوق بهذا الدين .

وتنتقل حمى القومية إلى كتاب كنا نظنهم بعيدين عن هذا التيار ، إذ يرى الشيخ الدكتور محمد معروف الدواليبي ، « أنه لا يمكن أن نعتبر الدين بصورة مطلقة عنصراً أساسيا من عناصر القومية العربية » بل يراها تتمثل في اللغة والتاريخ ثم يتحدث الشيخ عن بعث القومية وعودتها إذ يقول : « ولا بد للقومية من أن تهب يوماً من رقادها ، ويومئذ تحدثك أخبارها وتقول

---

(١) القومية العربية : الأمير مصطفى الشهابي ، ص ١٣، ١٧ ١٨، ٥٢ وانظر : فكرة القومية على ضوء الإسلام ص٤٦ –٥١ العبود .

لك : إن ربك أوحى لها ... وبعدُ : فإننا نستطيع الأن أن نقول فيما يتعلق بعناصر قوميتنا : إنها اللغة العربية وتاريخ قومها ، وما تنكر أحد لقومه إلا جاهلًا فعلموه أو غافلًا فأيقظوه ، أو عاقاً فاقد الضمير فأدبوه »[1] .

والحقيقة إن هذا التيار لدى الدواليبي جديد غريب على فكره المعروف بالدقة في أصول الفقه والدراسات الفقهية والشرعية « فالشخصية العربية ، شخصية عريقة تضرب عروقها في أعماق التاريخ وقد ارتبطت بالإسلام منذ نشأتها ونمت وتطورت ونضجت في داخل إطاره » . ولا قيمة لها إذا صغرنا من شأن هذا الدين[2] .

وقد سارت **المناهج الدراسية**[3] ، في المدارس على هذا الفكر القومي « خاصة في بلاد الشام ومصر » ، تغذي الناشئة بالحماس القومي ، وتغرس في نفوس الطلاب عقيدة خاوية المضمون ، كافرة الأهداف ، ومن شاء الاطلاع فليرجع إلى كتب المدارس الثانوية خلال خمسين سنة خلت ، وليستمع إلى هذا النشيد الوطني القومي ، الذي كان الطلاب يرددونه بحماس عجيب :

بلاد العرب أوطاني ... من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يَمَن ... إلى مصر فتطوان
فلا حدٌ يباعدنا ... ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا ... بغسان وعدنان

---

(١) دراسات تاريخية عن أصول العرب وحضاراتهم الإنسانية : مقتطفات من الصفحات : ١٠٦-١٢٠ .

وانظر : فكرة القومية على ضوء الإسلام : العبود ص ٥٤ - ٦٢ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية : د. محمد محمد حسين ص ٢١٦ .

(٣) انظر فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام : (ص ٦٢-٦٩، ٦٩-٧٩) .

فالأديان لا تفرق بين أبناء الأمة ، ولا أهمية لها ، أمام هذه الردة المدروسة والجاهلية الدخيلة ، التي تمكن القوميون من غرسها في نفوس أبنائنا .

وساهمت **وسائل الإعلام**[٢] : من صحف ومجلات في نشر هذا الفكر العلماني ، وكنموذج على ذلك انظر مجلة العربي وبعض أعدادها . فقد نشرت في عددها الأول ١٩٥٨ م :

« والمجلة لا تصل معنى العروبة بدين » د. أحمد زكي . وكتب محمود تيمور في العدد (١٧١) : « إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي » وكتب علي ناصر الدين في كتابه قضية العرب : « العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين » ص ٣٠٢ .

وقد سار على طريق الحصري وأتباعه من رجال الفكر القومي في العالم العربي ، عدد كبير من النصاري والموتورين من أحفاد الحركات الباطنية ، والذين انسلخوا من دينهم من المسلمين وأسسوا أحزاباً وجماعات ، وأسفرت عن وجهها العلماني منذ منتصف القرن العشرين ، ومن أبرز هؤلاء ميشيل عفلق ، مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي ، وأنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي في لبنان ، وجورج حبش وقسطنطين زريق وغيرهم . وقد تأسست حركة القوميين العرب ، والاتحاد الاشتراكي وكلها تنضح من بئر واحدة .

ولن أطيل الحديث عن هذه الحركات الحديثة[١] ، لأن استلام أكثرها السلطة (في بلاد الشام واليمن الجنوبي ومصر) قد كفانا مؤونة سيرة حكامها ومفكريها .

---

(١) انظر المصدر السابق هامش (٣) من الصفحة السابقة .

(٢) انظر : الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام : منير محمد نجيب حيث تحدث الكاتب عن حزب البعث ، والقوميين العرب والاتحاد الاشتراكي .

فحزب البعث العربي الاشتراكي أسس عام ١٩٤٧ م وهو حركة شعبية انقلابية تناضل في سبيل الوحدة العربية والحرية والاشتراكية – كما يزعمون –، ولأول مرة في تاريخ الأمة الإسلامية ينطلق حزب فى مبادئه منسلخاً انسلاخاً تاماً عن دينه حتى أن كلمة الدين لم ترد ضمن دستور الحزب كله ، ويرفض هذا الحزب أن يذكر كلمة الإسلام أو الحضارة الإسلامية في صلب دستوره ، ولو بصفته جزء من التراث القومي للعرب[١] .

وفي التوصية الرابعة للمؤتمر القومي الرابع ، يعتبر هذا المؤتمر الرجعية الدينية إحدى المخاطر الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية في المرحلة الحاضرة ، ولذلك يوصي المؤتمر بالتركيز على علمانية الحزب[٢] .

لقد كانت مباديء الماسونية ، والعلمانية واضحة في دستور حزب البعث وخلال التطبيق العملي عنده ... وفي ظل حكمه هُدمت المساجد على رؤوس المصلين في العهدين القومي ، والقطري ، ودخلت الدبابات المساجد في حمص ودمشق وأريقت فيها دماء المصلين الأبرياء ، بل تسَلّلَ الباطنيون من الدروز والنصيريين إلى هذا الحزب ، وكفروا بمبادئه العامة – على انحرافها – وحققوا لطوائفهم مكاسب واضحة وبطشوا بالمسلمين السنة ، وتآمروا مع الرافضة في كل من إيران ولبنان لإكمال المخطط الخبيث .

إضافة إلى دور النصارى في هذا الحزب ، ودور الموارنة بعد ذلك في لبنان[٣] .

---

(١) انظر دستور حزب البعث في كتاب نضال البعث لميشيل عفلق جـ ١٧٢/١ وحتى ص ١٨١ .

(٢) الحركات القومية : ص ٥٠ منير محمد نجيب ط ٢ ١٤٠٣ هـ .

(٣) انظر : الصراع العربي الإسرائيلي : د. محمد عبد الغني النواوي ودور الشعوبيين والباطنيين في محنة لبنان : محمد عبد الغني النواوي .

لقد كانت هذه الحركات سيفاً سُلّط على المسلمين من أهل السنة ، فشردوا عن ديارهم ، وقتل قبل ذلك من قتل في إرهاب جماعي ، وحروب دموية لاتنتهي لقد كانت حروب الجاهلية ، ومظالمها ، أرحم بكثير مما وصل إليه أهالي تلك البلاد الذين ابتُلوا بهذه الحركات الحاقدة[1] .

والحقيقة أن العروبة نفسها تعرضت لهجوم القوميين الذين يريدون أن يرجعوا بنا إلى أصول وثنية لا صلة لها بالعرب ففي مصر ظهرت الدعوة للفرعونية ، وفي لبنان وسوريا ظهرت الدعوة للفينيقية والآشورية وذلك لتلازم العروبة مع الإسلام[2] .

٣ – القومية والوطنية من وسائل الغزو الفكري للعالم الإسلامي :

جاءت هذه الأفكار إبان ضعف المسلمين ، وقد صدرها إليهم مخططون خبثاء ، أقلق مضجعهم وحدة المسلمين وفتوحاتهم ، في أنحاء أوربا خلال العهد العثماني ولذلك اتجهت المخطوطات نحو الغزو الفكري والعقدي بعد أن عجز الأعداء عن حرب المسلمين ما داموا متمسكين بعقيدتهم ، إذ يحدوهم الجهاد في سبيل الله ، تحت راية خلافة تجمع شتات المسلمين أبيضهم وأسودهم .

وقد تضافرت جهود اليهود من الدونمة خاصة ، والماسونية لنشر القومية في تركيا لتمزيق الخلافة . وفي البلاد العربية نفذ هذه الأفكار المبشـرون النصارى ، وعملاؤهم من خريجى مدارسهم ومدرسيها في الشام ولبنان خاصة ، حيث تبنوا فلسفة القومية العربية ، وساعدهم بعد ذلك المستعمرون من الإنجليز والفرنسيين والأمريكان .

---

(١) أثر الإنحراف العقـدي والفكري عند اليهـود : عطا الله بخيت المعايطة ، رسـالة ماجستير / أم القرى ١٤٠٩ هـ ص ٤٣٣ .

كانت عقيدة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » هى السائدة وكانت مفاهيم « لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي .. إلا بالتقوى » « وكلكم لآدم وآدم من تراب » هي التي تطبق في العالم الإسلامي .

أما أن يحل الفكر العرقي الوثني ، والإقليمي الضيق محل هدي الإسلام ورحابته فذلك أمر جديد ، وفتنة هوجاء في القرن العشرين .

ويعود هذا التخطيط إلى أيام الحروب الصليبية الأولى ، حيث تصوره وصية ملك فرنسا « لويس التاسع » خلال سجنه في المنصورة أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، إذ جعل يتفكر في سجنه ويتدبر ، ولما فك أسره وعاد إلى قومه ، حدثهم بما هداه إليه فكره فقال لهم : « إن التغلب على المسلمين بالسلاح وحده ، أمر غير ممكن ، وإن على دول أوربا إذا أرادت التغلب على المسلمين أن تحاربهم من داخل نفوسهم ، وأن تقتلع العقيدة الإسلامية من قلوبهم فهذا هو الطريق »[1] .

ووعى الصليبيون المحدثون نصيحة الصليبي القديم حين بدأوا جولتهم الصليبية الثانية ضد العالم الإسلامي ، فجاءوا ، لا بالسلاح وحده ، ولكن بما هو أخطر كثيراً وأشد فاعلية ، ذلك هو الغزو الفكري ، الذي يهدف إلى اقتلاع العقيدة من قلوب المسلمين[2] .

ويقول ساتيلية في مقدمة كتاب : « الغارة على العالم الإسلامي » : « لا شك أن إرساليات التبشير تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ، ولا يتم ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ... فبنشرها يحتك الإسلام بصحف أوربا ، وتمهد السبيل لتقدم

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب ص ٥٧٦-٥٧٧ .

(٢) وانظر فصل الغزو الفكري : محمد قطب في كتابه : واقعنا المعاصر .

إسلامي مادي ، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية ، التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها » .

وقد كانت أفكار القوميين والوطنيين من ضمن هذه المخططات الشريرة لتمزيق العالم الإسلامي إلى قوميات ، ووطنيات ، تحاول كلها أن ترجعها في تاريخها إلى ما قبل الإسلام إلى الجاهليات الوثنية .

أما صلة القوميين من اليهود الترك بالماسونية وصلة النصارى في بلاد الشام بها فذلك ما سوف نوضحه في الفقرة القادمة إن شاء الله .

وكانت الوطنية[1] : كذلك قد بُذرت بذورها في العالم الإسلامي قبل مجيء القومية ، وقد حققت أكثر من هدف في وقت واحد .

كان **الهدف الأول** : من فكرة الوطنية ، هو تحويل حركات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الصليبي إلى حركات وطنية كما فعل سعد زغلول بمصر ، وكما فعل غيره من الزعماء الوطنيين على اتساع العالم الإسلامي ، فالحركة الوطنية تفترق عن حركة الجهاد الإسلامي .. في أنها لا تنظر إلى العدو على أنه صليبي مستعمر ، ولكن على أنه مستعمر فقط ...

والهدف الثاني : هو تحويل حركات الجهاد الإسلامي إلى حركات سياسية ، عن طريق تحويلها إلى حركات وطنية ، فالعدو غير قادر على التفاهم مع الحركات الإسلامية .. أما الحركات الوطنية فالتفاهم معها سهل وممكن .. يقول سعد زغلول ، وهو من كبار الزعماء الوطنيين في العالم الإسلامي في العصر الحديث : « خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز ! » .

ويقول : « الإنجليز خصوم شرفاء معقولون » .

---

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة : ص ٥٧٧-٥٧٨ .

وهذا شيء ما كان يمكن أن يحدث لو بقيت حركات الجهاد الإسلامية كما كانت في مبدئها ، ولم تتحول إلى حركة وطنية على يد الزعيم الكبير !

والهدف الثالث : هو تيسير عملية التغريب من خلال تحويل حركة الجهاد الإسلامي إلى حركة وطنية سياسية يقول لطفى السيد : « إن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر ، وليس السبيل أن نحاربهم بل السبيل أن نتعلم منهم ثم نتفاهم معهم » .

لقد نجح الغزو الفكري في سلخ هؤلاء الزعماء الوطنيين « كما يسمون » من ولائهم للإسلام وأهله ، ليتحول الولاء نحو الأعداء من اليهود والنصارى ، يمثلون بالمستعمرين في ديار المسلمين .

أصبح الوطن هو الرقعة الضيقة التي يعيش فيها المواطن ، هو مجال أحلامه وأمانية ، بغض النظر عن بقية أوطان المسلمين ، فهم غرباء عنه وعن وطنه ، بل كثيراً ما حصلت الحروب والاصطدامات بين الأقطار المتجاورة العربية أو غيرها ، تماماً كما كان الصراع بين القبائل العربية في الجاهلية الأولى ، على مواطن الماء والكلأ وحدود أرض العشيرة .

إننا لا ننكر حب المسلم لوطنه ، بل هذا واجب عليه لأن الدفاع عن المال والعرض والمسكن والوطن من الجهاد الإسلامي ، ولكن بشرط أن يكون تحت مظلة الإسلام وتعاليمه ، وأن يبقى الولاء لهذا الدين وأهله ، لا لسادتهم في ديار الشرق أو الغرب .

« والوطني الصادق هو المسلم وحده كما يقول المودودي رحمه الله ، وليس أحد أولى منه بهذه الصفة لأنه الامتداد الحقيقي لثقافة الوطن وأمجاده ،

وغيره ممن لا يحملون دعوة الإسلام هم غرباء عن هذا الوطن ومن مخلفات المستعمر »[1] .

لقد تطور هذا الفكر حتى تحول إلى نزعات إقليمية ضيقة تريد سلخ الإقليم الواحد عن بقية العالم العربي ، وهذا ما نادى به الحزب القومي السوري الاجتماعي في سوريا ولبنان ، وحاول هذا الحزب إضافة إلى أن مؤسسيه من النصارى (جورج وانطون سعادة) ، أن يجعل ولاءه إلى الفينيقيين والآراميين ، وأن يعتز بتراثهم وحضارتهم الوثنية ، ويرى هؤلاء أنْ لا صلة لهم بالعرب ولا بلغة العرب أو دينهم .

وقلْ مثل ذلك في الدعوة إلى الفرعونية في مصر ، وأن ولاء هؤلاء إلى أوربا أكثر منها إلى العرب والإسلام .

وقد تولى كبر هذه النزعة فى مصر عدد من الكتاب منهم : الدكتور طه حسين ، وسلامة موسى .

فكتاب اليوم والغدْ لسلامة موسى[2] :

يصور الولاء الكامل للغرب ، ومحاولة الانسلاخ التام عن العرب والمسلمين ، فهو يقول : « فإني كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد تعلقي بها وحبي لها .. » .

ويقول : « إن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان » .

---

(١) مجلة الإرشاد اليمنية : عن رسالة الأستاذ عطا الله المعايطة أثر الانحراف العقدي والفكري عند اليهود ص ٤٣٣ .

(٢) سلامة موسى : اليوم والغد / مصر ١٩٢٧ م ، وانظر الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين ٢/٢٢٢-٢٢٤ .

أما كتاب مستقبل الثقافة في مصر فقد ظهر عام ١٩٣٨ وهى محاولة من الكاتب لنسير مسيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، ويقول : إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إنْ تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط .

ويرى أن الفتح العربي الإسلامي لمصر لم يبرأ من سخط المصريين ، وبأن مصر لم تهدأ ولم تطمئن خلال ذلك العهد ، ولما كان فتح الاسكندر لمصر وللشرق اشتد اتصال مصر بهذه الحضارة،وأصبحت مصر دولة يونانية أو كاليونانية ، والدكتور يرى أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية فقوام الدول هو المنافع العملية[١] .

لقد حاول طه حسين في كتابه : مستقبل الثقافة في مصر أن يجعل لمصر شخصية ترتبط باليونان والطليان أكثر مما ترتبط بالعروبة والإسلام ، وصرح في مقابلة لمجلة المكشوف البيروتية بقوله : « إذا كنت ترمي إلى أن مصر مستعدة للمساهمة في الوحدة العربية أو القومية العربية ، فأنت على خطأ ، فالمصري مصري قبل كل شيء .. ، والمصري فرعوني قبل أن يكون عربياً »[٢] .

ثم يتسلم صاحب هذا الفكر أعلى المناصب التعليمية ، في أكبر بلد عربي .. يصبح عميد الأدب العربي، ووزير » للثقافة والتعليم .. ولله في خلقه شؤون .

(١) مقتطفات من كتاب مستقبل الثقافة / صفحات ٢٢، ٤١ ٢٥١، مصر ١٩٤٤ م، والاتجاهات الوطنية ٢٢٩/٢ - ٢٣٩ .

(٢) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا : د . يوسف القرضاوي / مكتبة وهبة - القاهرة ، ط ٣ ١٣٩٧ هـ .

٤ – دور اليهود في نشوء فكرة القومية[1] :

حاول اليهود أن ينشروا الأفكار القومية منفصلة عن الدين لخدمة مصالحهم الشريرة ، وإكمالاً لمخططهم الخبيث في نشر الضغائن والعداوات في العالم ، وهذا ما نلاحظة في وصية موسى مندلسن المفكر اليهودي الأول كخطة عمل عنده إذ يقول : « الاتجاه إلى القومية دون النظر إلى أمر الدين وأن على المواطن الأوربي أن يصرف النظر عن الدين ، وأن يتمتع بحرية الفكر » وكان هذا هو منطلق اليهود لتدمير قيود الدين والكنيسة ليفتح أمامهم الطريق عن طريق القوميات والوطنيات[2] .

كان هذا المخطط في أوربا إفسادها وتسخيرها لمصالح اليهود ، وقد كان ، إذ أنهم كانو ا ممزقين في دول العالم ، لذلك استغلوا فكرة القومية للتخلص من تمزقهم وذلهم ، بتمزيق الدول الكبرى في العالم .

ثم اتجهوا نحو الدولة العثمانية لأنها كانت حامية للعالم الإسلامي طوال ستة قرون ، ووقفت في وجوههم ضد أطماعهم في تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين . وتسلل يهود الدونمة المتمسلمين إلى حزب الاتحاد والترقي ثم عملوا على تهويده ، وكذلك الأمر مع جماعة تركيا الفتاة .

« إن قادة جمعية الاتحاد والترقي كانوا جميعاً وبدون استثناء من البنائين الأحرار أي الماسونيين » وإن يهود سالونيكا كانوا جزءاً لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي ويروي زين نور الدين زين عن ستون وتسون قوله : « إن أصحاب العقول المحركة كانوا يهوداً أو مسلمين من أصل يهودي »[3] .

---

(١) انظر : فكرة القومية على ضوء الإسلام / العبود من ص ٨٠–١٤٠ .

(٢) المخططات التلمودية : أنور الجندي ص ٤٨ .

(٣) نشوء القومية العربية : زين نور الدين زين : ص ٨٦، ١٨٦ وما بعدها .

ويؤكد ستون وتسون ذلك في موطن آخر إذ يقول : « إن الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية ، فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركى صاف ، فأنور باشا مثلًا هو ابن رجل بولندي مرتد ، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة ، وقره‌صو من اليهود الإسبان القاطنين في مدينة سالونيا ، وكان طلعت باشا من أصل غجري أعتنق الإسلام »[1] .

ويورد مصطفى صبري في كتابه (النكير على منكري النعمة) كثيراً من الأدلة على دور اليهود في إسقاط الخلافة ويستدل على رأيه بأن (قره‌صوه) الاتحادي الشهير هو الذي أبلغ السلطان عبد الحميد قرار خلعه وهو يهودي .

ويؤيد الشيخ مصطفى صبري فيما ذهب إليه كثير من المراجع مثل : ادمستروبخ في كتابه عن حياة مصطفى كمال : « الذئب الأغبر » فقد قرر جماعة أن الاتحاد والترقي كانت تعقد اجتماعاتها في بيوت اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية[2] فنشأة القومية الطورانية إذن ترتبط بتخطيط اليهود ، الذين زرَعوا الحقد على الإسلام باسم القومية ، وكرسوا تقديس الجنس الطوراني عن طريق الاتحاديين ... وبعثوا في النفوس إهمال الجامعة الإسلامية إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية حتى قال الاتحاديون[3] : « نحن أتراك وكعبتنا طوران » .

---

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا : د . يوسف القرضاوي مكتبة وهبة ط ١٣٩٧/٣ م .

(٢) راجع الذئب الأغبر : سلسلة الهلال الشهرية العدد ١٦ والنكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة : الشيخ مصطفى صبري /بيروت ١٣٤٢ هـ . والاتجاهات الوطنية عن صلة الكماليين والاتحاديين باليهود : ٧٨/٢ -٧٩ .

(٣) من حواشي الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي ٥٩،٥٨٣ .

وكان من شعاراتهم : الذئب الأغبر معبود الترك في الجاهلية .

وكان الاتحاديون ومن ورائهم يهود قد شاركوا في إفساد السلطة العثمانية في نظام الإصلاحات والقوانين المدنية الدخيلة ، وتوصلوا إلى أعلى المناصب ، إذ أصبح مدحت باشا صدراً أعظم « رئاسة الوزراء » ، وهو ابن حاخام مجري يهودي ، كان يتظاهر بالإسلام ويبطن اليهودية الحاقدة الماكرة ... وصورت الدعاية اليهودية مدحت باشا بطلًا سمته « أبو الأحرار »[1] وأبو الدستور ، وقد صرح السلطان عبد الحميد بماسونية مدحت باشا في مذكراته المطبوعة .

ومن ثم حاول الاتحاديون اضطهاد العرب عن طريق جمال باشا السفاح في الشام ، واضطهدوا الأتراك المسلمين أيضاً « لأن سياسة التتريك كانت تقوم على الإرهاب ، وكان لها الأثر الواضح في تحويل اتجاه القضية العربية من مجرد دعوة إلى الإصلاح واللامركزية في إطار الدولة العثمانية الموحدة إلى حركة سياسية جادة ترمي إلى استقلال البلاد ثم إلى ثورة مسلحة ضد الأتراك »[2] .

كان استعلاء الترك الاتحاديين ، ومحاولاتهم في تتريك العرب ، السبب المباشر والقوي في تحويل القضية العربية ، إكمالًا لمخطط اليهود والصليبية .

فمعظم دعاة الجامعة العربية كانوا من دعاة الجامعة الإسلامية قبل الحرب ، وكانوا يتصورون القضية تصوراً إسلامياً، وكثرة هؤلاء من حزب اللامركزية في مصر ، ذلك الحزب الذي تصور اتجاهه صحيفةُ المنار لمحمد

---

(١) انظر : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : عبد الله التل ط . المكتب الإسلامي ١٣٩١ هـ .

(٢) نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية : محمد خير عبد القادر .

رشيد رضا ، وذلك بخلاف فريق آخر من دعاة العصبية العربية ، من الذين استقروا فى باريس قبل الحرب ، وحاولت فرنسا ومَنْ وراءها تحويل مسار القضية[1] .

وقد صور الرصافي هذا الاتجاه عندما نقل الإصلاحيون الحركة العربية إلى باريس وعقدوا بها مؤتمرهم سنة ١٩١٣ م .

لو كان في غير (باريز) تألبهُم ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا
لكن باريز ما زالت مطامعها ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا

هكذا نلاحظ أنّ دور اليهود والماسونية يكمن في زرع فكرة القومية الطورانية لدى الأتراك عن طريق جمعية الاتحاد والترقي ، ومن هؤلاء مصطفى كمال ، وسببوا ردة فعل عنيفة لدى العرب أدى كل ذلك إلى تمزيق الخلافة ، وإسقاط السلطان عبد الحميد .

هـدم الخلافـة :

كان السلطان عبد الحميد متنبهاً لخبث الاتحاديين ومطامعهم في فلسطين ، ولذلك فصل سنجق القدس عن ولاية سورية سنة ١٨٨٧ م وأخضعه لإدارته المباشرة .

وعندما رفض السلطان المسلم كل المغريات التي عرضها عليه هرتزل ، من أموال طائلة كقروض طويلة الأجل ، لإنعاش الاقتصاد العثماني ، ومن التوسط لدى بريطانيا وروسيا للكف عن إثارة الأقليات وقال قولته المشهورة : « إن هذه ليست أرضي ولكنها أرض المسلمين ، وقد رووْها بدمائهم ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها » . يقصد فلسطين

---

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية : محمد محمد حسين ١١٣/٢، ١٢٣-٢١٤ وديوان الرصافي (٣٨١-٣٨٤) تحت عنوان ما هكذا .

عندها دبر اليهود مؤامراتهم لخلع السلطان عبد الحميد ثم لإزالة الخلافة كلها على يد اليهودي المتمسلم كمال أتاتورك[1] .

لقد كانت اليهودية العالمية بعيدة النظر حين قررت توجيه رأس الأفعى إلى الأستانة مقر الخلافة الإسلامية آنذاك للشروع في عمليات اللدغ وبث السموم، وقد استخدموا في خططهم لهدم الخلافة القوى التالية[2] :

١ – يهود الدولة (المرتدون) الذين استوطنوا تركيا (سلانيك) قادمين من أسبانيا وتظاهروا بالإسلام .

٢ – الصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين ، منذ سقوط استانبول على يد السلطان محمد الفاتح ، إذ تحالفت قوى الصليبية مع الصهيونية لمحاربة الدولة العثمانية وحرمانها من الهدوء والاستقرار .

٣ – الدعاية الفاجرة التى صورت الحكم في عاصمة الخلافة أبشع تصوير ، وساهمت في تشجيع حركات التمرد في دول البلقان ولبنان ، و .. إلخ .

٤ – الجمعيات السرية وبخاصة الماسونية التي جندت قواها لخدمة اليهود وهدم الخلافة الإسلامية . واستخدم اليهود مجافل الماسون في فرنسا وإيطاليا لنشر الدعاية الكاذبة ضد الخلفاء ، وخاصة السلطان عبد الحميد الذي كان عدواً للماسون[3] .

---

(١) مذاهب فكرية : محمد قطب ص ٥٨٠/٥٨١ .

(٢) انظر : هدم الخلافة الإسلامية من كتاب الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ص ٧٤–١١٠ .

(٣) نظام الدين نظيف ، إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد ص ١١ / استانبول ١٩٦٠ م .

٥ – الدعوة المغرضة للقومية العربية ، التى أسهمت في تحقيق مآرب اليهود في القضاء على الخلافة ، وقد استغل اليهود بعض مفكري العرب وأكثرهم من النصاري الذين رأوا فساد الخلافة وظلمها فأبرزوا المساوىء على نطاق واسع ، (وسوف نتحدث عن دور النصارى في نشأة القومية العربية في الفقرة القادمة » .

وهكذا : تضافرت هذه القوى جميعاً لتقويض الخلافة وتمزيق وحدة المسلمين ، وقد ضمت جمعيات الماسون السرية المجرمين والإرهابيين من اليهود والبلغار والصرب واليونان والأرناؤوط، وهم عماد الثورة التي زحفت على استانبول وعزلت السلطان عبد الحميد[١] .

وكان من أولى نتائج هذه الدعوة العرقية أن مزّقت الخلافة ، بعد أن أريقت دماء المسلمين من العرب والترك خلال الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن علي ، ومعونة الحلفاء من الإنجليز والفرنسيين .

الثورة العربية :

عندما أحس العرب أنهم مظلومون من قبل الاتحاديين ، تلقفتهم الصليبية حليفة اليهود ضد الإسلام ، وأرسلت إليهم لورنس ليؤجج فيهم روح القومية العربية ، رداً على دعاوى القومية الطورانية ، وحتى يؤلف ما سمي بالثورة العربية الكبرى ، ضد دولة الخلافة، وببساطة تم الأمر في غفلة من المسلمين[٢] .

وهنا تعاونت الصليبية مع الصهيونية لإيقاع الفتنة وإشعال الحرب بين العرب والترك ، ثم تعاونت الجمعيات السرية القومية في بلاد الشام –

---

(١) الأفعى اليهودية : عبد الله التل ص ٨٧ .
(٢) مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب / ٥٨٠-٥٨١ .

ولبنان خاصة – مع الشريف حسين بن علي أمير مكة والحجاز والذي رفض « مرات عديدة أن يصبغ ثورته بالطابع الديني ، وحقيقة ثورته كانت قومية »[1] .

كان لورانس متعاوناً مع الصهيونية ، ويذكر ذلك وايزمن في مذكراته[2] : « ويقضي عليَّ الواجب أن أثنى هذا الثناء العظيم على الخدمات التى قدمها لورانس للقضية اليهودية ... كان يتردد على منزلي في لندن من غير رسميات ولا كلفة » .

لقد ظن العرب أن لورانس صديقهم ، ولذلك لقب بلورانس العرب ، وكان مستشار الأمير فيصل بن الحسين بن علي قائد الثورة العربية آنذاك والمخطط للحرب ، والوسيط بين قيادة الثورة وبريطانيا .

يقول لورانس موضحاً الدور الشرس الذي قام به : « مهما تمخضت عنه هذه الحرب فيجب أن تكون نتيجتها القضاء نهائياً وإلى الأبد على السيادة الدينية للسلطان التركي »[3] .

ومما يؤكد هذا الحقد الصليبي ما قاله الجنرال اللبني عندما دخل القدس : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، وتصريحه الذي قال فيه : « لولا معاونة الجيش العربي ما استطعنا أن نتغلب على دولة الخلافة »[4] .

لقد غاب عن أذهان القوميين قوله تعالى : « وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ سورة هود الآية ١١٣ .

---

(١) أعمدة الحكمة السبعة : لورانس ص ٤٨ .

(٢) مذكرات وايزمن : ص ٤٥–٤٦ .

(٣) من تقرير لورانس بعنوان احتلال سورية ص ٥٨ ، عن كتاب لورانس الغرب على خطى هرتزل .

(٤) واقعنا المعاصر : محمد قطب ص ٣١٦ .

وقد عبر الشريف حسين نفسه عن حسرته قائلاً : « لقد تجاهلت النقد الذي تلقيته من مسلمي تركيا ، بشأن علاقاتي مع بريطانيا ، وقد وجدت في الاستجابة لدعوة بريطانيا لي لإعلان الثورة تجديداً لمجد العرب ، وإرضاء لمشاعر المسلمين ، وكانت نتيجة ذلك نهاية العرب ونهاية تركيا على السواء »[1] .

نعم كان في ذلك نهاية العرب ونهاية المسلمين على السواء ، إذ احتل الحلفاء بلاد العرب واقتسموها ، وسلموا فلسطين إلى اليهود ، وهيأوا الجو لتصبح تركيا دولة صغيرة علمانية على هامش التاريخ ، بعد أن كانت تهز العالم الصليبي الحاقد ، وكان ذلك من أبسط نتائج القومية الحديثة .

وهذا ما حمل شكيب أرسلان ، على أن يكتب للملك حسين بن علي ، حين علم عزمه على الإغارة على سوريا مع الجيوش الإنجليزية ، ينهاه عن ذلك حتى لا يضرب العرب بالعرب خدمة لمصلحة العدو إذ يقول : « أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير ؟ حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاء انجلترا على جزيرة العرب ، وفرنسا على سوريا واليهود على فلسطين ؟! »[2] .

وقد بقي شبح الإسلام - رغم المؤامرات التي دبرت ضده ماثلًا أمام العدو اليهودي حتى هذه الأيام ، وهذا ما يمثله قول أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل بعد حرب عام ١٩٦٧ في محاضرة له[3] :

---

(١) نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة : محمد خير عبد القادر ص ٢١٣ .

(٢) مجلة المنار : م ٢٥ ج ٧١٣/٩ / عن الاتجاهات الوطنية - محمد محمد حسين ١٢٥/٢ .

(٣) الخطر اليهودي على العالم الإسلامي : ماجد الكيلاني ص ٣٢٨ .

« يحاول بعض الزعماء العرب أن يتعرف على نسبه الإسلامي بعد الهزيمة ، وفي ذلك الخطر الحقيقي على إسرائيل ، ولذا كان من أول واجباتنا أن نبقي العرب على يقين راسخ بنسبهم القومي لا الإسلامي » .

ورغم وضوح مكائد اليهود وأعوانهم ، وما فعله القوميون في بلادنا، فإن كثيراً من المسلمين مازالوا يجهلون حقيقة الدعوات القومية هذه، وإننا لنعلم علم اليقين أن فلسطين لن يعيدها إلى حظيرة الإسلام إلا المسلمون المجاهدون ، أصحاب العقيدة الصافية ، والجهاد الشرعي الذي يبتغي أصحابه إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يختبيء اليهودي وراء الحجر ، فيقول الحجر : يا عبد الله ، يا مسلم تعال ، هذا ورآئي يهودي فاقتله »[1] .

٥ - دور النصارى في نشوء فكرة القومية[2] :

كان نصارى لبنان ممن ساهم في بعث التراث الثقافي العربي ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وتسلق مفكروهم موجة القومية آنذاك عن طريق التخطيط لمناهج الجامعات التبشيرية والمدارس النصرانية ، وتأسيس الصحافة ، ثم الجمعيات السرية في بلاد الشام .

وكان اسم الجامعة العربية مرادفاً لاسم الجامعة الإسلامية إلا أنه بسبب هؤلاء النصارى نشأت التفرقة بين العروبة والإسلام لأن هذا الفريق من دعاة القومية كان واقعاً تحت تأثير الدعوات المتطرفة التى تريد تجريد

---

(١) رواه البخاري ومسلم / انظر شرح السنة (١٥/٣٧٠) .

(٢) انظر : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام : صالح العبود (١٤٢-١٥١) .

العروبة من كل صلة بالدين ، وكان فريق من المسلمين يرون التمسك بالجامعة الإسلامية ، ويفرقون بين الخلافة والسلطنة ، بجعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك(٥) .

وأغلب هؤلاء النصارى كانوا ممن لهم صلة بالإرساليات الإنجيلية الأميريكية في بيروت ، وأكثرهم في الوقت نفسه ينتمون إلى الماسونية ، ومن هؤلاء إبراهيم اليازجي وأبوهُ ناصيف اليازجي ، وقد أعان الابن في ترجمة التوراة إلى العربية، ثم قدم إلى مصر ومات فيها، واحتفلت المحافل الماسونية في القاهرة والإسكندرية بتأبينه ، وهو صاحب القصيدتين المشهورتين في استنهاض همم العرب ودعوتهم إلى إحياء أمجادهم ورفض تجبر الترك واستبدادهم(١) .

يقول إبراهيم اليازجي في قصيدته البائية :

الله أكبر ! ما هذا المنام ؟ فقد | شكاكم المهد واشتاقتكم التُّرب
كم تُظلمون ولستم تشتكون؟ وكم | تستغضبون فلا يبدو لكم غضب؟
فما لكم ويحكم أصبحتم همَلًا | ووجه عزكم بالهُون منتقِب
أقداركم في عيون الترك نازلة | وحقكم بين أيدي الترك مغتَصَبُ
فيا لقومي وما قومي سوى عرب | ولن يضيَّع فيكم ذلك النسبُ

ويختم الشاعر قصيدته مهدداً الترك بقوله :

صبراً هيا أمة الترك التى ظلمت | دهراً فعمّا قليل ترفع الحجبُ
لنطلبَنَّ بحد السيف مأربنـا | فَلَـنْ يخيبَ لنا في جنبه أَرَبُ

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية : د. محمد محمد حسين / مؤسسة الرسالة ط ١٤٠٢/٥ (ص ٢٠٢-٢٠١) / فصل الإسلام والقومية .

ومن هؤلاء أيضاً : بطرس البستاني ، وسليم تقلا ، وجورجي زيدان وغيرهم ، وكانوا قد انتقلوا إلى مصر وأسسوا فيها الصحف والمجلات ، تحت ظل الانتداب البريطاني .

وكان من الطبيعي أن يجد الاستعمار والصهيونية في هذا الفريق من دعاة القومية العلمانية، من النصارى والمسلمين على السواء صيداً ثمينا يمكن أن يلتقي معه في فترة مرحلية لتحقيق أغراضه[1] وهذا ما حصل خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها .

ويذكر جورج أنطونيوس في كتابه « يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية »[2] دور النصارى في بلاد الشام ، في إنشاء المدارس والجامعات (الأمريكية واليسوعية) ، وأن زعماء القومية كانوا من خريجي هذه المدارس والجامعات ، تلك التى صارت تدعو إلى محبة الوطن من دون الله .

ثم أسس النصارى الجمعيات العلمية والأدبية مثل جمعية الآداب والعلوم في بيروت، وكان من أعضائها اليازجي والبستاني، ولم يكن فيها عضو مسلم ، ثم أسس اليسوعيون الجمعية الشرقية وآخر هذه الجمعيات الجمعية العلمية السورية (١٨٥٧ م)، وكانت ذات مبادىء قومية وطنية .. وفي هذه الجمعية ألقى إبراهيم اليازجي قصيدته البائية .. وكانت هذه القصائد تنشر سراً لأن الاتجاه العام للشعر كان يمجد الرابطة العثمانية ، لأنها تمثل رابطة المسلمين وترمز إلى قوتهم[3] .

---

(١) المرجع السابق : الإسلام والحضارة الغربية ص ٢١٠ .
(٢) فكرة القومية على ضوء الإسلام : صالح العبود .
(٣) انظر تفصيلًا لذلك : الاتجاهات الوطنية / محمد محمد حسين جـ ١/١٧-٦٦ (فصل الجامعة الإسلامية) .

ويؤكد مفكرو النصارى ومؤرخوهم دور نصارى الشام في بذر الأفكار القومية العلمانية ، إذ يقول الدكتور نبيه فارس : « ولقد غرس هؤلاء بذرة القومية والوطنية ، وبعثوا حركة مستوحاة من تاريخ العرب ، ومآثرهم ، تستهدف مُثلًا قومية بدلًا من المثل الدينية والطائفية » .

وهكذا يقرر انطونيوس أيضاً (وبنيه فارس) : « أن إيقاظ الفتنة بفكرة القومية العربية بعيدة عن الإسلام ، كانت نتيجة جهاد اليازجي والبستاني مع زملائهم من مبشري الأمريكان ، وغيرهم في بيروت ولبنان »[1] .

ويقول الأستاذ محمد قطب في هذا الشأن : « إن نصارى لبنان وسوريا ما كانوا يجرؤون أن يخرجوا على الحكم الإسلامي علانية أيام الحكم العثماني ، لذلك لجأوا إلى النشاط السري باسم العروبة، وكان عبد الحميد يقظاً للعبة كلها فطارد تلك الجماعات السرية التى تنادي بالقومية العربية ، كما ضيق على النشاط السري لحزب الاتحاد والترقي »[2] .

ثم فر هؤلاء النصارى من موارنة لبنان إلى مصر ؟ بسبب حماية الانتداب الإنجليزي لهم بعيداً عن السلطان ، .وأسسوا الصحف والمجلات كالمقتطف والهلال ، على يد يعقوب صرف وفارس نمر ، وهما شابان من أساتذة الكلية البروتستانتية السورية وجورجي زيدان الذي تلقى علومه في نفس الكلية أيضاً في بيروت[3] .

وسارت هذه الصحف وأمثالها تغرس مفاهيم الوطنية والتطور والتغريب والعلمانية في ديار المسلمين .

---

(١) انظر : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام : العبود ص ١٦٢، ١٦٤ .
(٢) مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب ص ٥٨٢ .
(٣) فكرة القومية : العبود ص ١٦٧ ، عبد ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة .

وفي أيامنا هذه يتنكر الموارنة وبقية النصارى في لبنان إلى الدعوة القومية ، ويضيقون ذرعاً بالمشردين من أهل فلسطين ، ثم يعلنونها طائفية حاقدة ضد المسلمين من أهل السنة ، يساندها بقية الباطنيين الموجودين على ساحة لبنان ، مع مَنْ يمد لهم يد العون من أبناء جلدتهم وطوائفهم ، وما يزال دم لبنان يراق حتى أيامنا هذه ، نرجو للمسلمين فيه العودة إلى دينهم ، وأن يجنبهم الله كل مكروه .. فهم إحدى ضحايا دعوات القومية العلمانية والطائفية الحاقدة في هذا العصر .

٦ - التجمعات القومية في الميزان :

ولنا الآن أن نتساءل : ما موقف الإسلام من هذه التجمعات ؟ وهل كانت امتداداً لعصبية القبائل في الجاهلية أم أنها نوع آخر أشد خبثاً وأعمق غوراً وتخطيطاً ؟ ذلك ما ألقينا عليه الضوء خلال الفقرات السابقة ، ونزيدها الآن توضيحاً بنقل فقرات من فتوى الشيخ عبد العزيز بن بارز حفظه الله إذ يقول :

« إن الدعوة القومية دعوة باطلة ، ومنكر ظاهر ، وجاهلية نكراء ، وكيد سافر للإسلام وأهله ، وذلك لوجوه :

الوجه الأول : أن الدعوة إلى القومية العربية تفرق بين المسلمين وتفْصِل المسلم العجمي عن أخيه العربي ، وتفرق بين العرب أنفسهم .

الوجه الثاني : أن الإسلام نهى عن دعوى الجاهلية وحذر منها ، ولا ريب أن الدعوة إلى القومية العربية من أمر الجاهلية ، لأنها دعوة إلى غير الإسلام ، ومناصرة لغير الحق .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس ... فهو من عزاء الجاهلية » .

الوجه الثالث : من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية ، أنها سلّم إلى موالاة كفار العرب وملاحدتهم ، من أبناء غير المسلمين ، واتخاذهم بطانة ، والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم .. ونصوص القرآن والسنة تدل على وجوب بغض الكافرين من العرب وغيرهم .

يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ .. ﴾ المائدة : ٥١ .

الوجه الرابع : إن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولابد إلى رفض حكم القرآن ، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا بتحكيم القرآن .. فتيخذون أحكاماً وضعية تخالف حكم القرآن .. وقد صرح الكثير منهم بذلك .

وهذا هو الفساد العظيم والكفر المستبين ، والردة السافرة كما قال تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا »[1] .

وقال تعالى : « أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة : ٥٠ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة : ٤٤ .

وكل دولة لا تحكم بشرع الله ، ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة بنص هذه الآيات المحكمات[2] .

---

(١) النساء : آية ٦٥ .

(٢) نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع : للشيخ عبد العزيز بن باز / المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م ، (مقتطفات من ص ١٣-٥٠) .

وحول حصاد القوميات ، ونتائجها الشريرة في العصر الحديث يحدثنا الأستاذ محمد قطب بقوله : « لقد أشعلت القوميات ومصالحها المتصارعة في أوربا حربين عالميتين قتل في الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) عشرة مليون شاب غير الذين شوهوا أو أصيبوا .. لأن المصالح القومية مقدمة على كل اعتبار ، وفي الحرب الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) قتل أربعون مليوناً من الشباب غير المدن التى دمرت والمدنيين الذين قتلوا في الغارات الجوية » .

«تلك هي التجمعات التى قامت في العالم على أساس قومي ، وإن تسترت أحياناً وراء مختلف العناوين » .

« إن القومية في ذاتها نزعة غير إنسانية ، لا يتوقع أن ينشأ منها إلا الشر .. إنها تحدُّ عالم الإنسان فبدلًا من أن يكون أفقه العالم والإنسانية إذا أفقه هو قومه ، والرقعة الضئيلة من هذا العالم التي يسكن فيها قومه .. ومصالح قومه وهي مصالح مادية تعارك عليها مع غيره من الهابطين مثله إلى دركه ، كالمصالح التي يتعارك عليها الحيوان » .

ثم يضيف في موطن آخر فيما يخص التجمع القومي العربي :

« وفي ظل القومية العربية التى أقامتها الصليبية العالمية توسعت إسرائيل .. وكانت القومية التي صدرت إلى العالم الإسلامي هي القومية المأكولة لا القومية الآكلة ، كالتي قامت في أصلها هناك في أوربا » .

« قد كانت الحرب الأولى العظمى تدبيراً يهودياً نصرانياً للقضاء على دولة الخلافة ، والتمهيدات لإنشاء الدولة اليهودية في غفلة من المسلمين » .

« وقُسِّم العالم العربي بين الحربين العالميتين أسوأ تقسيم تحت الانتداب والحماية ... وفي القاهرة دعا إيدن وزير خارجية بريطانيا عام ١٩٤٦ م

الملوك والرؤساء العرب إلى الاجتماع به ، وعرض عليهم فكرة إنشاء الجامعة العربية في القاهرة »[1] .

وأخيراً :

فما الذي جناه العرب والترك من هذه الدعوة ؟ كل الذي جنوه هو الواقع المرير الممزق الذي يعيشه عالمنا الآن .

- فقد تحول الولاء عن الإسلام وأهله إلى صانعي هذه الأفكار من اليهود والنصارى ، ومن ثم كانت هذه الدعوة مؤامرة ضخمة مزقت المسلمين إلى ولاءات مختلفة ، فتجد من ينادي بإعادة أمجاد أجداده من العرب الوثنيين ، أو الأتراك الطورانيين ، أو الأكراد فالفراعنة فالبربر فالفينقيين أو الآراميين وبقية آشور ، وما كانوا عليه من قاذورات الوثنية والخرافة وضيق الأفق .
- تحولت تركيا إلى دولة مهملة صغيرة ، تعيش على فتات الغرب بعد أن لفظها ، وقسمت بلاد العرب إلى ما يزيد عن عشرين دولة متناحرة متباغضة ،تشدها شعارات الوطنية الضيقة حيناً ، أوالإقليمية والقومية حيناً آخر .

  وتكاد لا تتفق على شيء ، بعد أن كان الجميع يعيش تحت راية الخلافة وقوتها ، رغم ما كان فيها من ضعف وسلبيات .
- ضاعت فلسطين ، وما هو أكبر من فلسطين ، بعد أن رفض السلطان عبد الحميد عروض اليهود ، وبعد أن عُصف به وبدولة الخلافة ، وتحت شعارات القومية المخدوعة من اليهود وأهل الصليب .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة : الأستاذ محمد قطب / ص٥٧٣ ، ٥٦١ ٥٨٦ ، ٥٨٣ .

- إن شعار القومية كان ستاراً ، اختفت وراءه الطوائف الحاقدة من النصارى والدروز والنصيريين ، ومَنْ على شاكلتهم .
- أريقت دماء المسلمين – ما بين العرب والترك – بتحريض صانعي الفتن والشعارات من الدونمة والصليبيين أهل الاستعمار الحديث .
- كل ذلك ما كان ليتم لو كان المسلمون يتمسكون بهدي دينهم ، وصفاء عقيدتهم ، ولو استمعوا إلى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم :
- « ليس منا من دعا إلى عصبية ، دعوها فإنها منتنة »– لتغيرت أحوالهم عما هم فيه .

أرجو من الله أن يلهمنا الصواب في القول والعمل ، وأن ينتبه المسلمون إلى هذه المؤامرات وقد فضحت ، وأن يحذروا أمثالها من الفتن والشعارات البراقة ، وأن يعي الشباب المؤمن ما يحاك له ولأمته فهو أمل هذه الأمة .

المبحث الثالث
وحدة الأمة بعد التفرق والتناحر

أريد أن أخص في هذا المبحث ، علاقة العروبة بالإسلام ، وذلك يستدعي أن أتطرق في البحث لحالة العرب قبل الإسلام ، وفضل هذا الدين على هذه الأمة وعلى البشرية جمعاء، ومكانة العرب وخصائصهم التي أهلتهم لحمل هذه الرسالة .

وكنت أظن أن هذه العلاقة بديهية ، وهذه مفاهيم واضحة ، لولا لوثة القوميين الذين راحوا يفسرون هذه القضايا تفسيراً قومياً علمانياً ، ويجعلون من الفتوحات الإسلامية ، سبباً لتوحيد جنس العرب باديهم وحاضرهم من الجزيرة إلى الشام والعراق .

١ - العرب قبل الإسلام :

لم يكن للعروبة كيان حقيقي موجود قبل الإسلام بل إن كلمة العرب لم ترد في أي شعر أو نثر قبل الإسلام بمفهوم الجماعة[١] .

وخلال دراستنا للشعر الجاهلي تبين لنا أن العرب ما عرفوا معنى الأمة ، بل كانوا مجتمعاً قبلياً متناحراً ، فرقتهم الحروب ومزقتهم الأيام والثارات ، حتى أن يوم ذي قار الذي يفتخر به القوميون ، كان بين قبائل

---

(١) أخطاء المنهج الغربي الوافد : أنور الجندي ص ٢٠٢ .

عربية تناصر الفرس ، على قبائل عربية أخرى التفت حول بني شيبان وقبائل بكر[1] .

يقول الأستاذ محمد قطب : « لقد كان العرب شيئاً متناثراً لا يتجمع على شيء ، رغم وجود مقومات التجمع الأرضية كلها من وحدة الأرض ، ووحدة اللغة ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة المصالح ، تلك التي يقول علم الاجتماع الجاهلي ، إنها هي التي تنشىء « الأمة » ، ولكن الأمة مع ذلك لم تنشأ رغم مرور الزمن المديد على هذا الشتيت المتناثر وهو يحمل تلك المقومات ، بل كانوا قبائل متناحرة تأكلها الحروب والثارات ، وتأكلها قبل كل شيء جاهليتها التي تعيش فيها مجافية للهدي الرباني .. .

ومن هناك رفعها الإسلام لا أفراداً ولا قبائل ، ولكن أمة هي أعظم أمة في التاريخ بشهادة الله مخرجها إلى الوجود : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ سورة آل عمران آية ١١٠ .

« إن العصبية كانت مشغلتهم الدائمة ، وما يتبع هذه العصبية من خصومات ونزاعات وتفاخر بالأنساب ، لم تدع مجالًا للتجمع لتكوين أمة .. » .

« وخلاصة القول : إن أهل هذه البيئة – حين يتركون لتأثير البيئة وحده – قوم يكرهون النظام، ويرونه عبئاً ثقيلًا على أعصابهم، لا ينبغي أن يحملوه ... وهم قوم عفويون يكرهون التخطيط والنظر إلى بعيد ، وهم أخيراً قوم قصار النفس يشتعلون حماسة لفترة موقوتة ، ثم تخبو حماستهم ، كأن لم تشتعل قط ، وتنصرف إلى موضوع جديد .

---

(١) انظر : الفصل الأول / المبحث الخامس : أيام العرب ص ٧٠ من هذا الكتاب .

من هذه الطباع (المستمدة من تأثير البيئة) ، تسلمهم الإسلام فأنشأ منهم خلقاً آخر ، أنشأ منهم أمة شديدة التنظيم لا تكره النظام ولا تتمرد عليه .. »[1] .

هكذا كان العرب متفرقين متناحرين ، يرون السمع والطاعة لغيرهم مهانة ، فأمرهم الله بالاجتماع ونهاهم عن التفرق ، فقال جل من قائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ سورة آل عمران : ١٠٢-١٠٣ .

يقال في تفسير هذه الآية : أن المقصود فيها ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب ، التي تطاولت مائة وعشرين سنة ، إلى أن ألف سبحانه بينهم بالإسلام ، فزالت الأحقاد - قاله ابن إسحق .

وكان يوم بعاث آخر هذه الحروب التي جرت بينهم .

ويقول بعض المفسرين : إن المقصود ما كان بين مشركي العرب من التنازع الطويل والقتال العريض ، ومنه حرب البسوس - كما نقل عن الحسن رضي الله عنه -

وصدق الله إذ يقول : ﴿ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ الأنفال : ٦٣ . فالإسلام روّض العرب

---

(١) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب /الصفحات : ١٥، ٨٧ ، ٤٩٢ .

السمع والطاعة ، والصبر على جور الولاة « إلا أن يكون كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهـان » كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه[1] .

وبذلك تهيأت نفوس العرب لقبول أمير أو خليفة من خارج نطاق القبيلة ، وأصبح الحكم بالإسلام هو مناط الطاعة ، والخروج عنه هو سبب العصيان حتى لا يكون الأمر هوىً متبعاً .. وحتى توحد الطاقات في بوتقة أمة واحدة ، هي أمة الإسلام : « اسمعوا وأطيعوا ولو استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »[2] .

لقد تحقق للعرب معنى الأمة في صورته الحقيقية بالإسلام حيث انتشلهم لا ليكوّنوا تجمعاً قومياً ، ولا وطنياً ، إنما لينشىء منهم أمة العقيدة في فترة من عمر الزمن كأنها لحظات ، إنها أمة العقيدة ذات الرباط الحقيقي الذي ينشىء الأمة في صورتها الحقيقية ... الأمة التى رباها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفها بقوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[3] .

فالأمة العربية ولدت تحت راية القرآن ، وأخذت طلائعها تجوب آفاق العالم مبشرة بالعقيدة والقيم الجديدة حتى أن المستشرقين أنفسهم يقرون بهذه الحقيقة ، يقول شاخت : « إن العرب لم يصبح لهم تاريخ مشترك إلا بعد الفتوح الإسلامية » .

---

(١) انظر مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، شرح السيد محمود شكري الآلوسي ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٢) متفق عليه .

(٣) الحديث متفق عليه ، « والفكرة مقتبسة من واقعنا المعاصر ص ٥٠-٥٤ .

لم تستطع الإمارات الشمالية « أي الغساسنة والمناذرة » أن تصهر القبائل المختلفة داخل الجزيرة العربية » في إطار من الوحدة الثقافية والاجتماعية والسياسية كما فعلت الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة ... ولم تكن الممالك القديمة بأسعد حظاً من الإمارات العربية الشمالية في توحيد العرب والخروج بهم من عزلتهم الجغرافية والسياسية إلى رحاب العالم الفسيح[1] .

وهذا ما توصل إليه ابن خلدون في مقدمته إذ يقول : « إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية، من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ...

والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم ، فهم أصعب الأمم انقياداً ، بعضهم لبعض للغلظة والأنفة ، وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم ، فإذا كان الدين بالنبوءة أو الولاية ، كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم ... فإذا كان فيهم النبي أو الولي ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك ، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولًا للحق ، والهدي لسلامة طباعهم »[2] .

فهذه هي حقيقة العرب : سلامة فطرة ، واستعداد للحق ، مع نزعة للعنف والفوضى ، جاء الإسلام فانتشلهم مما هم فيه ، بما فيهم من كريم الأخلاق ، وغرس في نفوسهم العقيدة ، فأزال نزغات الجاهلية ، وأسس منهم أمة وأية أمة ؟! خير أمة أخرجت للناس .

---

(١) نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية : محمد خير عبد القادر / الصفحات ٢٢ ، ٣٨ ، ٢٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : الفصل (٢٧) .

ب - فضل الإسلام على هذه الأمة :

كيف كان العرب ؟ وكيف أصبحوا بعد الإسلام ؟!

ما كانت هذه المقارنة لتلزم لولا الجاحدون المحدثون من أبناء هذه الأمة ... أولئك الذين راحوا يفسرون الفتوحات الإسلامية تفسيراً قومياً عربياً ، أو يفسرون أحداث الهجرة وبناء الدولة المسلمة في المدينة تفسيراً قومياً ، ليجعلوا أثر الإسلام ثانوياً طارئاً ، ويؤصلوا أثر العرب والعروبة قبل الإسلام .

يقول أحد هؤلاء : « ومنذ اللحظة الأولى لبناء الدولة العربية الإسلامية الأولى في المدينة ، وضح طابعها القومي للعيان ... أي أن الرعية السياسية لهذه الدولة قد تكونت من العرب ، رغم اختلاف الدين ، أي وفق معيار قومي عربي ، فضمت المهاجرين والأنصار وضحت معها الأجزاء التي تهودت من قبائل المدينة ... » .

« وعندما جاءت الفتوحات العربية لتمتد بحدود الدولة إلى حيث يتحرر العرب الذين أخضعهم سلطان الفرس والروم ، وقف العرب في العراق والشام .. وأسهم الجميع في بناء الدولة العربية ... فكانت إنجازاً عربيا قومياً ، ولم تكن دولة دينية ، كما يتوهم الذين لا يعلمون »[1] .

فكأن مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، كانت توحيد العرب سياسياً بالمعيار القومي خلال القرن العشرين كما يفهمه الدكتور في أكثر كتاباته .

---

(١) الإسلام والعروبة والعلمانية : د . محمد عمارة ، دار الوحدة ١٩٨٤ م ص ١٤-١٦ .

لنا استعمال الاصطلاح السياسي إضافة إلى معانيها النضالية والخلقية ، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم استطاع توحيد قبائل الأوس والخزرج في كيان سياسي واحد وأصدر الصحيفة ... » .

« وإذا جاز لنا إطلاق اصطلاح البعد العربي على هذا الإجراء الذي وحد القبائل العربية ، فإن علينا أن نتذكر بأن جذور هذا الشعور بضرورة الوحدة ونبذ التشتت بدا قبل الإسلام ، ويشير إلى محاولة تتويج عبد الله بن أبي ، وإلى معركة ذي قار وحلف الفضول ... إلخ إلى أن يقول: « إن النتائج الإيجابية لأعمال الرسول صلى الله عليه وسلم كما يشير إليها الدكتور صالح العلي يمكن تلخيصها بثمرة مهمة هي توحيد العرب تحت سلطة مركزية واحدة ، وربطهم برابطة جديدة .. هي رابطة العروبة وعقيدتها الإسلام »[1] .

هذه نماذج فقط تبين لنا كيف يتلاعب هؤلاء الكتاب بحقائق التاريخ ، مموهة باسم الإسلام بعيداً عن أصالة العقيدة فيه لو تصفحنا كتب التاريخ القديمة لاتضحت لنا مواقف عرب الشام والعراق من الفتوحات الإسلامية خير توضيح .

كان العرب ينثالون من الجزيرة نحو الشمال طمعاً في خيرات تلك البلاد ، فتوجهوا بعد الإسلام « دعاة وجنوداً في الطرق التي كانوا ينثالون فيها تجاراً وجنوداً للتجارة .. في صدورهم مطامع ، وكان في صدورهم مطامع .. في قلوبهم وألسنتهم حساب اليوم الآخر ، وكان في قلوبهم وعلى ألسنتهم حساب غنيمة الدنيا ، في أذهانهم فكرة واضحة وليس في أيديهم شيء إلا القرآن ومقبض السيف .. » .

---

(١) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين / د. فاروق عمر ص ١٤ .

« إنهم عرب مسلمون ، ودعاة مهاجرون .. ولم يكونوا من هذه القبائل التي تنشد النفع ثم ترتد فحسب ، ولكنهم كانوا من كل أطراف الجزيرة ، لا يردهم عن غايتهم شيء لأنهم ليس لهم إلا إحدى الحسنيين وليس لأعدائهم إلا اختيار واحدة من ثلاث ... »[1] .

ومن الظلم الفاضح أن يُفسر جهاد المؤمنين الصادقين تفسيراً مادياً علمانيًا ، أو قومياً كما يريده بعض المتأخرين .

بل ومن جنايتنا على التاريخ أن نطمس حقائقه ، فعرب الشام كانوا يدافعون بضراوة عن ملك هرقل ضد الفاتحين من أبناء جلدتهم .

ففي غزوة مؤتة انضم إلى هرقل بالبلقاء مائة ألف من الروم ، وانضم إليه من لخم وجذام وبلي وغيرهم مائة ألف[2] .

وكان قائد قلعة بصرى قد قتل الرسول الذي أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعوه إلى الإسلام ، رغم أن الرسل في عرف العلاقات الإنسانية والحربية لا تقتل .

« وكانت الروم تضرب البعوث على العرب الضاحية ، وكانت تستنفرهم فينفر إليها من بهراء وكلْب وسَليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان »[3] .

فموقف عرب الضاحية كان واضحاً ، فهـم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالترحاب بها والانضمام إليها ، وهم لم يولوها العطف والحدب ، بل إن

---

(١) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول : الدكتور شكر فيصل دار العلم للملايين /ط ٦ ١٩٨٢ م . ص ١٩، ٥٠ .

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير ٢٤٣/٤ .

(٣) حركة الفتح الإسلامي : د. شكري فيصل ص ٤٤ ، ٤٨ نقلًا عن : تاريخ الطبري ٢٠٨١/٤/١ ، ٢٣٤٧/٥/١ ، ٢٣٤٧/٥/١ ، طبعة : (ليدن - بريل) .

البيزنطيين لم يكونوا يقاتلون بالبيزنطيين وحدهم ، كانت كثرة جيوشهم من هؤلاء العرب أنفسهم ، فمن هم الذين قاتلوا في وادي عربة ؟ وَمَنْ هم الذين قاتلوا في أجنادين وفي دمشق ؟ كيف كان يستطيع المجاهدون أن يحفظوا على أنفسهم هذا الحصار ستة أشهر أو سبعة لو رفّت في نفوس العرب صلات القربى وحمي فيهم دم النسب المشترك ... وفي اليرموك كيف كان نصف الجيش من المستعربة عليهم جبلة بن الأيهم الغساني ... وكيف لحقت بعض القبائل ، بعد أن استقر للمسلمين الأمر وانتهى إليهم الزمام بهرقل ومضت معه إلى بلاد الروم ؟[٢] .

كانت كتائب المجاهدين تقصد إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وما كان يخطر ببال قادتها أو أفرادها أن يحرروا الوثنيين أو النصارى من عرب الضاحية (في الشام أو العراق) . بل كان عرب تلك الديار ، أعداءً في قتالهم قد يفوقون سادة تلك الديار من الروم ، والنصوص التي ذكرتُها جلّت لنا ذلك الأمر بوضوح .

أما عرب العراق فقد قاتلوا إلى جانب الفرس في العراق العربي كله ، قاتلوا في الولجة ، وأصاب خالد رضي الله عنه في هذه المعركة في أناس من بكر بن وائل ابناً لجابر بن بجير ، وابناً لعبد الأسود .. وفي أُلّيس تجمع نصارى العرب مع الفرس ، وعليهم عبد الأسود العجلي وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسلمو بني عجل ، وكان العرب ميمنة جيش الفرس وميسرته ، وكان قلبه من الفرس ، فهزمهم المسلمون بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وحين اتجه خالد نحو الحيرة ليفتحها ، تحصن أهلها العرب في أربعة حصون يرمون المسلمين ، ثم طلبوا الصلح فصالحهم خالد على الجزية في ربيع الأول سنة ١٢ هـ .

---

(١) انظر المصدر السابق ، هامش (٣) من الصفحة السابقة .

ثم أغار رضى الله عنه على عرب تغلب الموالية للفرس فى الثني ، ثم في الزميل[1] .

وحين زحف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، نحو العراق كان مما كتب إلى عمر في عام (١٥ هـ) : « إن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قِبَلي أَلْب لأهل فارس قد خفوا لهم ،. واستعدوا لنا »[2] .

وقد نقض عرب العراق العهد مرة بعد مرة ، نقض أهل الحيرة عهدهم ثلاث مرات ، ونقض أهل الأنبار كذلك عهودهم .. أكان يكون الأمر كذلك لو أن العرب وقفوا حقاً إلى جانب الفاتحين وكانت ميولهم معهم ؟ بل لعل العرب هم الذين كانوا يحملون عبء القتال الضاري على طرف الفرات الغربي أكثر من الفرس[3] .

إن الفتوحات الإسلامية كانت متوجهة لقتال أهل الشرك جميعاً ، من الفرس والعرب والروم ... كانت تريد تحرير هؤلاء من خرافة الوثنية وتنقلهم إلى رحابة التوحيد .

وأين رابطة العروبة المزعومة التى جعلت أتباع الفرس والروم يسخرون لقتال عرب الجزيرة المؤمنين ، ويقودهم رجال من ذؤابة قريش ؟ ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إلا أن بعض الكتاب المحدثين يكابرون ، ويطمسون الحقائق ليجعلوا رابطة الدم والعروبة هي التي وحدت العرب ، وهي التي سَهَّلَتْ فتح تلك الديار من الشام والعراق .

---

(١) انظر أحداث عام (١٢ هـ) تاريخ الطبري الجزء الثالث سنة ٢٤٣ وما بعدها ، وانظر حركة الفتح : شكري فيصل (من ص ٨٦-٩٤) .

(٢) سقوط المدائن : أحمد عادل كمال ص ٣٤٦ .

« والألب : القوم تجمعهم العداوة » .

(٣) حركة الفتح : ص ٩٢ .

انظر إلى هذه الأقوال المتهافتة : « فلما ظهر الإسلام ، ووحد النبي صلى الله عليه وسلم الجزيرة ، ووحد العرب تحت راية العروبة .. بدأ العرب يشعرون بكيانهم كأمة واحدة .. ولقد وجههم الإسلام نحو هذه الغاية ، وفرض عليهم الشعور بوحدة العروبة والسير تحت رايتها » .

« وعندما خرج العرب للفتح خرجوا كأمة عربية تحارب أقواماً من الفرس والروم ، كانوا يشعرون شعوراً قومياً برابطة الدم العربي الذي كان يربطهم بأهل البلاد المفتوحة التي كان يحتلها الفرس والروم »[1] .

وبم يعلل سيادة الدكتور غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ضد قريش في بدر وأحد ؟ وضد هوازن وثقيف في حنين ؟ وبم يفسر مقاومة قريش وأحلافهم في مكة المكرمة ؟ أليست هذه المعارك بين عرب وعرب ؟!

ويميل كثير من الكتاب المحدثين – مع الأسف – إلى هذا الرأى بلا دليل علمي ، ولا كتاب مستنير ، ومن هؤلاء : عبد الوهاب النجار في كتابه « الخلفاء الراشدون » ، ومحمد حسين هيكل في « الصديق أبو بكر » وعبد الحميد جودة السحار في « سعد بن أبي وقاص » .

ويبدو أن رأيهم متفق مع الرأي القائل : إن القومية كانت هي الباعث على حركة الفتح[2] .

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن رجلًا إقليمياً أو زعيماً وطنياً ولو أراد ذلك لانضم إلى هذا اللواء القومي أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما ... ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلًا

---

(١) د. أبو الفتوح رضوان : القومية العربية ص ٣٣٦ الطبعة الثانية / مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٥ م .

(٢) انظر عوامل نجاح الفتح الإسلامي : سقوط المدائن أحمد عادل كمال ص ٣٤٤ .

بباطل ... لم يبعث ليخرج الناس من حكم الفرس والروم إلى حكم عدنان وقحطان ، وإنما أرسل إلى الناس كافة ، بشيراً ونذيراً[1] .

ما عزّ العرب إلا بالإسلام :

إن العرب الذين كانوا يفتخرون باستقبال كسرى وقيصر لأحد زعمائهم ، ويعتبرون أن ذلك مجد عظيم ومفخرة لاتضاهى ، يسمو بهم الإيمان على يد أصحاب التربية المحمدية ، حتى يسطروا لنا بمواقفهم – من هؤلاء الملوك – عزة تشبه الأساطير ، يحدثنا شيخ المؤرخين الطبري فيقول[2] : « جاء سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – حتى نزل القادسية ولا يزيد المسلمون على سبعة آلاف ، والمشركون يبلغون ثلاثين ألفاً ، وكانت نبال المسلمين وعدتهم موضع سخرية أهل فارس .. .

وفي هذا الجو يرسل سعد وفداً إلى كسرى يزدجرد .

« وجعل أهل فارس يسوؤهم ما يرون من حال المسلمين ، وحال خيلهم ، فلما دخلوا على يزدجرد أمرهم بالجلوس وكان سيء الأدب ، فسألهم الترجمان : ما تسمون هذه الأردية ؟ وكان يلقى منهم أجوبة يتطير منها ثم قال كسرى : سلهم ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى غزونا ؟ فأجابه النعمان بن مقرن متحدثاً عن فضل الإسلام على العرب ، ودعاه إلى الإسلام ومما قاله : نحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسن وقبح القبيح كله ... فإن أبيتم الإسلام فالمناجزة .. وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم » .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن الندوي ص ١١٧–١١٨ .
(٢) انظر : تاريخ الطبري : ٤٩٦/٣ وما بعدها .

قال يزدجرد : « إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم ، لا تغزوا فارس ، ولا تطمعوا أن تقوموا لهم ، فإنْ **كان الجهد** دعاكم فرضنا لكم **قوتاً** ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم » .

كان كسرى يظن أن الأمر الجديد يشبه مطالب العرب قبل الإسلام، كسوة وطعام وإكرام مشايخ العشائر ، ثم تعيين والٍ يرفق بهم باسم كسرى ، وذلك منة عظيمة .. .

قام إليه المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدي فقال : « ... كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا .. كان ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض ، وإنْ كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا ... (إشارة إلى الوأد) ، فبعث الله إلينا رجلًا معروفاً .. وما أمرنا فهو أمر الله .. » « فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تُسلم تُنحي نفسك » فقال : أتستقبلني بمثل هذا ؟ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم » .

ذُهل الفرس لهذا التغير العجيب عند دعاة الإسلام من المجاهدين ، وما علموا بعدُ أن العقيدة تصنع المعجزات .

وها هو ربعي بن عامر يدخل على رستم بكل عزة ليصور لنا هذا التحول العجيب ، أعرابي يدخل على قائد الفرس ليشرح ببساطة دعوة الإسلام الجديدة : « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

قال رستم : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم » .

ولما سأل رستم جلساءه من رؤساء فارس ما ترون ؟ قالوا وقد سخروا من ثيابه ولباسه : « معاذ الله أن نميل إلى شيء من كلام هذا ... وتدع دينك ، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال رستم « ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة » .

بمثل هذه المواقف الشامخة ، والتربية السامقة ، عز العرب ، واستصغروا جبروت كسرى وأمثاله ، وقد عاشوا قبل ذلك قروناً ، على هامش دولتي فارس والروم ، يسخرونهم لقتال بعضهم ، أو حماية دولتهم ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المنافقون : ٨ .

جـ - مكانة العرب وخصائصهم :

يتميز العرب بصفات أهلتهم لحمل الرسالة ، وهم من أقدر الناس على حملها ، فلغتهم لغة القرآن ، تعلموا العربية وعلموها الناس ، وهم مادة طيبة أكرمهم الله بهذه الرسالة ، وبهذا النبي العربي « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا »[1] .

من أجل ذلك كانت محبة العرب من الإسلام ، ولكن هذا لا يعني أن نجعلهم غاية أو أن نحبهم من دون الله ، لكونهم عرباً ولو كانوا مشركين كما يزعم دعاة القومية .

وهنالك أحاديث عديدة في حب العرب وتفضيلهم ، لعل معظمها ضعيف ، وربما كان من وضع دعاة العروبة، ليردوا على دعاة الشعوبية ..

ومن أقوى هذه الأحاديث ، الحديث المروي عن سلمان رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا سلمان لا تبغضني

---

(١) صحيح البخاري ١٤٢/٤ .

فتفارق دينك » قلت : يا رسول الله : كيف أبغضك وبك هداني الله ؟! قال : « تبغض العرب فتبغضني »[1] .

وروى أحمد والترمذي عن الأوزاعي : « أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة »[2] .

« ومما مر يظهر أن بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر أو سبب للكفر ، ومقتضاه أنهم أفضل من غيرهم ، وأن محبتهم سبب قوة الإيمان » . كما يذكر ابن تيمية رحمه الله[3] .

وذلك لأن جنس العرب يشمل الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما وضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ديوان العطاء ، كتب الناس على قدر أنسابهم ، فبدأ بأقربهم ، فأقربهم نسباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انقضت العرب ذكر العجم .

هكذا كان الديوان على عهد الخلفاء الراشدين، وبني أمية والعباس إلى أن تغير الأمر بعد ذلك .

والسبب في هذا الفضل – والله أعلم – ما اختصوا به عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم ، فالعرب أفهم من غيرهم ، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة ، ولسانهم أتم الألسنة بياناً وهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك ، من الأخلاق المحمودة ، لكنهم كانوا قبل

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك : ٤/٧٣-٧٤ ، وفيه محمد بن ذكوان ضعيف ، لكن الحديث يقوى لمجموع الشواهد التي ذكرها ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم / انظر : تحقيق الكتاب للدكتور : ناصر بن عبد الكريم العقل ١/٣٨٣ ط ١٤٠٤هـ .

(٢) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، انظر سنن الترمذي ٥/٥٨٣ واقتضاء الصراط المستقيم تحقيق العقل (١/٣٨٠) .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم : ١/٣٨٥ تحقيق العقل .

الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ، ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة عن نبي ... فلما بعث الله محمداً بالهدى ، وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم ... أخذوا هذا الهدى بتلك الفطرة الجيدة ، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم ، والكمال الذي أنزله الله إليهم[1]. . .

ومن كلام ابن تيمية السابق ، يُفهم أن العرب يفضلون لقدرتهم على حمل الرسالة ونشرها ، للصفات الفطرية عندهم ، ولصفاء لغتهم لغة القرآن ... الخ . وما كان يخطر بباله رحمه الله ، أن يميز العرب لمجرد النسب مشركهم ومسلمهم ، وهذا ما يتعارض مع الأحاديث الصحيحة ، وقد جاء في صحيح مسلم - كتاب الإيمان -

« يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا عباس عم رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، سلوني من مالي ما شئتم. كل هذا تنبيه لمن انتسب لهؤلاء الثلاثة ألا يغتروا بالنسب ويتركوا الكلم الطيب والعمل الصالح .

ولقد حذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه من العصبية والعنصرية فقال : « إن العرب شرفت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعل بعضها يلقاه إلى آباء كثيرة - مع ذلك - والله لئن جاءت الأعاجم

---

(١) المصدر السابق : ٣٩٦/١، ٣٩٧ ، وانظر بلوغ الأرب للألوسي ١٨/١-٤٧ ، حيث يتحدث الكاتب عن بيان فضل جنس العرب وما امتازوا به من كمال الفهم وحدة الذهن وقدرة على البيان والحفظ .

بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه »[1] .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

فمن قصر به عمله فلن يفيده نسبه ، وإلا لاستفاد من النسب الطاهر أبو لهب ، وأبو طالب ، عمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حول خامات الجاهلية إلى عجائب إنسانية ، بفضل كتاب الله الخالد ، وتربيته الفذة ، فقد عمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمة ضائعة من العرب ، وإلى أناس آخرين من غيرهم ، وأخرج منهم نوابغ كانوا من عجائب الدنيا .

فالعلاقة بين العروبة والإسلام علاقة ود وتكامل ، ولا قيمة للعرب دون إسلام ، وأي فصل بينهما يعتبر جريمة متعمدة ، وشرك خطير ، يريد أن يجعل الإسلام حلقة من حلقات العروبة ليس غير .

وإن الوحدة بين المسلمين شبحٌ أخاف كبرى الدول ، ومازال يخيف أعداء الإسلام حتى هذا العصر .

يقول لورانس – مستشار الثورة العربية الكبرى – (كما يسمونها) ورجل المخابرات البريطانية : « إن أهدافنا الرئيسية هي تفتيت الوحدة الإسلامية ، ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها »[2] .

ويحذر غوستاف لوبون من أي تجمع للمسلمين فيقول : « رغم ما بين الشعوب الإسلامية من فروق عنصرية ، فإنك ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن أن يشدها ويجمعها تحت راية واحدة في أحد الأيام »[3] .

---

(١) نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية ص ٢١٠ / نقلًا عن تاريخ الطبري الجزء الرابع .

(٣،٢) كتاب الوقائع السرية في حياة لورنس العرب ص ٦٤ ، نقلًا عن كتاب لورنس العرب على خطى هرتزل : زهدي الفاتح ، طبعة دار النفائس ١٩٧١ م .

ومن أجل هذه المخاوف تضافرت جهود الأعداء من الشرق والغرب ، لإحباط أية صحوة إسلامية ، أو أي تجمع بين المسلمين ، ولذلك لجأوا إلى تجمعات بديلة أمثال : التجمعات تحت راية القومية ، أو الوطنية أو الطائفية .

وبالختـام :

يمكننا أن نوجز هذا المبحث ونختصر نتائجه بما يلي :

١ – إن العرب لم يعرفوا مفهوم الأمة ، ذات القيم الحضارية المحددة ، ولم يعرفوا الوحدة بين قبائلهم مجتمعة ، قبل الإسلام .
وإنما عرفوا مفهوم الأمة بالإسلام ، إذ أصبح القرآن دستورها وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام رائدها ، أمة منضبطة تطيع خليفة المسلمين ، ذات أهداف واضحة ، تنشر العقيدة والهدي الرباني في أرجاء المعمورة .

٢ – كانت أمة متمزقة ، على هامش التاريخ ، تسخر قبائلها لخدمة مصالح فارس والروم ، فأصبحت أعز أمة بهذا اللدين ، وهذا الذي أذهل يزدجرد وقيصر وأمثالهما .

٣ – وأهم من هذا كله : أصبح العرب حملة عقيدة ، ودعاة دين ، يرتفعون فوق عصبية القبيلة ، يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله ، لينقذوا البشرية من براثن الشرك والطغيان وينقلوها إلى رحابة الإسلام ، وعبادة الواحد الأحد .

٤ – كان العرب أمة ذات فطرة سليمة ، ورجولة ظاهرة وبيان رفيع ، تمكنوا بهذه السجايا أن ينشروا رسالة التوحيد في العالم ، وعندما تقاعسوا عن حملها ، استلم الراية من الأعاجم من أكمل الرسالة ،

وأجهـز على عدو الله والمسلمين أمثال : صـلاح الدين ، وقطز ، ومحمد الفاتح ، عليهم رحمة الله .. والإسلام يحمله أبناؤه أياً كان نسبهم ، ماداموا يطبقون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .
والإسلام الذى يحرم الشعوبية هو الذي يحرم الدعوة إلى القومية بالمفهوم العلماني الحديث .

وعلى شباب الإسلام أن ينتبهوا إلى ما يحاك ضدهم من مؤامرات تحت شعارات مختلفة ، ورايات براقة ، ولن يضل هؤلاء إذا ساروا على ما كان عليه سلف هذه الأمة بإذنه تعالى .

المبحث الرابع : سيطرة العادات وتحكيم الهوى من مقومات الجاهليـــة

من أهم مقومات الجاهلية ، أنها تسير وفق الأهواء والنزغات ، وحسبما تمليه تقاليد القوم وعاداتهم ، وذلك لأنها لا تخضع لشريعة سمحة ، ودين مستقيم .

وكلما ابتعدت الأمة عن تعاليم نبيها ، استسلمت للأهواء والتقاليد .. ولذلك كان أهل الجاهلية يعظمون ما توارثوه عن الآباء والأجداد ، حتى أصبحت هذه التقاليد الموروثة كأنها دين واضح المعالم ، شديد الوطأة ، لا يجوز المساس بتعاليمه وخرافاته ، ولا يصح الخروج على عادات القوم وتقاليدهم .

فمن العادات المذمومة في الجاهلية مثلًا **الفخر بالأحساب والأنساب**[1] .

قال عليه الصلاة والسلام : « أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والناحبة – أو قال النائحة – إذا لم تتب قبل موتها »[2] .

هذا الحديث الشريف يبين لنا سطوة العادات والتقاليد وأنها من أمر الجاهلية .

---

(١) سيكون حديثنا عن الأخلاق الجاهلية والتقاليد عند العرب ، في الكتاب من هذه السلسلة إن شاء الله .

(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم .

« ويدل على بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من الخصال الرديئة ، وقد ورثتهم اليوم طائفة من هذه الأمة تجاوزوا فيها أسلافهم ، فتراهم يفتخرون بمزايا آبائهم ، وهم عنهم بمراحل فهذا يقول : كان جدي الشيخ الفلاني ، وهذا يقول : جدي العالم الرباني إلى غير ذلك »[1] .

ويعتبر ابن تيمية رحمه الله : « أن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة ، وأشباههم من أهل الجهل .. ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة ، يمدح فيها أحدٌ بنسبه ، ولا يُذَم أحدٌ بنسبه ، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى ؟ ويذم بالكفر والفسوق والعصيان ، ثم استشهد بالحديث الشريف : « أربع من أمر الجاهلية » . وقد سبق ذكره ، فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية »[2] .

كانت هذه العادة من أشد عادات أهل الجاهلية وطأة إذ غلا القوم في تعظيم الأسلاف والأكابر ، حتى حجبهم هذا التعظيم عن قبول دين الحق ، فحال هذا التقليد دون إسلام أبي طالب رغم اعتقاده بصدق ابن أخيه – صلى الله عليه وسلم – وما كان عليه من هدي .

ففي الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال : « لما حضرت أبا طالب الوفاةُ ، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده عبد الله بن أبي أمية ، وأبو جهل فقال : يا عم : قل لا إله إلا الله .كلمة أحاج لك بها عند الله .

---

(١) مسائل الجاهلية : الشيخ محمد بن عبد الوهاب /شرح الألوسي ص ١٢٧ .
(٢) الفتاوى : ابن تيمية ٣٥/٢٣٠ .

فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم . فأعادا ، فكان آخر ما قاله : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله »[1] .

فالتمسك بتراث الأسرة والعشيرة ، وبمفاخر الأجداد هو الذي جعل أبا جهل يصر على كفره رغم وضوح الحق أمامه يقول : « تنازعنا - نحن وبنو عبد مناف - الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه »[2] .

لقد رفض أبو جهل الانصياع للحق ، وإلى القرآن الذي استمع إليه خلسة مع نفر من أصحابه من رسول الله في جوار الكعبة ، وكانوا قد تأثروا بما سمعوا .. إلا أنها التقاليد وسيطرة الموروثات الجاهلية . تعمي وتصمّ .

هذا الميراث الجاهلي هو الذي جعل المشركين يحتجون على المرسلين : « إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ » الصافات ٣٥-٣٦ .

فالتكبر والإعراض ، والجمود على العادات السقيمة كانت من أمراض الجاهلية وما تزال حتى الآن تحجب الحق عن كثير من الناس .

ومن عادات الجاهلية المتأصلة :

الثأر :

فقد سببت هذه العادة حروباً لا تنطفيء ، إذ أنها من أكثر عادات أهل الجاهلية رسوخاً ، وأقواها أثراً .

---

(١) المصدر السابق ، والحديث في الصحيحين ، وانظر فتح المجيد ص ١٦٦ .

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٣١٦/١ .

وإن كثيراً من أيام العرب ، كان السبب الأول في إشعالها طلب الثأر[1] .

وكان الثأر عند القوم أقوى من قدسية الحرم والبيت .

وهذا ما تصوره لنا الحادثة التاليـة : « قبيل فتح مكة المكرمة اعتدى بنو بكـر على خزاعة في وقعة الوتير ثم ألجأوهـم إلى الحرم . قالت عندهـا بنو بكر لقائدها نوفل بن معاوية الديلي : يا نوفل : إنا دخلنا الحرم ، إلهَك إلهَك ، فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم ، يا بني بكر : أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟! »[2] لقد أنسى حب الثأر نوفلًا هذا ، قدسية الحرم عنده وعند قومه وتجاهل أبسط قواعد الأدب في ألفاظه ، تحت ضغط هذه العادة السيئة .

ومما يؤكد لنا قوة دوافع الثأر عند العرب ، أن صحابياً جليلًا هو عبد الله بن عبد الله بن أبي بن أبي سلول ، كان قد عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يقتل أباه بيده لأنه رأس النفاق ، وكان مما قاله : « ليخرجنّ الأعز منها الأذل » . أي من المدينة ، فالصحابي الجليل يخشى إنْ قتل والده مسلمٌ لا تطاوعه نفسه فيثأر فيقتل مسلماً بمنافق : « وإني أخشى أن تأمر به غيري ، فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار »[3] . هكذا تغيرت الموازين لدى أصحاب رسول الله .

هذه نماذج من العادات السيئة ، وما كان من السهل أن يتخلص أصحابها من تأثيرها .. وعندما جاء الإسلام حرّم السيء من هذه العادات ،

(١) انظر : أيام العرب « المبحث الخامس من الفصل الأول من هذا الكتاب وعادة الثأر عند العرب « المبحث الثالث » .

(٢) السيرة النبوية : ابن هشام ٣٩٠/٢ .

(٣) المصدر السابق : ٢٩٣/٢ .

وأحل مكانها تشريعات عادلة.. فقد حرم إراقة دم المسلم «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا »[1] .

وجعل إقامة الحد للحاكم المسلم ، فنظم الحقوق ، وشفى النفوس بالعدل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ الإسراء : الآية ٣٣ .

وقضى الإسلام على عادة الثأر بتشريع القصاص : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ سورة البقرة : ١٧٩ .

وقد تجد في أيامنا هذه أن القتيل قد يُقتل في كثير من الحالات ويُترك الجاني ، لأن أهل القتيل لم يستطيعوا التوصل إلى القاتل .. لسبب أو لآخر ، متناسين حرمة دم المسلم وأن هذا من رواسب الجاهلية .. ومن التقليد الأعمى .

التقليد الأعمى :

كان الدين عند أهل الجاهلية مبنياً على أصول أعظمها التقليد ، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار من الأولين والآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ الزخرف ٢٣-٢٤ .

---

(١) سورة النساء : الآية (٩٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ سورة البقرة : ١٧٠ .

إلى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا في ربقة التقليد لا يحكمون لهم رأياً ، ولا يشغلون فكراً ، ولذلك تاهوا في أودية الجهالة ، ويعتبر على طريقتهم كل من سلك مسلكهم في أي عصر كان .

فأهل الجاهلية جعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ما جاءت به الرسل ، أنه لم يكن عليه أسلافهم ولا عرفوه منهم ، فانظر إلى سوء مداركهم وجمود قرائحهم »[1] .

يقول تعالى مصوراً وضع هؤلاء المشركين : « وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾[2] .

إن المتتبع لأحداث التاريخ ، وتراجم الماضي ليقف حائراً مدهوشاً لما يرى من وقائع مذهلة ، أقدمت عليها طوائف من الناس ، فأسبغت قدسية وتعظيماً على الآباء والشيوخ والأجداد ، وأطلقت عليهم من الصفات والنعوت ما يطلق عادة على الآلهة .. ولتقاليد الأسلاف سلطان قوي يأخذ بمخانق البشر ، وسلطان الأجداد والشيوخ يجب أن يقف عند حد معين لا يتجاوزه ، وإلا كان وبالًا ومصيبة على البشرية لا يعرف مداها إلا الله[3] .

فاتباع العادات كان سبباً في مجانبة الحق ، لأن أصحابها يقدمونها على السنّة .

---

(١) مسائل الجاهلية : (ص ٧ ، ١٠) .
(٢) سورة ص : ٦-٧ .
(٣) الكشاف الفريد : خالد محمد علي الحاج ٢/٦٤ .

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : إن من أسباب الخلاف بين المسلمين : « التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت ، أو كانت مخالفة للحق» . وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ وأشباه ذلك ، وهو التقليد المذموم ، فإن الله تعالى ذم ذلك في كتابه بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ .. ﴾ وقوله : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ .. ﴾ فنبههم على وجه الدليل الواضح فاستمسكوا بمجرد التقليد .. فقالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1] .

ويقول رحمه الله : وللاستفادة مما كان عليه الآباء ينبغي أن يخضع ذلك للكتاب والسنة ، للعلم والهدى لأنه « إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال ، فالحق أيضاً لا يعرف دون وسائطهم ، بل بهم يتوصل إليه وهم الأدلاء على طريقه »[2] .

فالخطورة إذن تكمن في تحكيم العادات في أمر الناس ، ولو خالفت الكتاب والسنة ، وما من عادة سيئة أو بدعة محدثة إلا وتميت سنة نيرة ، قال التابعي الجليل حسان بن عطية رحمه الله : « ما ابتدع قوم بدعة في دينهم ، إلا نزع من سنتهم مثلها »[3] والبدعة سبب الهلاك لأنها تقود إلى ترك السنة وفي ذلك ضلال بعيد ، قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم »[4] .

ولذلك حرر الإسلام العقول من الجمود على الماضي ، أو التقاليد السالفة ، التى لا تستند إلى دليل من الشرع ، وسد كل الشعاب المؤدية إلى

(١،٢) الاعتصام : الإمام الشاطبي جـ٢/ ١٨٠ ، ٣٦٢ .
(٣) أخرجه الدارمي بإسناد صحيح .
(٤) أخرجه مسلم .
وانظر : (البدعة وأثرها السيء في الأمة : سليم الهلالي المكتبة الإسلامية : عمّان – الأردن ١٤٠٤ هـ .

تشوية صفاء العقيدة ، وكمال التوحيد حرم الإسلام تعظيم القبور والأضرحة ، وما شابهها من تعظيم الرجال بصنع تماثيل لهم في الميادين العامة ، أو تعظيم صورهم وتقديسها . قال صلى الله عليه وسلم : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله »(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم محذراً من الغلو : « إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين(٢) .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المائدة : ٧٧ .

وقد جعل ابن تيمية رحمه الله الغلو من أسباب المروق من السنة(٣) وكل من غلا في حي أو في رجل صالح .. كأن يجعل فيه نوعاً من الإلهية أو يقول إذا ذبح شاة : باسم شيدي أو يعبده بالسجود له ، أو يدعوه من دون الله كأن يقول : يا سيدى فلان أغفر لي ، أو ارحمني أو انصرني .. أو نحو هذه الأقوال والأفعال .. فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قُتل(٤) .

لقد أهلك الغلو أناساً كثيرين من طوائف هذه الأمة ، وسما الإسلام بعقلية المؤمنين ، وحررها من الخرافة والوهم ، وإشراك أي نوع من الشركاء

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ٢١٥/١، ٣٤٧ ، والنسائي في المناسك وابن ماجة أيضاً في المناسك . والحاكم عن ابن عباس « صحيح الجامع الصغير م٥٢٢/١ والحديث صحيح» .

(٣،٤) الوصية الكبرى : شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٩ و٨٤-٨٥ قدم لها وعلق عليها : محمد عبد الله النمر وعثمان ضميرية .

مع الله في المعتقد واللفظ والعمل ، واشترط أن يكون هوى المؤمن تبعاً لأحكام الشرع الحنيف ... لأن هذا هو الميزان الذي يضبط أعمال المسلم .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

فاتباع العادات بلا دليل شرعي ، والغلو في أمر الدين يؤديان إلى اتباع الأهواء والبعد عن تحكيم النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، وذلك كله من رواسب الجاهلية .

اتباع الهوى من رواسب الجاهلية :

يقول ابن تيمية رحمه الله : « وأضل الضلال : اتباع الظن والهوى ، كما قال تعالى في حق من ذمهم : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[2] .

وقال تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم : « ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[3] .

فنزهه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم ، فالضالّ هو الذي لا يعلم الحق ، والغاوي الذي يتبع هواه ، وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس ، بل هو وحيٌ أوحاه الله إليه ، فوصفه بالعلم ونزهه عن الهوى[4] .

---

(١) قال النووي : حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح ورواه أيضاً الطبراني والحافظ وأبو نعيم في الأربعين « فتح المجيد ص ٣٣١ » .

(٢) سورة النجم : الآية (٢٣) .

(٣) سورة النجم : الآيات (١-٤) .

(٤) الوصية الكبرى : شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٩ .

فأهل الجاهلية كانوا يتبعون الأهواء ، عندما يحكمون العادات والتقاليد ، وليس لهم تشريع سماوي ، إذ لا معبود لهم إلا الهوى صراحة أو مواربة ، وعلى « حسب المعبود يكون منهج الحياة ، فحين يكون المعبود هو الله ، يكون منهج الحياة هو المنهج الرباني ، المبين فيه الحلال والحرام ، والحسن والقبيح ، والمباح وغير المباح ، وحين يكون المعبود شيئاً آخر ، يكون منهج الحياة هو الذي يمليه ذلك الشيء المعبود ، سواء كان هو الهوى صراحة دون مواربة، أم كان هو الهوى من وراء أستار وشعارات وعناوين .

ومن ثم تتعدد الصور في الجاهليات المختلفة ، وتلتقي في أنها كلها هوى ... إن يكن هوى فرد بعينه ، أو مجموعة أفراد ، أو هوى كل الناس مجتمعين ... فكلها في النهاية أهواء »[1] .

لقد حدّت الشريعة من تحكيم الهوى ، وضبطت الأمور بالنصوص الثابتة ، فحرمت البدع في الدين لأنها تقوّل على الله ورسوله « لأن الشريعة كانت إذا أخذت في الدروس ، بعث الله نبياً من أنبيائه يبين للناس ما خُلقوا لأجله، وهو التعبد لله ... وأن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان[2] . لأن الله تعالى قال فيها : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ «المائدة : ٣» وفي الحديث الشريف الذي رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه .. « فإنه من يعشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة »[3] .

---

(١) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ص ١٨ .

(٢) الاعتصام · الشاطبي رحمه الله : ٤٨/١ .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح ، والنووي في الأربعين .

فاتباع الهوى في التشريع حقيقته افتراء على الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ؟! ﴾ سورة الجاثية : ٢٣ .

لذلك كانت البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها »[١] .

فاتباع الهوى مزلق خطير ضلل كثيراً من الفرق ، الخوارج والشيعة .

أما الخوارج فقد غلوا في فهم آيات الوعيد ، وأعرضوا عن آيات الرجاء وأما الشيعة فقد كان الغلو كذلك أحد أسباب ظهورهم ولعله أقوى هذه الأسباب ، وكان ابن سبأ اليهودي حامل لواء الرفض ، ثم كان مقتل الحسين رضي الله عنه مقوياً لتيار الغلو عندهم ، ثم استمر خط التشيع في الانحراف حتى وصل الغلو إلى رفع الأئمة لدرجة النبوة بل وإلى مقام الألوهية عند بعض طوائفهم[٢] .

ولذلك يقول الخميني : « فإن للإمام مقاماً محموداً ، ودرجة سامية ، وخلافة تكوينية ، تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون . وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل »[٣] .

ومن المزالق الخطيرة أيضاً ، تحكيم العقل في القضايا الشرعية ذات النصوص القطعية ، وتعريب كتب الفلسفة ، مما أدى إلى ظهور البدع وكثرتها في المجتمعات الإسلامية ، فقد ضخم المعتزلة دور العقل في القديم ،

---

(١) الفتاوى : ابن تيمية : ٩/١٠ نقلًا عن سفيان الثوري وغيره من السلف .

(٢) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : اللالكائي تحقيق د. أحمد سعد الحمدان ، جـ ١ ص ٣٧ ، ٤١-٤٣ .

(٣) الحكومة الإسلامية : روح الله الخميني : تقديم وتعليق الدكتور محمد الخطيب ص ٤٧ / دار عمار : عمان – الأردن ، ١٩٨٨ م .

ومثلهم القدرية والجهمية والمرجئة ، فضلوا بسبب تحكيمهم العقل في أمور العقيدة ، وبسبب عدم قبول أي حديث يخالف ما تقرر في أذهانهم بحكم العقل ، أو تأويلهم له ، فأدى ذلك بهم إلى رد كثير من الأحاديث الصحيحة والطعن في رواتها[1] .

ولذلك كان الجدل مذموماً ، قال صلى الله عليه وسلم : « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصيم »[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[3] .

وروى عن الأوزاعي رحمه الله قوله : « إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل »[4] .

وفي العصر الحديث ظهرت طوائف ، سارت على خطي المدرسة العقلية عند المعتزلة ، تحسّن ما تشاء وتقبح ما تشاء ، وترد من أحاديث المصطفى ما يحلو لها ، لتساير الحضارة الغربية الوافدة ، مدرسة عقلية عصرية جديدة ، انهزمت أمام حضارة التيه والضياع ، تريد التفلت من تراثنا وسنة نبينا لتتبع الناعقين من اليهود والنصارى .

قال صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى قال فمن ؟ »[5] .

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة : اللالكائي : ١/٤١ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : ح ٤٥٢٣ ، ٧١٨٨ .

(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، ح ٣٢٥٣ وأحمد : ٥/٢٥٢، ٢٥٦ .

(٤) رواه ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٢/١١٤ .

(٥) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

والنجاة الحقيقة في اتباع منهج السلف ، والتمسك بالسنة المطهرة ، فقد روي عن الأوزاعي رحمه الله أنه قال : « اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا : وكف عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم »[1] .

اصبر على السنة ولو خالفك الناس ، سر على طريقة السلف ولو خالفت العادات والتقاليد ، مادام الحق معك . قال ابن مسعود رضي الله عنه : « الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك »[2] .

وقال القاضي عياض رحمه الله : « عليك بطريق الحق ، ولا تستوحش لقلة السالكين ، وإياك وطريق الباطل ، ولا تغتر بكثرة الهالكين »[3] .

وما أكثر الهالكين في أيامنا هذه ، أولئك الذين ابتعدوا عن تطبيق السنة ، واتبعوا الأهواء والبدع ، وحاربوا أهل الحق ، حتى أصبح الحق غريباً ، وأهله غرباء ... قال صلى الله عليه وسلم : « طوبى للغرباء ، أناس صالحون في أناس سوء كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء . قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس »[5] .

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : ١٥٤/١ .
(٢) مشكاة المصابيح : تحقيق الألباني (٦١/١) .
(٣) مدارج السالكين ، ابن القيم (٢٢/١) .
(٤) صحيح الجامع الصغير (٣٨/٦) .
(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٧٣) ، وأخرجه مسلم في صحيحه .

بعض صور التقليد المذمومة في حياتنا المعاصرة :

ما يزال كثير من الناس يسايرون الأعراف والتقاليد ، على حساب السنة وهدي الإسلام .

فكثير من عادات الأفراح مثلًا ، يضطر بعض الطيبين فيها إلى مجاراة العادات خوفاً من كلام الناس ، ولو أدى ذلك إلى التبذير المذموم ، أو السكوت على تصوير العروسين من قبل غير المحارم ، وبعض النساء في حالات غير مستورة،أو قد يضطر أهل الفرح إلى السماح للمطربين أو المطربات بالغناء الماجن مع استخدام آلات اللهو المحرمة ... أو أن يُجَاروا العادات في اختلاط الرجال بالنساء .

هذه صور موجودة في كثير من أنحاء العالم الإسلامي مع الأسف ، وما كان بعض المسلمين يقومون بها إلا تحت ضغط العرف ، والسير في ركابَ المجتمع وتقاليده .. ولابد من قوة الإيمان ، ووضوح الدليل ، ومواقف من الرجولة ، لتحكم السنة وتقمع البدعة .

وفى عادات المآتم تجد كثيراً من الناس ينسون أنفسهم وينسون مصيبة الموت ، وأنها خير واعظ ، ويلجأون إلى بدع عجيبة ، فالنائحات اللواتي يلطمن الوجوه ، وولائم بعد الأربعين (الأربعينية)، وعادات في التعزية مبتدعة ، ليس لها من الإسلام نصيب ، وطريقة خاصة في استقبال المعزّين والمعزيات ، إضافة إلى لبس السواد والحِداد .

وقل مثل ذلك في بدع أخرى للمولود ، وما يسمى بعيد الميلاد ، في كل عام جرياً على عادة النصارى .

وهناك الغلو في المشايخ أو الزعماء، وحبذا لو كان تقليد هؤلاء مع الدليل الشرعي ، إن هؤلاء : « يقلدون شيوخهم في الخطأ والصواب من

أفعالهم ، ويأخذون عنهم كل ما يأمرون به أو يدعون له ، ولا يقبلون بهم نقداً أو نصحاً .. ورغم ذلك يزعم هؤلاء الأتباع أنهم مؤمنون بضرورة التجديد والتغيير ، ووجوب التمسك بالبينة والدليل » .

« تُرى لو جمد عقل صلاح الدين الأيوبي على مثل الأفكار السائدة في عصره ، هل كان قادراً على دحر قوات العدو ، وتطهير القدس وبلاد الشام من دنس الصليبيين والباطنيين العبيديين ؟ وهل كان شيخ الإسلام ابن تيمية قادراً على إصلاح ما فسد من عقائد الناس ، وتوحيد كلمة المسلمين وجمعهم على مواجهة التتار وما أعقبه من نصر ؟ » .

« مثل هذه المناهج لا تصلح أن تكون أساساً للتغيير ووحدة صف المسلمين ... ، وإذ كان الأمر كذلك فلماذا لا نختصر الطريق ونعود إلى التمسك بالمنهج الأول الذي صلح به أمر هذه الأمة من قبلُ ، ولا صلاح لأمتنا اليوم إلا به »[1] .

وقد مر معنا الحديث الشريف : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » .

وهنالك طوائف ما يزال أتباعها يقدسون الأضرحة ويتبركون بها ، في أنحاء العالم الإسلامي ، ويتعلقون بخرافات المتصوفة وتقديس المشايخ ، وتهويمات أحلامهم، حتى أصبح الأتباع يصمون آذانهم عن الدليل الشرعي الصحيح لأنّ الناصح لن يكون أفهم من شيوخهم مهما كانت الظروف ... إن التعصب لرأي الشيخ أو الزعيم ، سبب حزبية ضيقة وتحجراً ذميماً ، وهذا من البلاء في أيامنا الحاضرة ، زيادة على ما نحن فيه من فتن وبلاء في

---

(١) انظر : منهج الأنبياء في الدعوة : ١٤/١ وما بعدها تأليف الشيخ محمد سرور زين العابدين .

أنحاء بلاد المسلمين وإن هذه التربية ، تؤدي إلى تربية جيل من الأتباع لا الأحرار ، ولا دعاة التغيير المنتظر .

قال ابن عباس رحمه الله : « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تقولون قال أبو بكر وعمر ؟! » .

ومن رواسب التعصب الذميم ، التعصب المذهبي بلا دليل ولا حجة شرعية ، والمفاصلة على أساس هذا التعصب إلى تفريق المسلمين وتناحرهم .

والأئمة الأجلاء ينصحون المسلمين بضرورة التمسك بالدليل إذا تبين لهم ذلك .

فالإمام الشافعي رحمه الله يقول : « أجمع العلماء على أن مَنْ استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد » .

وقال أيضاً : « إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط » .

وقال الإمام مالك رحمه الله : « ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم » .

وقال أيضاً : « ما كان من كلامي موافقاً للكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافق فاتركوه »[1] .

وقال مثل ذلك بقية الأئمة أبو حنيفة ، والإمام أحمد رحمهم الله جميعاً .

---

(١) انظر : الاعتصام : ٣٤٦/٢ ، وفتح المجيد : ص ٣٢٠ .

فالتقليد دفع البعض في العصور المتأخرة إلى التعصب الذميم البشع لآراء الأئمة وأقوالهم ، وتقديمها في أحيان كثيرة على النصوص الصريحة المخالفة لهذه الآراء والأقوال ... »[1] .

فالأئمة أنفسهم رحمهم الله ، كانوا يرجعون عن رأيهم إذا تبين لهم الدليل ... وهذا هو الحق الذي كان علماء هذه الأمة يوجهون الناس إليه قال الشاطبي رحمه الله : « ولقد زل بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوام ، خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصواب والتابعين ، واتبعوا أهواءهم بغير علم فضلوا عن سواء السبيل »[2] .

إلا أن الإفراط في هذا الجانب قد يؤدى إلى عكس المراد ، حيث أن بعض طلبة العلم ممن لم تكتمل لديهم وسائل طلب العلم والتفقه في السنة ، صاروا يتطاولون على الأئمة ، وعلى أهل الفضل من العلماء القدماء والمحدثين ، بحجة أن أولئك رجال وهم رجال ، ولو كان أساس هذه الدعوى عند هؤلاء غير صحيح ، وكان أهلها إلى الجهل أقرب .

هذه مشلكة المسلمين ، إفراط أو تفريط إلى أحد الجانبين ، وخير الأمور أوسطها ، والتوازن مطلوب وكفانا تجارب مرتبكة ، وكل ما نرجوه من الله تعالى أن يجنبا الهوى وأن يبعدنا عن الزلل ، ويسدد خطانا على ما يحبه ويرضاه ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد : محمد إبراهيم شقرة .

(٢) الاعتصام للشاطبي : ٣٤٧/٢ ، وضرب المؤلف لذلك عشرة أمثلة يتحدث فيها عن اتباع الآباء ورأي الإمامية في تحكيم الرجال على الشريعة ، ورأي المقلدة في المذاهب ، والصوفية وغير ذلك - فارجع إليها إن شئت .

المبحث الخامس
من أيام العرب الدامية ...
إلى آفاق الجهاد في سبيل الله

من أهم مقومات الجاهلية ، كثرة الحروب الدامية ، وشيوع القتال وإراقة الدماء ... وعندما جاء الإسلام حول هذه الطاقات الحربية إلى القوة في نشر الدعوة ، وإلى الجهاد بكل أنواعه المشروعة ، ضمن ضوابط هذا الدين الحنيف بعيداً عن النزوات الطائشة ، وعن سمات القتال عند أهل الجاهلية .

أ - قتال أهل الجاهلية[1] :

كان القتال آنذاك ضرورة أساسية ، للحصول على العيش بالنهب والسلب ، أو لأجل دوافع شخصية ، أو قبلية تتعلق بالثأر أو تدافع عن المفاخر الموروثة ، والتقاليد المقدسة .

كانت تسفك الدماء لأتفه الأسباب ، فقد كانت القوة وصليل السيوف ، والغارات المروعة من أسس حياة العربي في جاهليته ، ومجال فخره وعزه ، حتى أصبحت حكمتهم المنشودة : «ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه : يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم» وصار من أمورهم العادية الإغارة على القريب والبعيد :

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا لم نجد إلا أخانا

(١) انظر تفصيلًا لذلك : المبحث الثاني من الفصل الأول « الحروب الجاهلية » ص ٣٧ وما بعدها .

حتى كأن إراقة الدم ، أصبحت سنة من سننهم ، فهم دائماً قاتلون أو مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم .

فقد كان العربي شجاعاً لا يهاب الموت ، يتغنى بالفروسية ، ويعجب من الجبن والانهزام .. ويفتخر بنفسه بتعال وعزة .. خرجت قريش تريد اجتثاث المسلمين في بدر ، تجر رداءها تيهاً وكبراً كما وصفهم تعالى في قوله : « بَطَرًا وَرِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الأنفال : ٤٧ .

وعندما علمت قريش بنجاة القافلة ، همّ زعماؤها بالرجوع إلا أن أبا جهل أبى وقال : « والله لا ترجع حتى نقدم بدراً ، فنقيم بها ، نطعم من حضرنا ، ونُسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب ، فلا تزال تهابنا أبداً وتخافنا »[1] .

هكذا كان منطق الجاهلية وما يزال ، حب الظهور ، وارتكاب المحرمات من شرب الخمور ، وعزف القيان والموسيقى ... .

وعندما التقى الفريقان ، قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذه قريش ، جاءت بخيلائها وفخرها ، جاءت تحادك ، وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني »[2] .

جاءت قريش بخيلائها وفخرها ، برواسب جاهليتها لتصد عن سبيل الله ، وتقاتل النخبة المؤمنة من أبنائها المهاجرين ، وإخوتهم من الأنصار .

فما الذي صنعه الإسلام مع هذا الميراث القبلي الخطير ؟ وما الذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل انتشار العرب والناس جميعاً من نوازع الانتقام والثأر ؟ ومن دوافع الأثرة وحب المغنم والغزو ؟

(١،٢) مختصر السيرة النبوية : الشيخ محمد بن عبد الوهاب « ص ١٠٩-١١٠ » .

لقد رباهم تربية فريدة ستبقى نبراساً للأجيال اللاحقة ، وهيأهم للجهاد في سبيل الله بمفهومه الرحب المتجرد ، علمهم أن القتال لا يكون إلا من أجل إعلاء كلمة الله .. نقل طاقاتهم الشجاعة الفذة إلى معاني الدين الجديدة .

ب – تربية رسول الله صلى الله عليه سلم لجيل الذروة[1] :
– على الإيثار والتضحية والجهاد –

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه خلال العهد المكي إلى التجرد والطاعة والصبر على الابتلاء ، حتى تتهيأ نفوس المؤمنين إلى الجهاد بعد أن تتعود ضبط النفس وكبح جماحها ، وأن تتمثل الطاعة المطلقة لله ولرسوله .. هذه الطاعة جعلت المؤمنين يقدمون نفوسهم رخيصة في سبيل نشر الدعوة وقتال الكفرة والمشركين .

« وعندما تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها إلى حد إهدار الدم ... يومئذ لم يكن يقدم على شهادة أنْ لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد ، إلا كل مَنْ نذر نفسه لله وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والعذاب والموت ...

لم يكن يقدم على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، إلا العناصر المختارة الفريدة التكوين »[2] .

---

(١) انظر تفصيلًا لذلك : التربية العقدية ودورها في اجتثاث مقومات الجاهلية (ص ١٠٧–١٢٧) من هذا الكتاب .

(٢) فقه الدعوة لسيد قطب : اختيار أحمد حسن : ص ٩٣ وما بعدها .

هذا المجتمع الفريد كانت لحمته من المهاجرين والأنصار ، مجتمع صهرته العقيدة ، فكان التآخي الحق ، بالإيثار والتضحية ، لا في الخطب والمقالات، كانت أخوة التطبيق، لا النظريات . هذا المجتمع قبل سنوات كان أفراده يشنون القتال على بعضهم في حروب الفجار ، وبعاث لأغراض قبلية ، ودوافع جاهلية موروثة .

لقد طبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفاصلة مع المجتمع الجاهلي في أروع معانيها ، فارتفعوا بالإسلام إلى آفاق عالية إلى آفاق العقيدة الرحبة ، آفاق الشهادة ونعمت الشهادة من مطلب .

هذه التربية المحمدية أفرزت نماذج قلما نرى لها مثيلًا إلا عند مَنْ ساروا على نفس الدرب الوضيء من التجرد والإخلاص .

فهذا عمير بن الحِمام – رضي الله عنه – يسمع موعظة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وما وعد الله به عباده المؤمنين من الشهادة والجنة فيلقى تمراتٍ من يده ، كان قد أخرجهن ليتقوى بهن في بدر قبل المعركة ثم يقول : « لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بهن وقاتل حتى قتل فكان أول قتيل » .

وفى أحد كان أبو دجانة يترّس بظهره على رسول الله ، والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك مفدياً رسول الله بنفسه ...

وعندما مر النضر بن أنس – في نفس المعركة – بقوم من المسلمين قد ألقوا ما بأيديهم ، عندما أشيع أن رسول الله قد قتل قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، وقال النضر لسعد بن معاذ – رضي الله عنهما –: يا سعد ، إني لأجد ريح الجنة من دون أحد ، فقاتل حتى قتل رحمه الله ، ووُجد به سبعون جراحة ..

وفي مؤتة عندما استلم الراية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه تقدم بها وهو على فرسه ، وهو ينشد مخاطباً نفسه :

أقسم بالله لتنزلنـــــــه لتنزلــن أو لتُكرَهنّـــــهْ
ما لي أراك تكرهيـن الجنــة

ثم نزل فأتاه ابن عم له بعرْق لحم وقال : شدّ بهذا صُلبك ، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذها فانتهش منها نهشة ثم سمع الحطمة في ناحية الناس ، فقال وأنتِ في الدنيا ؟ فألقاها فى يده، وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله[1] .

هكذا كان التجرد لله في جهاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كان الفداء والإخلاص ، ومن هذه التربية انطلق السلف الصالح رضي الله عنهم ، في كتائب الجهاد يفتحون البلاد وينشرون الإسلام ، والعدل والمساواة ، يخلصون الناس من عبادة العباد والأرباب المتفرقة ، وينقلونهم إلى عبادة الواحد الأحد ... خلصوا البشرية من قتال أهل الجاهلية ؟ ومن دوافع هذا القتال الذي مزّق قبائل العرب كل ممزق ، فجعل منهم خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتقيم شرع الله في عالم الواقع ...

إن النماذج لا تنتهى من سيرة سلفنا الصالح ، ولكننا نقدم بعضها للأجيال الناشئة المؤمنة ، لتسير على ذلك الهدي الرباني ، الذي تمثل في تربية إيمانية ، يبتعد عن التحزب للرجال ويعرف الغاية التي من أجلها شرع الجهاد ، والوسائل المروعة في هذا الجهاد ، حتى لا تقع هذه الأجيال بين تشنج المغالين ، ولا تميّع المنهزمين .

---

(١) مختصر السيرة النبوية : الشيخ محمد بن عبد الوهاب صفحات (١١ ، ١١٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩) .

جـ - أهداف الجهاد وغاياته[1] :

لقد وجه الإسلام القتال نحو غايات سامية ، وأهداف خيرة فأبطل الدوافع الجاهلية للحروب ، ونفي الأثرة والأنانية ... ونجد ذلك واضحاً عندما حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الجهاد بقوله : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[2] .

وقد اختار الإسلام تعبير « الجهاد » ، ليحل محل كلمة الحرب بمعنى القتال ، حتى يصرف وجهه عن الكلمات القديمة الرائجة بما يرافقها من إيحاءات - « فالإسلام لا ينظر إلى مصلحة أمة دون أمة . وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم ، وتحقيقاً لهذه الغاية السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع الوسائل لإحداث انقلاب عالمي شامل .. وسمى ذلك الكفاح وتلك الوسائل المستطاعة الجهاد .

وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت : إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبدل ميولهم ونزعاتهم ، وإحداث انقلاب عقلي وفكري بواسطة مرهفات الأقلام من أنواع الجهاد ، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيف ، وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنّصفة من أنواع الجهاد أيضاً ... »[3] .

---

(١) انظر : أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية د. علي العلياني من (ص ١٥٨ - ١٩٢) ، ومنهج الإسلام في الحرب والسلام (١٢٦ - ١٣٢) الأستاذ عثمان جمعة ضميرية .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٤٩/١٣ .

(٣) انظر رسالة الجهاد : المودودي رحمه الله (ص ١٣-١٤) ضمن ثلاث رسائل مع البنا وسيد قطب رحمهم الله .

فبذل الأموال وتحمل المشاق ومكابدة الشدائد من الجهاد ... ويريد الإسلام من ذلك تحرير العباد من عبوديتهم لبعضهم إلى العبودية لرب العباد ، يريد إزالة الطواغيت كلها من الأرض .

قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ سورة البقرة : ١٩٣ .

والفتنة هنا الشرك ، ويكون الدين لله : أي يكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان[1] .

وقد فهم الصحابة الأولون ، وسلف هذه الأمة الغايات من الجهاد ، وصار جلياً في سلوكهم وأقوالهم ، انظر إلى ما قاله ربعي بن عامر إلى رستم قائد الفرس .. قال رضي الله عنه :

« إن الله ابتعثنا لنخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله ، قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي »[2] .

ويتحدث سيد قطب رحمه الله عن بواعث الجهاد بقوله : « إن بواعث الجهاد في الإسلام ، ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته ودوره في هذه الأرض ، وأهدافه العليا التي قررها الله ...

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد ، من العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه ، وربوبيته للعالمين » .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣٢٩/١ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٣٩/٧ .

« إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي ، وليس رسالة خاصة بالعرب ، إن موضوعه هو الإنسان ، نوع الإنسان ومجاله هو الأرض كل الأرض ... » .

فبالجهاد يُحرَّر البشر ليختاروا العقيدة التي يرونها ، ومنها اعتناق « العقيدة بحرية .. ثم ليقيم الإسلام نظاماً اجتماعياً واقتصاديا وسياسياً .. بعد إزالة القوة المسيطرة » من قبل الطواغيت في الأرض[1] .

وبعد تحرير العباد واختيارهم العقيدة الصافية ، ونشر التوحيد الذي هو الهدف الأساسي من الجهاد ، هنالك أهداف أخرى ، مثل رد الاعتداء عن المسلمين ، وحماية ديار المسلمين من شر الكفرة ، وقتل الكافرين يعتبر من أهداف الجهاد أيضا ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ سورة محمد : ٤

وإرهاب الكفرة وإذلالهم من غايات الجهاد « ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[2]

ويعتبر من أهداف الجهاد أيضاً : كشف المنافقين ، وتمحيص المؤمنين من ذنوبهم .

هذه هي أهم أهداف الجهاد النبيلة ، إعلان لكلمة الله في الأرض وما عداها فليس من الجهاد .. ولو قارنا هذه الأهداف بدوافع القتال في الجاهلية ، لعرفنا فضل الإسلام على هذه الأمة وعلى البشرية جميعاً .

وقد فهم شعراء الدعوة الإسلامية فى القديم وخلال عهد السلف خاصة ، هذه الأهداف النبيلة وصاغوها شعراً موحياً معبراً .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣/١٤٣٣ - ١٤٢٥ .

(٢) التوبة : (آية ١٤) .

يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه في شهداء أحد[١] :

فإن تذكروا قتلى وحمزة فيهم ... قتيلٌ ثوى لله وهو مطيع
فإن جنان الخلد منزلُهُ ، بها ... وأمرُ الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكم في النار أفضلُ رزقهم ... حميمٌ معاً في جوفها وضريع

ويحدد كعب بن مالك رضي الله عنه هدف المجاهدين من القتال ، ويتحدث عن هزيمة المشركين في حنين .

وعندما سمعت قبيلة دوس هذه القصيدة جاءت خائفة لتعلن إسلامها قال : « منها هذه الأبيات »[٢] :

قضينا من تهامةَ كل رَيْب ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا
نخبِّرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً بل ثقيفاً
نجالد ما بقينا أو تنيبوا ... إلى الإسلام إذعانًا مضيفا
لأمر الله والإسلام حتى ... يقوم الدين معتدلًا حنيفا
وتُنْسي اللات والعزى وودٌ ... ونسلبها القلائد والشنوفا

وها هو عبد الله بن المبارك ، العالم المجاهد ، كانت حياته كلها جهاداً في سبيل الله بنفسه وماله وعلمه، كان رحمه الله يرابط في الثغور كثيراً، وكان يحج عاماً ويغزو عاماً ، كان يدعو إلى الجهاد ، ويحث الناس عليه لنصرة دين الله ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا .. كان ينعى على النساك القاعدين عن الجهاد سوء فهمهم لمعنى العبادة[٣] .

---

(١) ديوان حسان : ص ١٥١ ، دار بيروت للطباعة والنشر .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٤٧٩/٢ - ٤٨٠ ، وابن سلّام : طبقات فحول الشعراء : ١٨٤ - ١٨٥ . والشنوف : الأقراط .

(٣) انظر مقالاً فى مجلة البيان : عبد الله بن المبارك العالم المجاهد د. محمد مطر الزهراني ، الأعداد : (١٩-٢١) .

وها هو يراسل الفضيل بن عياض من أَحَد الثغور فيقول :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في	أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلما قرأه الفضيل ذرفت عيناه ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح[1] .

رحم الله أولئك المجاهدين العابدين ، صدقٌ في العمل وصدق في النصيحة ، وتقبل صادق لها .

هكذا كانت الأمة كلها تفهم معنى الجهاد ، فيتسابق الصحابة والتابعون نحو الشهادة سراعاً ، لأنها أمنيتهم وطريقهم إلى الجنة بإذن الله . والجهاد ماض إلى يوم القيامة ، لن يتوقف حتى ينتهي وجود البشر في الأرض ، لأن الصراع بين الحق والباطل سنة إلهية . قال عليه الصلاة والسلام :

« الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة »[2] .

---

(١) تاريخ بغداد : ٢١/١، ط السلفية بالمدينة المنورة .

(٢) فتح الباري : ١٤٢/٦ .

ء - أهمية الجهاد[1] :

« حكمه وأنواعه »

أوجب الله تعالى الجهاد على المسلمين فقال ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التوبة : ٤١ .

وفي الحديث الشريف : ﴿ من مات ولم يغزُ ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق »[2] .

وقد رغب الإسلام في الجهاد وبين فضائله ، لأنه ركن من أركان هذا الدين ، وقد وصفه رسول الله بأنه ذروة سنام الدين ،وإن فضائله في الكتاب والسنة لا تحصى .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران : ١٦٩ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[3] .

وفى صحيح مسلم : « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن »[4] .

---

(١) انظر : أهمية الجهاد ، العلياني ص ٢٣٤ وما بعدها ، ومنهج الإسلام ص ١١٥ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٥٦/١٣ .
(٣) صحيح البخاري : ٢٠٨/٣ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي : ٣٠/١٣ .

وحذر الإسلام من ترك الجهاد لأن ذلك سبب البلاء ، وسبب لعذاب الله وبطشه . قال تعالى : ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة التوبة : ٤٩ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله »[١] .

كل هذه النصوص تبين لنا مدى أهمية الجهاد وفضله ، وإنّ جنس الجهاد للكفار متعين على كل مسلم ، إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه[٢] .

« ولقد أجمع فقهاء الأمة ، على أن الجهاد فرض ، لا يسَعُ المسلم تركه ، ولكن وقع الخلاف في نوع هذا الفرض ، هل هو فرض كفاية ، أو فرض عين ؟!

ذهب سعيد بن المسيب إلى أنه فرض عين ، وقال الداوودي إنه فرض عين على مَنْ يلي الكفار ، وقال جمهور الفقهاء : إن الجهاد فرض كفاية ، إن لم يكن النفير عاماً ، إذا قام به بعض المكلفين سقط الوجوب عن الباقي »[٣] .

---

(١) رواه الترمذي ، وإسناده صحيح .

(٢) فتح الباري : ٢٨/٦ .

(٣) انظر : منهج الإسلام في الحرب والسلام : ص ١٢٣ وما بعدها ، والعلياني ص ١٢٤ وما بعدها ، حيث تجد للعلماء آراء في مسألة حكم الجهاد فارجع إليها إن شئت .

أنــواع الجهــاد[1] :

الجهاد يستنفذ طاقة الأمة كلها من جهاد الكلمة : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (أخرجه ابن ماجة)

وجهاد بالمال والإنفاق وتجهيز الغزاة ، إلى جهاد القتال وبـذل النفس وهو أعلاها درجة .

والجهاد قد يكون هجوماً ، وقد يكون دفاعاً ، والثاني فرض عين على المسلمين عموماً حتى يندفع شر الأعداء ، وهذا ما أجمع عليه علماء المسلمين .

وفي الحديث الشريف : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله »[2] .

يقول القرطبي رحمه الله : « إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ... فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالًا ، شبابا وشيوخاً ، كل على قدر طاقته »[3] .

وقد حاول المستشرقون إيهام المسلمين بأن دينهم انتشر بالسيف والإرهاب ، وأن حربهم هجومية ، والعقائد لا تنتشر بالسيف .

« كل ذلك بأسلوب ماكر خبيث جر بعض البسطاء من المسلمين لينكروا أن الإسلام فيه حرب هجومية ، وأنّه دين السّلم والسلام وأنه لا

---

(١) انظر المرجعين السابقين : صفحات ١٠٧ ، ١٣١-١٣٤ ، ١٧٠ منهج الإسلام وص ٣٤ ، ١٤٣ أهمية الجهاد .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢١٢/١ .

(٣) تفسير القرطبي : ١٥١/٨ .

جهاد إلا بعد العدوان ... والواقع أن هذا الدين هو إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد ، وهذا الإعلان يأخذ صورة الحركة والجهاد وبجانب البيان النظري ، ليزيل العقبات المادية ، التي تقف أمام اعتناق العقيدة دون إكراه ... ولو كان أبو بكر وعثمان وعمر رضي الله عنهم ، قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض ؟ »[1] .

ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب :

هذا ما شهد به الأعداء ، وعدل ورحمة ، خلال كتائب الإيمان وهي تنشر نور الإسلام بين الأمم ..

يقول غوستان لوبون : « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب » .

ويقول توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام ، عن عدل المسلمين في البلاد المفتوحة :

« ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في فجل ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : يا معشر المسلمين : أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، وأنتم أو فى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » .

« وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم »[2] .

---

(١) في ظلال القرآن : ١٤٣/٣ .

(٢) كتاب الدعوة إلى الإسلام : أرنولد ص ٧٣ . « نقلا عن الأزدي والبلاذري » .

هذه هى الحرب المشروعة في الإسلام ، وقد أبطل الإسلام حروب العصبية، وحروب التشفي والتخريب والتدمير والتنافس في مجالات الاقتصاد والسياسة ... مما تجعله الأمم الجاهلية سبباً لحروبها البشعة التي نشاهد لها أمثلة كثيرة في قرننا الحالي ، وفي بقاع شتى في أنحاء الأرض .

ومن المعروف أن القائد المسلم ينذر العدو بالدعوة إلى الإسلام أولًا ، وإلا فالجزية ، وإن رفضوا استعان المسلمون بالله وقاتلوهم ، مع تجنب قتل الأطفال والنساء والشيوخ ، وتحريق النخل ، ولا يذبحون المواشي إلا لأكل ، وهذا ما أوصى به الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان ، لما أرسله فاتحاً وقائداً لأحد الجيوش الفاتحة المتوجهة نحو الشام .

كان الإسلام في فتوحاته ، رائد رحمة وعدل ، وما حمل المسلمون السيف لإكراه الناس على اعتناقه ، وإنما ليقرر نظامه في الأرض ، وليقرر حرية الدعوة بعد تقرير حرية العقيدة ، ولإزالة العقبات من طريق الدعوة ...

وهذا ما أخاف الأعداء من عقيدة الجهاد ، فخدعوا بعض المتباكين من أبناء المسلمين ، وأوهموهم أن الدين الحق لا ينتشر بالسيف وإنما عن طريق الاقتناع والاختيار ، وأن الأديان الأخرى لم تستخدم القتال وسيلة لها كالنصرانية مثلًا ..

فقام المستشرقون وأتباعهم من أبناء المسلمين يشككون في مفهوم الجهاد عند المسلمين ، وراحوا يهرفون بلا علم ولا دليل من كتاب مستنير .

هـ - خوف الأعداء من عقيدة الجهاد عند المسلمين :

لقد أذل الله المشركين منذ القدم ، وأعز الإسلام ، بفضل عقيدة الجهاد ، فقد انتشرت الدعوة في آفاق الأرض ، فارتعش الكفرة وحاولوا التشكيك بجدوى الجهاد ، معتمدين على حيل ما كرة شيطانية .

جاء في مجلة العالم الإسلامى الإنجليزية : «إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي ، ولهذا الخوف أسباب منها أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً بل دائماً كان في ازدياد واتساع . ثم إن الإسلام ليس ديناً فحسب بل إن من أركانه الجهاد » .

ويقول روبرت بين : « إن المسلمين قد غزوا الدنيا كلها من قبل، وقد يفعلونها مرة ثانية » .

ويقول ولفرد كانتول سميث : « إن أوربا لا تستطيع أن تنسى ذلك الفزع الذي ظلت تحس به عدة قرون ، والإسلام يجتاح الامبراطورية الرومانية من الشرق والغرب والجنوب »[1] .

ويقول توماس بين أحد المستشرقين الأمريكيين في مقدمة كتابه : السيف المقدس ، بعد أن يشرح لقرائه نبذة عن تاريخ الإسلام وفتوحاته الواسعـة :

« وقد تغير الحال اليوم، وأصبح المسلمون في قبضة أيدينا، ولكن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى ، وإن الشعلة التى أوقدها محمد صلى الله عليه وسلم في قلوب أتباعه لهي شعلة غير قابلة للانطفاء»[2] .

---

(١) المستشرقون والإسلام : محمط قطب (مخطوط) ص ٣٢ ، نقلًا عن الدكتور العلياني في كتابه : أهمية الجهاد ص ٢٩٧ .

(٢) واقعنا المعاصر : ص ٣٠٠ .

وهكذا يحاول أعداء الإسلام أن يحاربوا المسلمين بإماتة روح الجهاد في نفوسهم ، وزحزحتهم عن عقيدتهم في ثلاث جبهات :

جبهة المبشرين ، وجبهة المستشرقين ، وجبهة الصنائع والمغفلين من أبناء المسلمين[1] .

ثم يحاولون تحذير بني جلدتهم من خطر عقيدة الجهاد لدى المسلمين ، وإنه لشعلة أوقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلوب المؤمنين ، وهي غير قابلة للانطفاء ، فعليهم أن يجندوا أنفسهم لتطويق هذه الفكرة ، وسنرى في الفقرة القادمة كيف تسلل هؤلاء إلى بعض الصنائع أو المغفلين من أبناء هذه الأمة .

ل – **مدارس حديثة تأثرت بمزاعم المستشرقين السلمية :**

استطاع المستعمر وبقية الأعداء ، أن يربوا بعض المسلمين على مفاهيم غريبة ، فنشأت دعوات سلمية – مزعومة – ردد أصحابها آراء المستشرقين ، أدوات الاستعمار .

ومن أشهر هؤلاء المستشرقين ، أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام ، وقد فتن به عدد من الأتباع[2] .

ومن أهم دعاة السلم في القتال ، ومحاولة تبريره :

---

(١) انظر تفصيل ذلك في أهمية الجهاد : العلياني من ص ٣٠٢–٣١٧ .
(٢) المرجع السابق : العلياني ص ٢٦١ وما بعدها .

١ - المدرسة العقلية الحديثة[1] :

وهؤلاء هم أول من قصر الجهاد على جهاد الدفاع ، ومن أشهر رجالها: جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وتلاميذهما .

إذ أعجب أصحاب هذه المدرسة بما عند الغرب من مفاهيم سياسية واجتماعية وفكرية ، فبذلوا قصارى جهدهم ليوضحوا للناس ، أن هذه المفاهيم يوجد مثلها وأفضل منها في الإسلام ، لأن الأعداء كانوا يهاجمون الإسلام ويزعمون أنه انتشر بالسيف ، بينما انتشرت المسيحية بالمحبة والسلام ...

وقد غاب عن أذهان هؤلاء الفَرْق بين الجهاد في الإسلام والحروب عند الأمم الأخرى ، لقد جارى هؤلاء مذهب الاعتزال وتأولوا في التفسير ، وكانوا مع الأسف أداة طيعة في يد المستعمر من حيث يدرون أو لا يدرون .

قال كرومر في تقريرة السنوي لعام : ١٩٠٥ م ، عن الشيخ محمد عبده : « كان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية ولآرائه المتحررة المستنيرة أثرها في جعل مشورته ، والتعاون معه عظيم الجدوى » .

وقال : « فأتباع الشيخ يستحقون كل ميل وعطف وتنشيط من الأوربيين » . « وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الخلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي » .

ويصفهم المستشرق جب : بأنهم زعماء الإصلاح في الأزهر .

---

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ص ٨٠٤ - ٨٠٨ للأستاذ فهد الرومي .

ويرى هؤلاء الإصلاحيون أن الفتوحات الإسلامية ، اقتضتها طبيعة الملك ، ولم تكن كلها موافقة لأحكام الدين ، وشرع القتال للدفاع عن الحق وأهله ... وعلى ملوك المسلمين أن يعدوا للدعوة عدتها من العلم والحجة بسبب حال العصر وعلومه .

وقد حاول الدكتور العلياني أن يرد على آرائهم هذه ، بأدلة وافية معتمداً على كتب الحديث والتفسير[1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا ، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين »[2] .

وفي القديم رفض فكرة الجهاد ، وأماتته عدد من الفرق أمثال المرجئة والصوفية ، والشيعة الإمامية ، والجبرية .

ومن الفرق الحديثة : البابية والبهائية والقاديانية[3] .

٢ – القاديانية :

وقد حرم زعيمها غلام أحمد فريضة الجهاد على أتباعه ، ودعماً لأسياده الإنجليز في الهند ، وخداعاً وتضليلاً للمسلمين .

يقول في كتابه ، « تبليغ الرسالة » :

« الجهاد حرام ، وطاعة الإنجليز واجبة ، وإنني ألّفت كتاباً بالفارسية والعربية عن محاربة فكرة الجهاد ، ووزعت هذه الكتب في جميع البلاد العربية » .

---

(١) انظر تفصيلاً لهذه الأدلة : أهمية الجهاد ، العلياني (ص ٣٢٦-٣٤٥) .
(٢) السياسة الشرعية : ابن تيمية ص ١٣١ .
(٣) انظر : الباب الرابع (٤٦١-٥١٣) من كتاب أهمية الجهاد، العلياني .

ويقول : « والحكومة الإنجليزية سيفي ، لماذا لا نفرح بسقوط بغداد على أيدى البريطانيين ، نحب أن نرى سيفنا يلمع في العراق ، وفي جميع البلدان العربية »[1] .

هذا كلام واضح لا يحتاج إلى شرح أو تأويل ، بل هو عمالة ضئيلة وصغار ومذلة حلت بالرجل بدلًا من عزة الجهاد والمجاهدين ... عزة المؤمنين الصادقين ...

يرى هذا القادياني أنّ العبودية لأسياده الإنجليز فخراً ، واحتلالهم لجميع البلاد العربية أمنية له ونصراً ..

٣ - المدرسة العصرية الحديثة :

ونقصد بها المعجبين بتيار الحضارة الغربية الغازية ، والمتأثرين بمدرسة الشيخ محمد عبده الإصلاحية العقلية ، فقد كتب روادها كثيراً عن السّلم ونفروا من العنف ، واعتبروا الجهاد ، أنه بذل الطاقة والجهد لأجل شهادة الحق ، وأن التعايش السلمي يجب أن يحل محل الحرب بين الدول والشعوب .

يقول أحدهم : « إن العمل الصالح هو العمل المنتج ، مثل أن يكون هو العبادة . إن هذا العمل الصالح لهو اليوم أفضل جهاد في سبيل الله » .

« ولقد صار البديل عن الجهاد هو العمل ، ولقد صار البديل عن الحرب هو التعايش السلمي بين الدول والشعوب »[2] .

---

(١) انظر كتاب : الحركات المناهضة للإسلام : د. محمد يوسف النجرامي ص ٨٠ .
(٢) نظرات في الدين : عبد اللطيف غزالي ص ٣٦ - ٣٧ .

ويقول وحيد الدين خان : « لا شك أن الجهاد أفضل العبادات في الإسلام ، ولكن القول بأن الجهاد هو القتال قول خاطىء تماماً مثل حذف الجهاد من الدين ...

والحقيقة أن جهاد الأمة المحمدية هو الدعوة لأن القرآن الكريم يخبرنا بأن بذل الطاقة لأجل شهادة الحق هو الجهاد »[١] .

ويسير على نفس الطريق ، عدد من الكتاب المعاصرين ، باسم تجديد الدين ، وتطوير مفاهيمه لتجاري العصر الحاضر ، فصاروا يشككون في مفهوم الجهاد ، بطرق ملتوية عجيبة وأن القتال يعطل رسالة التبليغ ، وأن للعصر الحاضر ظروفه وملابساته[٢] .

وقد قطعوا شوطاً بعيداً في هذا المفهوم المنحرف عن هدي الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف هذه الأمة ... وذلك ما يفرح به أعداء المسلمين .

وممن نفرّ من العنف ، وأعجب بفكرة السّلام العالمي والسّلم الموهوم ، الكاتب الإسلامي :**مالك بن نبي رحمه الله** : وأبرز هذه الفكرة في عدد من كتبه ، فهو يرى مثلًا : « أن الإسلام والهندوسية ، تنفيان سيف العقيدة »[٣] .

ولا يخفي الكاتب إعجابة بغاندي العظيم ؟! ويخصه بمقال مملوء بالإكبار، فهو بطل السلام، صاحب سياسة اللاعنف ، ربى شعب الهند على

---

(١) مسؤوليات الدعوة : وحيد الدين خان ص ٦٠ .

(٢) مثل كتابات : فهمي هويدي ، محمد عمارة ، عبد الله العلايلي فتحي عثمان .
حيث يحاول هؤلاء تطويع الإسلام إلى حضارة الغرب باسم التجديد ، وانظر كتاب : العصريون (معتزلة اليوم) يوسف كمال : دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٨٦ م .

(٣) كتاب الفكرة الأفريقية الآسيوية : مالك بن نبي ص ١٤٨ .

سياسته الحكيمة ، فقاوم الإنجليز مقاومة سلبية : « إذ رجعت الدبابات إلى الوراء ، وتقهقرت عند تلك الأجسام التى انفرشت على الأرض أمامها ، تقهقرت أمام أفواه ترتل بعض الأذكار المقدسة ، وأمام أرواح منغمسة في صلوات صامتة ؟!

إن جهاز الاستعمار الضخم وقف عند حده وباء بالخسران أمام معْزَة غاندي وسرباله ومغزله ، وصلواته وصيامه مع الجماهير وفي خلواته » .

كان بإمكان الجندي الإنجليزي أن يدوس بدباباته تلك الحشود من البشر ، التى رقدت على عرض الطريق بشارع كلكوتا ، وبومباي أيام المقاومة السلبية ، ولكنه لو فعل لداس الثقة النبيلة التى يكتبها ضمير تلك الحشود البشرية التى ألقت على ضمير الجندي الإنجليزي عبئًا ثقيلًا ، عبء حياتها وطموحها وصلاتها ، وهكذا تقهقر الجندي الإنجليزي من أجل أن لا يدوس ضميره وعظمة وطنه وشرف ثقافته » .

ويقول : « وهكذا رفات غاندي التى ذروها في مياه الغانج المقدسة ، ستجمعها الأيام في أعماق ضمير الإنسانية كيما ينطلق يوماً انتصار اللاعنف ونشيد السلم العالمي »[1] .

وفى فصل آخر يتحدث عن إعجابه بنهرو وطاغور، للسبب نفسه ثم يتساءل : هل من بين هؤلاء الزراع لفكرة اللاعنف في القرن العشرين .. هل من بينهم مسلمون ؟ (ويجيب) ويؤسفنا أن لا نجد من بينهم ... »[2] .

إن التعلق بالسلام أمر طيب، والتنفير من الحروب المدمرة شعور نبيل ، إلا أنه حلم مثالي ، شاعري بعيد عن الواقع وعن طبيعة البشر التي لا

---

(١) فى مهب المعركة : مالك بن نبي ص ١٤٩-١٥٢ تحت عنوان : تحية إلى داعية اللاعنف .

(٢) المرجع السابق : رولان ورسالة الهند ص ١٥٣-١٥٤ .

يعلمها إلا الله في خلقه . وفكرة غير شرعية تنافي مبدأ الصراع الذي ذكره الله في كتابه .

يقول تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[3] فالإعجاب بالوثنيين ومحبتهم ، يناقض ما كان عليه السلف ونصوص الشرع الحنيف ، يقول تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ .. ﴾[4] .

وقد أثبتت الأيام أن الهنود دعاة السلام من أتباع غاندي داست دباباتهم جنود باكستان المسلمة في اعتداء صارخ على أراضي المسلمين ، فضاعت الشعارات ، وما نفع رفات غاندي في مياه الغانج المقدسة ؟!

إن العاطفة التى تجمح به إلى الخيال أحياناً جعلته يعقد أمالًا كبيرة على مؤتمر باندونغ واعتبره كتلة سلام للعالم ، وصدّق أن نهرو استلم رسالة اللاعنف من غاندي ، وهند نهـرو هي التى احتلت كشمير بالقوة .. وعلق آماله أيضاً على ثورة (٢٣) يوليـو في مصر ومدح أصحابها .

إن ثقافة مالك الشرعية كانت ضعيفة إذا قيست بقراءاته الغربية ، وهذا ما جعله يخطيء في عـدة أمور تتعلق بالأحكام والفقه ، أو النظرة إلى بعض جوانب التاريخ الإسلامي .

ورغم ذلك كله كان مالك رحمه الله عميقاً في فهم غدر الاستعمار وأساليبه الخفية ، وعميقاً في معالجة القابلية للاستعمار عند المسلمين .. فهو

---

(٣) سورة الحج : آية (٤٠) .
(٤) سورة المجادلة : الآية (٢٢) .

مفكر خبير في نهضة المجتمعات ، وأمراض المسلم المعاصر ، هذه الإيجابيات لا تمنعنا من ذكر بعض السلبيات ، مثل فكرة اللاعنف والإنسانية ، تلك الأفكار التى بذرها مالك ووسعها بعده تلامذته ، وحاولوا اللف والدوران حول مبدأ الجهاد الإسلامي[1] . وتعمق مفهوم اللاعنف، ومحاولة تمييع فكرة الجهاد عند آخرين حتى أن بعضهم راح يهاجم الفتوحات الإسلامية من بني أمية ، وأثناء الخلافة العثمانية ، مرددين مقولات الاستشراق الماكرة ، كل ذلك لينسجم المنطلق لديهم مع دعوة الاستسلام واللاعنف .

يقول صاحب كتاب النقد الذاتي مهاجماً نظام الخلافة عند بني أمية[2] « إن هذا النظام – الخلافة – أصابه المرض ابتداء على يد الأمويين عندما امتص على يدهم جراثيم الأنظمة المجاورة القيصرية ، بدلًا من روح الشورى ، فاعتل وهو في ميعة الشباب .. » إلى أن يقول : « فالإسلام وقد كان النظام **التقدمي** في ذلك الوقت ؟! في صورة تحرير العبيد .. والمساواة وروح **الديمقراطية** ، **ومساواة المرأة بالرجل** ... وبفعل الانحراف الأموي فإن الملكية الاستبدادية نقلت وطعمت وألصقت .. إلى الجسم الغريب » .

حاول الكاتب أن يمرر كثيراً من المفاهيم الخاطئة في هذا الكتاب مردداً أقوال المستشرقين مثل : روح الديمقراطية ، ومساواة المرأة بالرجل ، والهجوم على بني أمية .. فلا شيء يفسر لنا هذا الهجوم الشنيع إلا تلك الفتوحات الجهادية الرائدة ، والتى توقفت زمن العباسيين ، فكانت جريمة بني أمية ، وتزكية للعباسيين عنده .

لنستمع إلى محب الدين الخطيب وهو يتحدث عن الفتوحات زمن بني أمية إذ يقول : « ودخلت معظم الشعوب في هداية الإسلام على أيدي

---

(١) انظر مجلة البيان : العدد (٢٣) ، قراءة في فكر مالك بن نبي ، الأستاذ محمد العيدة ومن هؤلاء : الشيخ جودت سعيد في كتابه : مذهب ابن آدم الأول ، وخالص جلبي .

(٢) انظر : كتاب النقد الذاتي : خالص جلبي : ص ١١٢ ، ٢٣١ .

الخلفاء الأمويين وولاتهم ، وقواد جيوشهم إتماماً لما بدأ به صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخليفتاه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما » .

« ولا شك أن الأجيال المسلمة إلى يومنا هذا منهم مَنْ يسعد بذلك ويمتليء قلبه سروراً .. ومنهم من امتلأ فؤاده حقداً على الذين عملوا فيه وجعل من دأبه أن يصمهم بكل نقيصة ... » .

وانتشرت الفتوحات حتى نودي بكلمة : الله أكبر ... حي على الفلاح ، على جبال السند ، وفي ربوع الهند وفي أودية أوربا وجبالها .. كل هذا في زمن بني أمية ، الذي لو صدر عن اليهود والنصاري وعبدة الأوثان عُشر ما صدر عنها من الخير ومن إنصاف ومروءة وكرم وشجاعة ... لرفعوا لأولئك اليهود والنصارى الوثنيين الثناء والتقدير في الخافقين » .

« والتاريخ الصادق يريد لكل متحدث عن رجاله أن يذكر لهم حسناتهم على قدرها ، وأن يتقي الله في ذكر سيئاتهم فلا يبالغ فيها ..

يجب على من يتحدث عن أهل الحق والخير إذا علم لهم هفوات أن لا ينسى ما غلب عليهم من الحق والخير ، فلا يكفر ذلك كله من أجل تلك الهفوات ... وعلى من يتحدث عن أهل الباطل والشر إذا علم لهم بوادر صالحات أن لا يوهم الناس أنهم من الصالحين من أجل تلك الشوارد من أعمالهم الصالحات .. »[1] .

هذا هو المنهج العلمي الصادق ، الذي يُطرح فيه الهوى الذاتي بعيداً عن كل تبعية .. رغم أن ذلك الغهد (وكل عهد) لا يخلو من بعض السلبيات ، ولكن يقدر كل شيء بقدره ..

---

(١) عن كتاب استخلاف أبي بكر الصديق : د . جمال عبد الهادي ص ٣٧-٣٩ .

أما الفتوحات العثمانية ، فقد هاجمها صاحب النقد الذاتي هجوماً قاسياً ، ربما كان النصارى أقل حدة في تقويم تلك الفترة التى فتح فيها العثمانيون بلادهم ..

يقول الكاتب : « والعالم الإسلامي بدأ بالثورة الروحية العقلية ، منذ الوحي في غار حراء ، وانتهى بالعسكرية التركية التى أنهت كل دفعة حيوية في العالم الإسلامي .

« والعسكر تارية التركية بالبارود والنار دخلت شرق أوربا ولكنْ فرقٌ كبير بين دخول الإسلام إلى الرق الأوسط أو الهند مثلًا ، وبين دخوله على يد الأتراك إلى شرق أوربا ومن يتأمل يدرك »[1] .

حقاً من يتأمل هذه الأحكام الجائرة يدرك جرأةً بغير حق ، ولا إنصاف .

فللعثمانيين أخطاؤهم ولا شك ، ولكنّ الفتوحات من مفاخرهم التي لا ينكرها إلا مَنْ حقد على اجتياح شرق أوربا وسقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح رحمه الله يقول الأستاذ محمد قطب : « ويكفي العثمانيون – في ميزان الله – أنهم توغلوا في أوربا الصليبية ، وفتحوا للإسلام ما فتحوا من أراض وقلوب ... ويكفيهم أنهم حموا العالم الإسلامي من غارات الصليبيين خمسة قرون متوالية ، ويكفيهم أنهم منعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام ، ولم يتمكن شذاذ الآفاق من التجمع لإقامة دولتهم إلا بعد أن زالت دولة الخلافة من الوجود »[2] .

هذا كله لا يكفي ... وإلا فليستمع المكابر إلى قادة الأعداء من أهل الصليب والاستعمار . يقول الجنرال اللبني بعد أن دخل القدس عام

(١) النقد الذاتي : ص ٢٠٠-٢١٢ .
(٢) واقعنا المعاصر : ١٥٢ ، ٣١٦ .

١٩٠٧ م « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، وقال : « لولا معاونة الجيش العربي ، ما استطعنا أن نتغلب على دولة الخلافة » .

لقد تمكن أعداء الإسلام ، أن يبذروا بذور التشكيك في مفهوم الجهاد لدى عدد من أبناء المسلمين ، فراحوا يرددون أقوالهم على أنها هي مفاهيم التطور والتجديد ، والتقدم والتحضر ، وكل ما يعتمد عليه أصحاب هذه المدرسة العصرية الحديثة أو الإصلاحية العقلية ، في موضوع الجهاد ، حديث ضعيف : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » أي جهاد النفس[1] ما أجدد هؤلاء أن يعودوا إلى الثقة بالله ، وأن يثوبوا إلى رشدهم .

إن الذين يتظاهرون بالظرف والوداعة، ويدعون إلى السلّم الموهوم ، يتغافلون عن أيدي الأعداء وقد لطخت بدماء إخوانهم وأخواتهم، من أبناء المسلمين ...

ثم يسعون بعد ذلك إلى قتل روح الجهاد في هذه الأمة بتأصيل تربية ذليلة خانعة ، تريح العدو ، وتغيض الصديق ، هذا مع العلم أن ردود الفعل لا تجدي ...

فالعنف أو القتال دون إعداد عقدي وعسكري مقامرة ... تؤدي إلى نتائج مريعة لا تقل عن دعوة الخنوع والاستسلام وموالاة أعداء الله .

وإن روعة الجهاد لتظهر إذا قارنا قتال أهل الجاهلية ، الذي حطم العرب ومزقهم ، بالجهاد الإسلامي الذي أنقذ هذه الأمة وغيرها ، من ضلالات الجاهلية ودوافعها ، في القديم والحديث .

وإن عظمة الجهاد لتظهر إذا رأينا حروب الدمار والهلاك في الحروب العالمية التي شنت في القرن الأخير ، بلا رحمة حيث القنابل الذرية التى

---

(١) ضعيف الجامع الصغير : ١١٨/٤ .

ألقيت على المدن الآمنة ، دون رادع ولا ضمير ، وما يزال العالم يتوجس خيفة من حرب ثالثة عالمية ، قد تهلك الحرث والنسل ..

ولا خلاص للعالم أجمع إلا بالرجوع إلى تعاليم الشريعة السمحة ، وأن نعود إلى مفاهيم الإسلام الحنيف كما أنزله الله تعالى على نبيه ،وفهمه سلف هذه الأمة ..

وإن مثل العصريين والإصلاحيين ، كمثل من يبحث عن الأخشاب والنفايات لدى أهل الصليب واليهود ، ولدينا الدرر والمجوهرات ولكنهم عنها غافلون .

هدانا الله وإياهم إلى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين .

خاتمـة البحـث

بعد هذه الجولة الطويلة مع مصادر الشعر الجاهلي ونصوصه ..

وبعد المقارنة بما تلا تلك المرحلة من عصور الإسلام ظهرت حقيقة الجاهلية واضحة بكل مقوماتها وشراستها ... إنها تعتمد على مقومات أساسية :

تعتمد على التفلت من شرع الله ، ومن العبودية لله تعالى بأية صورة من الصور .

وتحاول أن تحل التقاليد الموروثة محل شريعة السماء وتعتمد على اتباع الأهواء والنزعات الشخصية .. والعصبية الهوجاء للعشيرة والقبيلة ثم الوطن والقوم، ولو أدى ذلك حابها إلى الخروج عن تعاليم الشرع الحنيف ...

وتعتمد الجاهلية على إراقة الدماء البريئة ، وترويع الأمنين من الأطفال والنساء والشيوخ .. وتمزيق الأمة الواحدة ... والقبيلة الواحدة أحياناً شر ممزق. تقوم الجاهلية معتمدة على الكبر والمظالم والفخر بهذه المظالم والأحساب وما في تاريخ أصحابها من أيام دامية .

هذه المقومات كانت واضحة ... خلال حياة القوم في جاهليتهم ... .

وما تزال كذلك كلما ابتعد الناس عن صفاء عقيدتهم، وشردوا عن تحكيم تعاليم قرآنهم ، وسُنَّة نبيهم ... لقد ظهرت رواسب من هذه المقومات خلال بعض فترات التاريخ الإسلامي ... بعد أنْ قضى عليها

الإسلام ، وأنقذ العرب من جاهليتهم وما فيها من قيم موروثة – وأنشأهم نشأة أخرى .

لقد ظهرت العصبيات من جديد عند بعض القبائل في حروب الردة ، وعند الشعوبيين ، والقوميين والوطنيين في العصور المتأخرة .

حتى أن هذه النّحل الحديثة فرقت الأمة الواحدة إلى قوميات متناحرة وأقاليم متباغضة .

بل إن العصبية فى عصورنا المتأخرة،ربما جعلت أهل المدينة الواحدة يتعصبون لمدينتهم دون المدينة الأخرى ، وكأنّ شرع الله ما جاء ليتعالى هؤلاء جميعاً فوق لوثة الجاهلية المنتنة .

جاء الإسلام لينقذ هذه الأمة ، بعد ضياع هويتها فوحد شعوبها ليصبحوا في دين الله إخواناً ...

رفعهم إلى آفاق العزة الشامخة ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

قضى على إراقة الدماء ، من أجل الغزو والحسب ، والمطامع التافهة .. ثم وجه الأمة نحو الجهاد في سبيل الله من أجل إنقاذ البشرية مما تعانيه من تيه وضلال وضياع ..

حرم الإسلام تحكيم التقاليد والأهواء ليصبح هوى المؤمن تبعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت الوسيلة الوحيدة ، هي التربية العقدية البناءة .. على التوحيد الصافي ، والإخلاص التام لهذه الدعوة الجديدة .. التى أنقذت العرب من جاهليتهم فتعالوْا فوق رواسبها وقيمها ولوثاتها ... .

ولا بد للمربين في هذا العصر : أن يعودوا إلى معاني هذه التربية .. تربية دار الأرقم – تلك التى تخرج منها على يدي معلم البشرية عليه أفضل الصلاة و السلام ، جيل مؤمن جاد مخلص ، غير مجرى التاريخ ..

لابد من التربية المتأنية الطويلة ، على ما رُبي عليه سلف هذه الأمة .. حتى نتمكن من جديد ، أن نجتث رواسب الجاهلية من جذورها .

وأخيراً : فهذه هي الجاهلية ، لا تحددها فترة من الزمان ولا المكان ، وإنما هي وضع من الأوضاع ، وجد بالأمس ويوجد اليوم وغداً كلما ظهرت الضلالات والانحرافات ، وعم التيه والانحراف والشرود عن منهج الله ...

وها هي الجاهلية تطل بشراسة في عدد من مظاهرها ومقوماتها ، بتخطيط علمي هذه المرة .

وعلى الأجيال المؤمنة بربها ، والمتبعة لسنة نبيها أن تكون هي من وسائل التغيير والإصلاح ..

ولن يُصلح هذه الأمة إلا مما صلح عليه أولها ،وهو الإسلام النقي الصافي ، كما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجـع

القرآن الكريم :

١ – أبحاث مختارة في القومية العربية / ساطع الحصري – دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م

٢ – الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر / د. محمد محمد حسين – مؤسسة الرسالة الطبعة السادسة سنة ١٤٠٣ هـ .

٣ – أثر الانحراف العقدي والفكري عند اليهود / عطا الله بخيت المعايطة – رسالة ماجستير من جامعة أم القرىٰ عام ١٤٠٩ هـ .

٤ – الأحبار الطوال /أحمد بن داوود الدينوري – طبعة ليدَن سنة ١٨٨٨ م .

٥ – أخطاء المنهج الغربي الوافد / أنور الجندي – دار الكتاب اللبناني – بيروت سنة ١٩٧٤ .

٦ – استخلاف أبي بكر الصديق / د. جمال عبد الهادي – دار طيبة سنة ١٤٠٥ هـ .

٧ – الإسلام والحضارة العربية / د. محمد كرد علي – مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م .

٨ – الإسلام والحضارة الغربية / د. محمد محمد حسين – مؤسسة الرسالة الطبعة الخامسة – بيروت سنة ١٩٨٢ م .

٩ – الإسلام والعروبة والعلمانية /محمد عمارة – دار الوحدة – بيروت سنة ١٤٠٥ هـ .

١٠ – الإسلام والمدنية الحديثة / أبو الأعلى المودودي – الطبعة الأولى بجدة سنة ١٤٠٧ .

١١ – أشعار الشعراء الستة الجاهليين / اختيارات الأعلم الشنتمري – دار الفكر سنة ١٤٠٢ .

١٢ – الإصابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني – دار الكتاب العربي – بيروت .

١٣ – الأصمعي واتجاهه الخلقي في الرواية الأدبية / د. جلال صابر حجازي – مؤسسة الوفاء للطباعة سنة ١٤٠٥ هـ .

١٤ – الأصمعيات / أبو سعيد عبد الملك الأصمعي – تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون – طبعة دار المعارف الخامسة .

١٥ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / محمد الأمين الشنقيطي .

١٦ – الاعتصام / الإمام الشاطبي – مكتبة الرياض الحديثة – مطبعة عام الكتب – بيروت .

١٧ – إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد / نظام الدين نظيف – استانبول سنة ١٩٦٠ م .

١٨ – أعمدة الحكمة السبعة / لورانس – الطبعة الأولى – بيروت .

١٩ – الأغاني /أبو الفرج الأصفهاني – طبعة دار الكتب وبولاق وسياسي (حسب ما يشار إليه في الهامش) .

٢٠ – الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام / عبد الله التل – الطبعة الثانية – المكتب الإسلامي .

٢١ – أقتضاء الصراط المستقيم / ابن تيمية – تحقيق الدكتور ناصر العقل – طبعة عام ١٤٠٤ هـ .

٢٢ – أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام / ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب) – تحقيق أحمد زكي – دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦ م .

٢٣ – أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية / د. علي العلياني – دار طيبة الطبعة الأولىٰ – الرياض سنة ١٤٠٥ هـ .

٢٤ – أيام العرب في الجاهلية /محمد أحمد جاد المولىٰ وزملاؤه – دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٦١ م .

٢٥ – البداية والنهاية / الحافظ ابن كثير – طبعة دار الفكر – بيروت سنة ١٩٧٨ م .

٢٦ – البدعة وأثرها السيء في الأمة / سليم الهلالي – المكتبة الإسلامية – عمان سنة ١٤٠٤ هـ .

٢٧ – بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب / محمود شكري الألوسي – الطبعة الثانية – دار الكتب العلمية ببيروت .

٢٨ – البيان والتبيين / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – دار إحياء التراث العربي – بيروت سنة ١٩٦٨ م – والقاهرة بتحقيق عبد السلام هارون .

٢٩ – تاريخ الخلفاء / الإمام السيوطي .

٣٠ – تاريخ العرب قبل الإسلام / د. جواد علي – دار العلم للملايين – بيروت ومكتبة النهضة – بغداد الطبعة الثانية سنة ١٩٧٦ م .

٣١ – تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي / د. حسن إبراهيم حسن – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة السابعة ١٩٦٤ .

٣٢ – التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين / د. فاروق عمر – دار اقرأ – الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦ هـ .

٣٣ – تاريخ الأمم والملوك / الطبري – روائع التراث العربي – دار سويدان – بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ م – والطبعة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م وطبعة ليدن – بريل (حسبما يشار إليه في الهامش) .

٣٤ – تاريخ عصر الخلافة العباسية / د. يوسف العش – دار الفكر سنة ١٩٨٢ م .

٣٥ – تفسير القرآن العظيم / الحافظ ابن كثير – مكتبة الرياض .

٣٦ – الثورة العربية الكبرىٰ / أمين سعيد – مصر – مطبعة عيسى الحلبي .

٣١ - جاهلية القرن العشرين / الأستاذ محمد قطب - دار الشروق سنة ١٤٠٢ هـ .
٣٨ - جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام / أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي - الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ م جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
٣٩ - جمهرة أنساب العرب / ابن حزم - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولىٰ سنة ١٤٠٣ هـ .
٤٠ - حاضر العالم الإسلامي - طبعة مصر سنة ١٣٤٣ تعليق شكيب أرسلان .
٤١ - الحركات الباطنية في الإسلام / د. محمد أحمد الخطيب - مكتبة الأقصىٰ - عمان .
٤٢ - الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام / منير محمد نجيب - مكتبة المنار الزرقاء - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣ م .
٤٣ - الحركات المناهضة للإسلام / محمد يوسف النجرامي - دار الفكر ١٤٠٠ هـ .
٤٤ - حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول / د. شكري فيصل - دار العلم للملايين الطبعة السادسة/سنة ١٩٨٢ م .
٤٥ - الحكومة الإسلامية للخميني - دار عمان - تقديم وتعليق د. محمد الخطيب الطبعة الأولىٰ سنة ١٤٠٩ هـ .
٤٦ - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا / د. يوسف القرضاوي الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٧ هـ .
٤٧ - الحماسة / لأبي تمام - تحقيق د. عبد الله عسيلان سنة ١٩٨١ م .
٤٨ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي / د. أحمد محمد الحوفي - الطبعة الخامسة - دار نهضة مصر سنة ١٣٩٢ هـ .
٤٩ - الحيوان / الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة الحلبي سنة ١٩٤٥ م .
٥٠ - الخطر اليهودي على العالم الإسلامي / ماجد الكيلاني - الدار السعودية .
٥١ - الخلافة الراشدة والبطولة الخالدة في حروب الردة / المؤرخ المحدث أبو الربيع سليمان بن موسىٰ الكلاعي الأندلسي - تحقيق د. أحمد غنيم .
٥٢ - دراسات تاريخية عن أصول العرب وحضارتهم / د. محمد معروف الدواليبي الطبعة الأولىٰ سنة ١٩٧١ م - دار الكتاب الجديد - بيروت .
٥٣ - دور الشعوبيين والباطنيين في محنة لبنان / محمد عبد الغني النواوي .
٥٤ - الدولة الأموية / د. يوسف العش - الطبعة الثانية - دار الفكر سنة ١٤٠٦ .
٥٥ - ديوان الحطيئة / تحقيق نعمان أمين طه - القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
٥٦ - ديوان الأعشىٰ - دار بيروت سنة ١٩٨٣ م .

٥٧ - ديوان الخنساء - دار الأندلس - بيروت عام ١٩٨١ م .
٥٨ - ديوان النابغة الذبياني - المؤسسة العربية - بيروت .
٥٩ - ديوان أمريء القيس - شرح السندوبي - دار الكتب وديوانه ضمن مجموعة الأعلم الشنتمري - دار الفكر .
٦٠ - ديوان حسان بن ثابت - دار بيروت ١٤٠٣ هـ .
٦١ - ديوان حاتم الطائي - دار صادر - ودار بيروت سنة ١٩٦٣ م .
٦٢ - ديوان زهير ابن أبي سلمىٰ - دار الكتب - سنة ١٩٤٤ م ، وديوانه ضمن مجموعة الأعلم الشنتمري .
٦٣ - ديوان عامر ابن الطفيل - بيروت - دار صادر سنة ١٩٥٩ م .
٦٤ - ديوان عروة بن الورد - بيروت - دار صادر .
٦٥ - ديوان عنترة / تحقيق عبد المنعم شلبي - المكتبة التجارية بالقاهرة .
٦٦ - ديوان عبيد بن الأبرص / تحقيق وشرح د. حسين نصار سنة ١٩٥٧م
٦٧ - الذئب الأغبر - سلسلة الهلال الشهرية - العدد ١٦ .
٦٨ - رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي / محمد عبد الغني النواوي الجزء الأول - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ .
٦٩ - الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد / محمد إبراهيم شقرة - الطبعة الثانية سنة ١٤٠٢ هـ .
٧٠ - الرسائل المفيدة / الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ - سنة ١٣٩٨ هـ دار العلوم - القاهرة .
٧١ - رياض الأدب في مراثي شواعر الأدب / لويس شيخو - بيروت سنة ١٨٩٧ م .
٧٢ - الزندقة والزنادقة / عاطف شكري عوض .
٧٣ - الزندقة والشعوبية / سميرة مختار الليثي - القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
٧٤ - سقوط المدائن / أحمد عادل كمال .
٧٥ - سلسلة الأحاديث الصحيحة / محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٣ هـ .
٧٦ - سنن أبي داود / الإمام أبي داود سليمان الأشعث السجستاني - تحقيق وتعليق عزت الدعاس .
٧٧ - سنن الترمذي / الإمام محمد بن عيسىٰ الترمذي - تعليق عزت الدعاس .
٧٨ - السياسة الشرعية / ابن تيمية - دار الكتاب العربي - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ .
٧٩ - سير أعلام النبلاء / الإمام الذهبي - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية سنة ١٤٠٢ هـ .

٨٠ – السيرة النبوية / لابن هشام – طبعة مصطفى الحلبي وتحقيق مصطفى السقا وآخرون الطبعة الثانية عام ١٣٧٥ هـ .

٨١ – شرح ديوان الحماسة / المرزوقي – تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون طبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر عام ١٩٥١ هـ الطبعة الأولى .

٨٢ – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة / اللالكائي – تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان – دار طيبة – الرياض سنة ١٤٠٢ هـ .

٨٣ – شرح القصائد العشر / التبريزي – ضبطه وصححه عبد السلام الحوفي – دار الباز للنشر – مكة عن طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ .

٨٤ – الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي / يوسف خليف – دار المعارف – مصر سنة ١٩٥٩ م .

٨٥ – شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين / جمع وتحقيق عبد الله الحامد من مطبوعات الرئاسة العامة للمكتبات والمعاهد العلمية سنة ١٩٧١ م .

٨٦ – شعراء النصرانية / لويس شيخو الطبعة الثانية – دار المشرق – بيروت .

٨٧ – شرح النقائض / لأبي عبيدة – طبعة ليدن – ت. بيفان سنة ١٩٠٥ م .

٨٨ – الشعر الجاهلي : خصائصه وفنون / د. يحيى الجبوري – مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٣ هـ .

٨٩ – الشعر والشعراء لابن قتيبة / تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر – دار المعارف – الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨ م .

٩٠ – صحيح البخاري / الإمام محمد بن إسماعيل البخاري – ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي – المطبعة السلفية بمصر .

٩١ – صحيح الجامع الصغير / محمد ناصر الدين الألباني – المكتب الإسلامي – الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦ هـ .

٩٢ – صحيح الإمام مسلم مع شرح النووي – طبعة دار الفكر سنة ١٤٠٣ هـ .

٩٣ – الصحاح / إسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩ م .

٩٤ – طبقات فحول الشعراء ــــ محمد بن سلام الجمحي – تحقيق محمود محمد شاكر – طبعة المدني – القاهرة .

٩٥ – الطريق إلى المدائن / أحمد عادل كمال – دار النفائس – بيروت – الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٢ هـ .

٩٦ – عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام / سليمان بن حمد العودة دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض – الطبعة الثانية .

٩٧ – العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي / د. إحسان النص – الطبعة الثانية دار الفكر سنة ١٩٧٣ م .
٩٨ – العصر الجاهلي / د. شوقي ضيف – طبعة دار المعارف بمصر – الطبعة السابعة سنة ١٩٦٠ م .
٩٩ – العصر الإسلامي / د. شوقي ضيف – طبعة دار المعارف بمصر – الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٣ م .
١٠٠ – العقد الفريد / ابن عبد ربه – طبعة لجنة التأليف بمصر سنة ١٩٥٠ م .
١٠١ – عيون الأخبار / ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم الدينور) – طبعة دار الكتب المصرية .
١٠٢ – فتح الباري / ابن حجر العسقلاني – تصحيح وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية الطبعة الأولىٰ سنة ١٣٧٩ هـ وطبعة البابي الحلبي .
١٠٣ – فتح القدير / محمد بن علي الشوكاني – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع سنة ١٤٠١ هـ .
١٠٤ – فتوح البلدان / البلاذري – نشر الدكتور صلاح الدين المنجد .
١٠٥ – الفرق بين الفرق / البغدادي – طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
١٠٦ – الفروسية / د. نوري حمودي القيسي – مكتبة النهضة العربية – بيروت الطبعة الثانية عام ١٤٠٤ هـ .
١٠٧ – فقه الدعوة / سيد قطب – اختيار أحمد حسن – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى .
١٠٨ – الفكر العربي في عصر النهضة / ألبرت حوراني – دار النهار – بيروت – ترجمه إلى العربية : كريم عزقول .
١٠٩ – الفكرة الأفريقية الآسيوية / مالك بن نبي – دار الفكر – دمشق .
١١٠ – الفكرة القومية العربية على ضوء الإسلام / صالح بن عبد الله العبود – دار طيبة – الرياض الطبعة الأولىٰ عام ١٤٠١ هـ .
١١١ – الفهرست / لابن النديم – طبعة الرحمانية – القاهرة .
١١٢ – في ظلال القرآن / سيد قطب – دار الشروق سنة ١٩٨٢ م .
١١٣ – في مهب المعركة / مالك بن نبي – دار الفكر – تصوير عن الطبعة ١٩٨١ م .
١١٤ – القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها / مصطفى الشهابي سنة ١٩٥٩ م وطبعة القاهرة ١٣٠٢ هـ (مبحث الشعوبية) .
١١٥ – القومية العربية / أبو الفتوح رضوان – مطبعة لجنة البيان العربي – الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ م .
١١٦ – الكامل في التاريخ / ابن الأثير – دار الفكر – بيروت سنة ١٩٧٨ م وطبعة القاهرة

١١٧ - لورانس العرب على خطىٰ هرتزل / زهدي الفاتح - دار النفائس سنة ١٩٧١ م .
١١٨ - الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد / خالد محمد علي الحاج - إدارة إحياء التراث الإسلامي - بقطر - الطبعة الأولىٰ عام ١٤٠٣ هـ .
١١٩ - ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين / أبو الحسن الندوي - الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية - الطبعة الرابعة عام ١٣٩٨ هـ .
١٢٠ - المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ٥ شكري فيصل - دار العلم للملايين - بيروت الطبعة الثالثة عام ١٩٧٣ م .
١٢١ - مجمع الأمثال / الميداني - المطبعة البهية المصرية - القاهرة عام ١٣٤٢ هـ وطبعة بيروت - دار مكتبة الحياة سنة ١٩٦١ م .
١٢٢ - مجموعة التوحيد / الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبعض أبنائه وأحفاده وغيره من العلماء منشورات مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية - الرياض .
١٢٣ - المحبر / محمد بن حبيب - دار الآفاق الجديدة - بيروت .
١٢٤ - مختصر السيرة النبوية / الشيخ محمد بن عبد الوهاب - توزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض .
١٢٥ - المخططات التلمودية / أنور الجندي .
١٢٦ - مذاهب فكرية معاصرة / محمد قطب - دار الشروق - طبعة ١٤٠٣ هـ .
١٢٧ - مذكراتي في العراق / ساطع الحصري - الطبعة الأولىٰ عام ١٩٦٧ م .
١٢٨ - مسئوليات الدعوة / وحيد الدين خان .
١٢٩ - مسائل الجاهلية / الشيخ محمد بن عبد الوهاب - تعليق وشرح محمود شكري الألوسي - مؤسسة مكة للطباعة والإعلام عام ١٣٩٦ هـ .
١٣٠ - مستقبل الثقافة في مصر / د. طه حسين .
١٣١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل - توزيع دار الباز - مكة المكرمة - الطبعة الثانية .
١٣٢ - مشكاة المصابيح / الخطيب التبريزي - تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ .
١٣٣ - معالم في الطريق / سيد قطب - دار الشروق عام ١٩٨٠ م .
١٣٤ - وفيات الأعيان / ابن خلكان - طبعة وستنفلد .
١٣٥ - المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية - سنة ١٩٦١ م .
١٣٦ - المفضليات / المفضل بن محمد الضبي - دار المعارف - تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - الطبعة السادسة .
١٣٧ - مقدمة ابن خلدون - دار الكتاب العربي - بيروت .
١٣٨ - الملل والنحل / ابن حزم - القاهرة ١٣١٧ هـ .

١٣٩ - منهاج السنة / الإمام ابن تيمية .
١٤٠ - منهج التربية الإسلامية / الأستاذ محمد قطب الطبعة الثانية - دار الشروق .
١٤١ - منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (الجزء الأول) / محمد سرور زين العابدين - دار الأرقم الكويت - سنة ١٤٠٥ هـ .
١٤٢ - منهج الإسلام في الحرب والسلام / عثمان جمعة ضميرية - مكتبة دار الأرقم - الكويت الطبعة الأولى عام ١٤٠٢ هـ .
١٤٣ - منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير / فهد الرومي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولىٰ عام ١٤٠١ هـ .
١٤٤ - نشوء القومية العربية / زيد نور الدين زين - ترجمة دار النهار للنشر - بيروت - سنة ١٩٦٨ م .
١٤٥ - نظرات في الدين / عبد اللطيف غزالي .
١٤٦ - نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع / الشيخ عبد العزيز ابن باز المكتب الإسلامي عام ١٩٨٣ م .
١٤٧ - النقد الذاتي / خالص جلبي - بيروت - مؤسسة الرسالة .
١٤٨ - نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية : محمد خير عبد القادر مكتبة وهبة ، القاهرة .
١٤٩ - النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة : الشيخ مصطفى صبري - بيروت : ١٣٤٢ هـ .
١٥٠ - نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري - طبعة دار الكتب .
١٥١ - الوصية الكبرى : ابن تيمية - تحقيق : محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية مكتبة الصدّيق - الطائف ١٤٠٨ هـ ، الأولى .
١٥٢ - واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ، مؤسسة المدينة للصحافة الطبعة الأولى
١٥٣ - وجاء دور المجوس : د. عبد الله محمد الغريب - الطبعة الأولى ١٩٨١ م .
١٥٤ - الوزراء والكتاب : الجهشاري - مطبعة الحلبي / القاهرة ١٩٣٨ م .
١٥٥ - الولاء والبراء : د . محمد سعيد القحطاني - دار طيبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ .
١٥٦ - كتاب اليوم والغد : سلامة موسى / مصر ١٩٢٧ م .
١٥٧ - المجلات والدوريات :

١ - مجلة البيان : يصدرها المنتدى الإسلامي - لندن .
٢ - مجلة العرب : الشعودية - الرياض .
٣ - مجلة الإرشاد اليمنية - اليمن .

فهـرس الكتـاب

الفصل الثاني

الإسلام والجاهلية

المبحث الأول : التربية العقدية :

المبحث الثاني : العصبية القبلية وموقف الإسلام منها :

ايداع رقم ١٩٩١/٧٨٦٨

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية - تليفون، ٩٠٤٣٤٣

هـــذا الكتـــاب ..

- للجاهلية مقومات أساسية ، تعتمد عليها في التصور والتعامل .. فما هى ؟

- وهل تختص هذه الجاهلية بفترة محدده ، ومكان محدود ؟ أم أنها تعنى الخروج على شرع الله ، ثم تعني السَّفه والضلال أينما وُجدت ، ومتى حلَّت ؟ !

- والعصبية القبلية ، هل مضت إلى غير رجعة ، أم تراها قد عادت في فترات من التاريخ ، تحت رايات مختلفة وشعارات متباينة ، وحتى الآن ؟ !

- وعندما أشرق القرآن بأنواره ، وقام يجتث الجاهلية من جذورها ، ويبني أمة القرآن .

- فما نوع التربية التي تمكَّن من خلالها رسول الهداية ﷺ أن يقضي على مقومات هذه الجاهلية من عصبية وتفرق وتناحر ، يجعل من العرب أمة واحدة : القرآن دستورها ، والسُّنة منهجها ، وراية الجهاد ترفرف فوق كتائبها والأخوة لحمتها :

- هذه الأسئلة وغيرها ، يجيب عليها هذا الكتاب ، معتمداً على مصادر الشعر الجاهلي ، ويناقشها على ضوء الكتاب والسُّنة . بأسلوب رصين ، ودراسة مقارنة ، يربط الماضي بالحاضر ، محذراً من عودة مظاهر هذه الجاهلية بشكل أو بآخر .

وإننا لنرجو أن تستنير به الأجيال المؤمنة ، ويكون إحدى لبنات صحوتها المباركة بإذن الله تعالى .

